2

سلسلة

موازين القرآن

قراءة قرآنية تعيد وزن الأشياء

وَلِنَبْلُوَنَّكُمْ

رحلة القرآن في كشف القلوب وبناءها

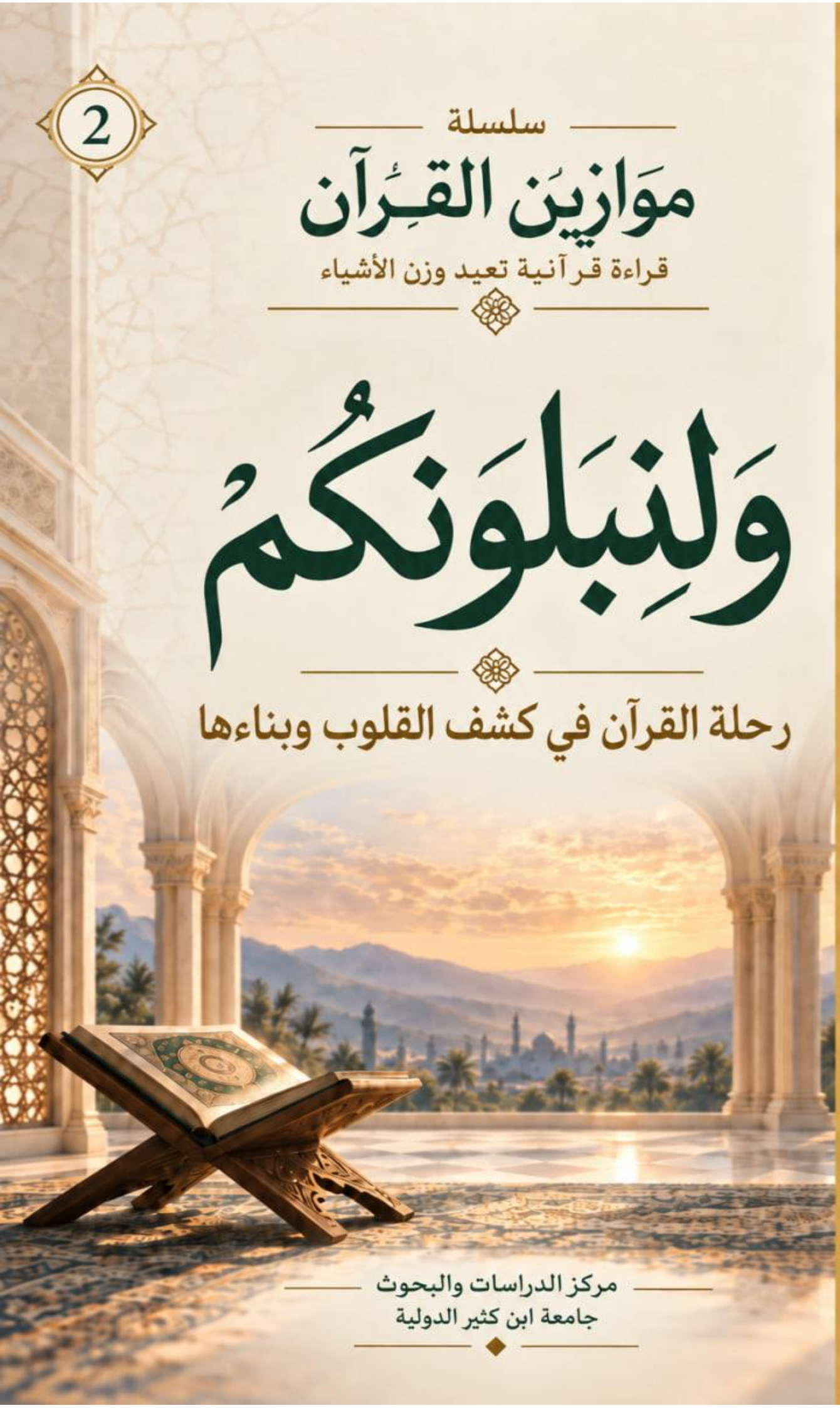

مركز الدراسات والبحوث
جامعة ابن كثير الدولية

ولنبلونكم

رحلة قرآنية في كشف القلوب وبنائها

ولنبلونكم

رحلة قرآنية في كشف القلوب وبنائها

بحث شرعي

محتويات الكتاب

مقدمة الكتاب 1

ما الذي يبحث عنه هذا الكتاب؟..... 2

منهج الكتاب وحدوده 2

في ألفاظ الابتلاء والفتنة والتمحيص..... 3

رحلة الكتاب 3

كيف يقرأ هذا الكتاب؟ 4

المحور الأول: الحياة ميدان ابتلاء..... 5

مقدمة المحور..... 5

الوحدة الأولى: لماذا خُلق الموت والحياة؟ 6

الوحدة الثانية: ليست الدنيا دار الجزاء الكامل 11

الوحدة الثالثة: سنة الابتلاء ماضية على الجميع 15

الوحدة الرابعة: الدعوى لا تكفي 19

خاتمة المحور الأول 22

المحور الثاني: كيف يكشف الله ما في القلوب؟..... 24

مقدمة المحور..... 24

الوحدة الخامسة: حين تخدع النعمة صاحبها..... 25

الوحدة السادسة: حين يغيب من كنت تستند إليه 32

الوحدة السابعة: حين يقترب ما تخشاه..... 38

الوحدة الثامنة: حين تكشف الهزيمة مواضع الخلل 43

الوحدة التاسعة: حين يصبح القرار في يدك 49

خاتمة المحور الثاني: بأي قلب دخلت؟ 53

المحور الثالث: كيف تقرأ ما انكشف؟ 55

موازين التمييز في أحوال القلوب 55
مقدمة المحور: بعد المرآة..... 55
الوحدة العاشرة: مرآة تحتاج إلى ميزان..... 57
الوحدة الحادية عشرة: حين لا تحملك العادة 61
الوحدة الثانية عشرة: لمن تعمل حين لا يراك أحد؟ 65
الوحدة الثالثة عشرة: حين تنتظر ما لم تُوعَد به..... 70
الوحدة الرابعة عشرة: الصبر الذي يتحرك 75
الوحدة الخامسة عشرة: حين تخاف على إيمانك 80
خاتمة المحور الثالث: لا تخف من المرآة..... 85
المحور الرابع: كيف يربي الله المؤمنين؟ 88
الابتلاء ليس كشفًا فقط، بل بناء 88
الوحدة السادسة عشرة: التمحيص..... 89
الوحدة السابعة عشرة: كيف يصنع الله الرجال؟..... 96
الوحدة الثامنة عشرة: لماذا يتأخر النصر؟.....101
الوحدة التاسعة عشرة: البلاء قبل التمكين 106
خاتمة المحور الرابع: ما الذي يبنيه الابتلاء؟.....112
المحور الخامس: سنن السقوط والثبات 114
مقدمة المحور.....114
الوحدة العشرون: لماذا يثبت بعض الناس؟.....115
الوحدة الحادية والعشرون: لماذا يسقط آخرون؟ 119
الوحدة الثانية والعشرون: أخطر أمراض القلوب عند الابتلاء.....123
الوحدة الثالثة والعشرون: الجماعة حين تمتحن 127
خاتمة المحور الخامس: القلب حين يُمتحن.....132
المحور السادس: من البلاء إلى التمكين.....133
مقدمة المحور.....133

الوحدة الرابعة والعشرون: وعد الله لا يتخلف..... 134
الوحدة الخامسة والعشرون: سنن الفرج..... 140
الوحدة السادسة والعشرون: حين يتحول البلاء إلى نعمة..... 145
الوحدة السابعة والعشرون: التمكين ابتلاء جديد..... 149
خاتمة المحور السادس: من الرجاء إلى الأمانة..... 153
المحور السابع: كيف تعيش هذه السنن؟..... 155
مقدمة المحور..... 155
الوحدة الثامنة والعشرون: كيف تقرأ أحداث حياتك؟..... 156
الوحدة التاسعة والعشرون: كيف تستعد لما لم يأت بعد؟..... 161
الوحدة الثلاثون: كيف لا تعود كما كنت؟..... 166
الوحدة الحادية والثلاثون: حتى تلقى الله..... 171
خاتمة المحور السابع: من السنن إلى الطريق..... 177
خاتمة الكتاب..... 179

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، خلق الموت والحياة ليبلو عباده أيهم أحسن عملًا، وجعل أيام الدنيا ميدانًا تتقلب فيه القلوب بين السعة والضيق، والعطاء والمنع، والخوف والأمن، والقوة والضعف؛ والصلاة والسلام على نبينا محمد، الذي دل أمته على عبودية الله في كل حال، وعلى آله وصحبه أجمعين.

يدخل الإنسان الحياة وفي نفسه صورة لما ينبغي أن تكون عليه: يرجو السلامة، ويحب العافية، ويتمنى أن تستقيم خططه، ويبقى من يحب، وتتسع أمامه أبواب الرزق والقبول والنجاح. وهذه مطالب فطرية مشروعة، لا يلام العبد على طلبها، وقد أمره الله أن يسأله الخير والعافية، وأن يأخذ بأسبابهما.

لكن الخلل يبدأ حين تتحول هذه الرغبات إلى ميزان يحاكم به الإنسان حياته وعلاقته بربه؛ فيظن أن الإيمان الصادق ينبغي أن يعفيه من الألم، وأن الدعاء لا بد أن يأتي بالنتيجة التي اختارها وفي الوقت الذي حدده، وأن العطاء دليل إكرام، والمنع دليل إهانة، وأن الطريق الصحيح لا بد أن يكون قصيرًا واضحًا قليل الكلفة.

ثم تأتي الحياة على غير ما رسم.

تأتي نعمة لم يكن ينتظرها، أو يذهب شيء كان يظنه ثابتًا. يخاف بعد أمن، ويضعف بعد قوة، ويهزم بعد نجاح، أو يمكّن بعد طول عجز. وتظهر عند ذلك أسئلة لم تكن حاضرة في زمن السعة: لماذا وقع هذا؟ ماذا يعني ما أصابني؟ هل تخلى الله عني؟ هل كنت مخطئًا في الطريق؟ ولماذا ثبت قلب وسقط آخر؟

يفتتح القرآن قراءة الحياة من أصل مختلف، فيقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: 2].

فالحياة لم تخلق لتكون مساحة راحة كاملة، ولا الموت خللًا طرأ على مسارها؛ بل خلقا معًا في ميدان يظهر فيه حسن العمل. والقضية ليست مقدار ما ناله الإنسان من الدنيا، ولا عدد المصائب التي نجا منها، وإنما كيف عبد الله فيما أعطي وما منع، وفيما أحب وما كره، وفيما استطاع وما عجز عنه.

ومن هذا المعنى جاء عنوان الكتاب من قول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: 31].

فالإنسان يخبر عن نفسه: يقول إنه يؤمن، ويصبر، ويتوكل، ويطلب الحق، ويعدل، ويزهد في الدنيا. ثم تأتي المواقف فتنقل هذه الأخبار من القول إلى الاختيار والعمل. وليس معنى ذلك أن الله يكتسب بالابتلاء علمًا لم يكن عنده؛ فعلمه سبحانه سابق محيط، وإنما يظهر ما علمه في واقع فعل العبد الذي تقوم عليه المحاسبة، ويعرف الإنسان من نفسه ما لم تكن الدعوى وحدها قادرة على كشفه.

ما الذي يبحث عنه هذا الكتاب؟

لا يقتصر هذا الكتاب على السؤال: لماذا تقع المصائب؟ ولا يريد أن يجمع فضائل الصبر، أو يقدم كلمات تسلية للمبتلى ثم يتركه مع تفسيره القديم للحياة. إنما يحاول بناء ميزان قرآني يقرأ به الإنسان ما يقع له، وما يظهر في قلبه، وما يطلب منه بعد ذلك.

فالابتلاء في القرآن ليس ألمًا مجردًا؛ إنه ميدان تظهر فيه سنن الله، وتنكشف حقيقة القلب، وتتجدد عبودية الإنسان. قد يكشف ضعفًا خفيًّا أو تعلقًا مستورًا، وقد يكون بابًا للتمحيص والتربية والبناء. وقد يخرج منه عبد أصدق افتقارًا وأبصر بنفسه، بينما يخرج آخر أشد إصرارًا أو اغترارًا؛ لا لأن الحدث وحده صنع المآل، بل لما دخل به القلب، وما اختاره صاحبه، وما وفقه الله إليه.

ومن هنا لا يقف الكتاب عند سؤال:

لماذا وقع هذا؟

بل ينتقل إلى أسئلة أعمق:

ماذا كشف ما وقع في قلبي؟

وكيف ينبغي أن أقرأ ما انكشف؟

وما العبودية التي شرعها الله لي الآن؟

وكيف أخرج من هذا الحال أعرف بربي، وأصدق مع نفسي، وأقوم بحقوق الله والخلق؟

منهج الكتاب وحدوده

يقوم هذا الكتاب على جعل القرآن والسنة أصلًا مولدًا للمعنى وحاكمًا على التحليل والتطبيق، لا شاهدين يضافان بعد اكتمال الفكرة. وقد روجعت المعاني التفسيرية المركزية في تفاسير أهل السنة، مع العناية بسياق الآيات ودلالة ألفاظها، وعدم تحميل النص معنى نفسيًّا أو اجتماعيًّا لا يدل عليه.

ولا يقصد الكتاب إلى استقصاء الأقوال التفسيرية والخلافات العلمية؛ فلذلك مظانه، وإنما ينتقي من المعاني ما صح دليله وخدم مقصد الوحدة. أما التطبيقات التربوية والواقعية فهي تنزيل للمعنى الصحيح على أحوال الناس، وليست تفسيرًا جديدًا للآيات.

ويستفيد الكتاب من المعرفة النفسية والاجتماعية في وصف بعض أنماط السلوك وتأثير البيئة والجماعة، لكنه لا يجعل النظريات المتغيرة مرجعًا حاكمًا على الوحي، ولا يختزل الإنسان في دوافعه النفسية أو ظرفه الاجتماعي؛ فالإنسان في التصور القرآني عبد مسؤول، يتأثر بما حوله، ويملك مساحة اختيار، ويحتاج في ذلك كله إلى توفيق الله ورحمته.

ولا يجزم الكتاب بحكمة غيبية خاصة لواقعة بعينها؛ فقد يكون البلاء تربية، أو تكفيرًا، أو رفعًا للدرجات، أو نتيجة لخطأ، وقد تجتمع فيه حكم وأسباب متعددة لا يحيط بها العبد. ولذلك لا يقال لكل مريض إن مرضه بسبب ذنب معين، ولا لكل من مُنِعَ شيئًا أنّ عوضًا دنيويًّا أفضل ينتظره، ولا لكل مبتلى أنّ ما أصابه مقدمة حتمية لتمكين ظاهر.

كما أن أوصاف القلوب الواردة في القرآن ليست أدوات لتصنيف الناس والحكم على سرائرهم. الغاية أن يجعل القارئ الآيات مرآة لنفسه، لا منظارًا يتتبع به بواطن الآخرين. وقد يظهر من المؤمن ضعف أو خوف أو تردد أو ذنب، ولا يصير ذلك حكمًا نهائيًّا على إيمانه؛ وإنما ينظر إلى اختياره، وتكراره، ورضاه، ومجاهدته، وما صنعه بعد أن عرف خطأه.

ولا يعني الصبر ترك الأسباب، ولا الرضا السكوت عن الظلم، ولا التوكل إهمال العلاج والمشورة والإعداد. فالعبودية تجمع بين عمل القلب وعمل الجوارح: تسليم لله، وقيام بالواجب، وأخذ بالسبب، وصدق في مراجعة النفس.

وليس كل حزن أو خوف أو ألم مرضًا قلبيًّا مذمومًا؛ فقد يحزن المؤمن ويخاف ويتألم، ويبقى ثابتًا على العبودية. إنما يظهر الخلل حين يصبح الانفعال حاكمًا على الحق، أو يقود إلى اعتراض أو ظلم أو ترك واجب.

في ألفاظ الابتلاء والفتنة والتمحيص

يستعمل القرآن ألفاظًا متعددة في هذا الباب، ولا يلزم أن تكون مترادفة في جميع المواضع. فالبلاء والابتلاء قد يكونان بما يحب الإنسان أو بما يكره، وأما الفتنة فأوسع استعمالًا، ويحدد السياق معناها، وقد تأتي في الاختبار أو الإضلال أو العذاب أو غير ذلك. ويأتي التمحيص في سياقات يظهر فيها معنى التنقية والتمييز والكشف.

وسيستعمل الكتاب لفظ «الابتلاء» عنوانًا جامعًا لميدان الامتحان الذي تظهر فيه عبودية الإنسان، مع بقاء كل نص محكومًا بسياقه الخاص.

رحلة الكتاب

تسير هذه الرحلة في سبعة محاور متتابعة، يقود كل واحد منها إلى السؤال الذي يليه.

يبدأ المحور الأول بتصحيح رؤية الحياة نفسها؛ فيقرر أن الموت والحياة خلقا للابتلاء وحسن العمل، وأن الدنيا ليست دار الجزاء الكامل، وأن سنة الابتلاء ماضية على الجميع، وأن دعوى الإيمان لا تستغني عن الموقف الذي يظهر أثرها.

ثم ينتقل المحور الثاني إلى الأحوال التي تكشف القلوب: النعمة والفقد والخوف والهزيمة والتمكين. فالحدث الواحد لا يصنع الأثر نفسه في كل إنسان؛ قد يزيد قلبًا شكرًا، ويزيد آخر اغترارًا، وقد يرد الفقد عبدًا إلى الله، بينما يكشف في غيره شدة التعلق بالمخلوق.

وبعد الكشف تأتي موازين القراءة في المحور الثالث؛ لأن رؤية ما ظهر في القلب لا تكفي إذا أسيء تفسيره. فيميز الكتاب بين الموقف العارض والاتجاه المستقر، وبين الإيمان والعادة، والإخلاص وحظ النفس، واليقين والتمني، والصبر والجمود، وضعف المؤمن وخصال النفاق.

ثم يأتي المحور الرابع ليبين أن الابتلاء لا يكشف فقط، بل يربي ويبني؛ فينظر في التمحيص، وصناعة الرجال، وتأخر النصر، وما يسبق اتساع المسؤولية من تربية وإعداد.

ومن البناء ينتقل المحور الخامس إلى سنن الثبات والسقوط: لماذا يثبت بعض الناس؟ ولماذا يسقط آخرون؟ وكيف تعمل أمراض القلب عند الشدة؟ وماذا يحدث للجماعة حين تدخل الامتحان؟

ثم يفتح المحور السادس باب الرجاء المنضبط، فينظر في وعد الله، وسنن الفرج، وكيف قد يتحول البلاء إلى باب من أبواب النعمة والهداية، ثم يقرر أن التمكين ليس نهاية الامتحان ولا انتقالًا إلى الراحة، بل ابتلاء جديد في الشكر والعدل وحمل الأمانة. ولا يعني ذلك أن كل مبتلى موعود بتمكين دنيوي ظاهر؛ فقد يكون تمام النعمة في ثبات الدين، أو صلاح القلب، أو الأجر المدخر عند الله.

ويختم المحور السابع الرحلة بتحويل هذه السنن إلى منهج حياة: كيف يقرأ الإنسان نجاحه وفشله، وصحته ومرضه، وأسرته ورزقه، بعين القرآن؟ وكيف يستعد للابتلاء قبل نزوله؟ وكيف يخرج منه أصلح مما دخل؟ وكيف يعيش بقية عمره حتى يلقى الله؟

فالكتاب ينتقل بالقارئ من تصحيح الرؤية، إلى كشف القلب، ثم فهم ما انكشف، وبناء النفس، ومعرفة سنن الثبات والسقوط، ورؤية الفرج والتمكين في ميزان القرآن، ثم تحويل ذلك كله إلى طريقة يعيش بها.

كيف يقرأ هذا الكتاب؟

هذا الكتاب لا يراد أن يقرأ على عجل، ولا أن يتحول إلى معلومات تضاف إلى ما يعرفه القارئ. الأفضل أن تقرأ كل وحدة وحدها، وأن تقف مع آياتها وأسئلتها، وتسأل عما تعنيه لك قبل أن تبحث عمن تنطبق عليه.

وقد تجد وحدة تصف حالًا تعيشه الآن، وأخرى لا يظهر أثرها إلا بعد زمن. وليس المطلوب أن تخرج من كل فصل مطمئنًا إلى نفسك؛ فقد يكون من رحمة الله أن ترى خللًا لم تكن تراه. كما أن المقصود ليس إدانة النفس أو دفعها إلى الوسواس، وإنما معرفة موضع العمل: حق يؤدى، أو ذنب يترك، أو تعلق يصحح، أو سبب يؤخذ، أو ضعف يحمل إلى الله.

لن يختار الإنسان جميع الأحوال التي تمر به، ولن يعرف الحكم التفصيلية لكل ما يقع، لكنه مسؤول عن القلب الذي يدخل به إلى الموقف، وعن العمل الذي يخرج منه.

ولا يطلب منه هذا الكتاب أن يكون بلا ضعف، بل أن يكون صادقًا حين يظهر ضعفه، مفتقرًا إلى الله حين يخاف، راجعًا إليه حين يخطئ، شاكرًا حين يثبت، ومستعدًّا لأن يتعلم من كل حال.

فالغاية ليست أن تعرف أنواع الابتلاء فقط، بل أن يتغير الميزان الذي تقرأ به حياتك، وأن تتحول المعرفة إلى عبودية.

وقبل أن نسأل ماذا تكشف النعمة والفقد والخوف، وكيف يثبت قلب ويسقط آخر، لا بد أن نبدأ من أصل أسبق:

كيف ينبغي أن نقرأ الحياة نفسها؟

ومن هنا يبدأ المحور الأول: **الحياة ميدان ابتلاء.**

المحور الأول: الحياة ميدان ابتلاء

مقدمة المحور

كيف تقرأ الحياة قبل أن تحكم عليها؟

يدخل الإنسان الحياة وفي نفسه صورة لما ينبغي أن تكون عليه. يحب السلامة والعافية، ويرجو أن يستقيم رزقه، ويستقر بيته، ويبقى من يحب، وتنجح خططه، وتفتح له الأبواب التي طرقها طويلًا. وهذه رغبات فطرية مشروعة؛ فقد أمر الله عباده بسؤاله الخير والعافية، وبالأخذ بأسباب الرزق والصحة والأمن، ولم يجعل الزهد في الدنيا رفضًا لنعمها أو امتناعًا عن عمارتها.

لكن الخلل يبدأ حين تتحول الأشياء التي يرجوها الإنسان إلى ميزان يحاكم به الحياة ورب الحياة؛ فيظن أن الطريق الصحيح ينبغي أن يكون سهلًا، وأن الإيمان الصادق يعفي صاحبه من الألم، وأن الدعاء لا بد أن يأتي بالنتيجة التي اختارها وفي الوقت الذي حدده، وأن العطاء دليل كرامة، والمنع دليل هوان، وأن نجاح العمل شهادة على صحة كل ما جرى فيه.

ثم تأتي الحياة على غير ما رسم.

يعطي الله ويمنع، ويجمع ويفرق، ويفتح بابًا ويغلق آخر، ويقوى الإنسان ثم يضعف، ويأمن ثم يخاف، وينجح في موطن ويتعثر في آخر. وقد يطول عليه طريق كان يظنه قريبًا، أو يذهب منه شيء حسب أنه ثابت، أو تأتيه نعمة لم يتوقعها فتضع بين يديه مسؤولية لم يكن يحملها.

عند ذلك يظهر السؤال الذي يحكم طريقة الإنسان في قراءة حياته: هل اختلت الحياة لأنها لم توافق ما أردنا، أم أن تصورنا عنها كان ناقصًا منذ البداية؟

يفتتح القرآن الجواب من أصل الخلق نفسه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: 2].

فالموت والحياة لم يخلقا ليكون سؤال الإنسان الأكبر: كم نلت من الراحة؟ وكم نجوت من الألم؟ وإنما: ماذا صنعت في الزمن الذي أعطيته؟ وكيف عبدت الله فيما أحببت وما كرهت، وفيما امتلكت وما فقدت، وفيما قدرت عليه وما عجزت عنه؟

لم يقل الله: أيكم أكثر مالًا، أو أطول عمرًا، أو أعظم شهرة، أو أقل تعرضًا للمحن. قال: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. فانتقل الميزان من مقدار ما يأخذه الإنسان من الدنيا إلى ما يصنعه هو بما أعطي فيها.

ومن هنا لا تكون معرفة الابتلاء دعوة إلى انتظار المصائب، ولا إلى الشك في كل نعمة، وإنما تصحيحًا للرؤية قبل أن تنزل الأحوال. فالذي يعرف طبيعة الميدان لا يفاجئه أن تتغير ظروفه، ولا يجعل كل تغير حكمًا جديدًا على ربه أو على إيمانه، ولا يقرأ حياته من خلال اللحظة التي يعيشها وحدها.

ويقوم هذا المحور على أربعة أصول يقود بعضها إلى بعض.

أولها: أن الموت والحياة خلقا للابتلاء وحسن العمل، فلا يكون طول العمر ولا وفرة المكاسب هما المقياس الأعلى.

وثانيها: أن الدنيا ليست دار الجزاء الكامل، فلا يصلح العطاء والمنع فيها حكمًا نهائيًا على منزلة العبد عند الله.

وثالثها: أن سنة الابتلاء ماضية على الناس جميعًا، وإن اختلفت صورها.

ورابعها: أن دعوى الإيمان لا تبقى كلمات؛ فالمواقف تنقل ما يقوله الإنسان عن نفسه إلى عالم الاختيار والعمل.

وحين تستقر هذه الأصول، يتغير السؤال الذي يواجه به الإنسان يومه. بدل أن يبقى أسير سؤال: لماذا لم تجر الأمور كما أحب؟ يتعلم أن يسأل سؤالًا أبقى أثرًا وأقرب إلى العبودية:

ما الذي يريده الله مني في الحال التي أنا فيها، وكيف يكون عملي فيها أحسن؟

ومن هنا تبدأ الرحلة بالسؤال الأول:

لماذا خلق الله الموت والحياة؟

الوحدة الأولى: لماذا خُلق الموت والحياة؟

ماذا يتغير في حياة الإنسان حين يعرف أنه لم يُخلق لمجرد أن يعيش، بل ليحسن العمل قبل أن يموت؟

يبدأ كثير من الناس التفكير في الموت حين يقترب منهم؛ حين يمرضون، أو يشيعون قريبًا، أو يسمعون بخبر مفاجئ يذكرهم بأن العمر ليس مضمونًا. ثم تخفت الفكرة بعد أيام، وتعود الحياة إلى سرعتها القديمة، كأن الموت حادث بعيد يقتحم الطريق أحيانًا، لا حقيقة تسير مع الإنسان منذ أول يوم في حياته.

لكن القرآن لا يضع الموت في هامش الحياة، بل يذكرهما معًا في أصل واحد:

> ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: 2].

فالموت ليس خللًا طرأ على نظام الحياة، والحياة ليست ملكًا دائمًا سُلب من الإنسان على غير انتظار. كلاهما خلق الله، وبين بداية العمر ونهايته يمتد زمن التكليف والعمل، ويُعطى الإنسان من الأيام ما لا يعرف عدده حتى يرى الله منه ما يعمل.

وهذا يغير السؤال من جذره. فالقضية القرآنية ليست: من عاش أطول؟ ولا من جمع أكثر؟ ولا من استطاع أن يتجنب قدرًا أكبر من الألم؟ وإنما: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

لست في سباق إلى مجرد البقاء

يتصرف الإنسان أحيانًا كأن أعظم غاياته أن يحافظ على حياته كما هي، وأن يؤجل كل معنى كبير إلى وقت أكثر مناسبة. سيتوب حين تستقر أحواله، ويصلح علاقاته حين يهدأ، ويطلب العلم حين يفرغ، ويرد الحقوق حين تتحسن ظروفه، ويبدأ العمل النافع حين تقل مسؤولياته.

لكن الحياة لا تتوقف حتى نستعد لها، والعمر لا يخبر صاحبه كم بقي منه، ولا ما قُدِّر له فيه. قال الله تعالى:

> ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: 34].

فالمجهول ليس ساعة الموت وحدها؛ الغد نفسه لا يملكه الإنسان. قد يخطط لأعوام، وهذا من الأخذ بالأسباب، لكنه لا يملك ضمان يوم واحد مما خطط له. وليس المقصود أن يعيش مذعورًا، وإنما أن يتحرر من وهم التأجيل الذي يجعل العمر كله مقدمة لحياة لم تبدأ بعد.

ومن عرف أن أيامه محدودة صار أقدر على تمييز المهم من التافه، وعلى المسارعة إلى التوبة وأداء الحقوق، وعلى ألا يجعل خصومة صغيرة تستهلك سنوات من عمره، أو يجعل رضا الناس أغلى من رضا الله، أو يؤجل خيرًا يستطيع البدء فيه اليوم لأنه ينتظر ظروفًا مثالية قد لا تأتي.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» رواه البخاري (6416).

وعابر السبيل لا يهمل الطريق الذي يسير فيه، ولا يرفض الانتفاع بما فيه، لكنه يعرف أن موضعه الحالي ليس وطنه الأخير. يعمر مرحلته من غير أن ينسى وجهته، ويحسن استعمال ما في يده من غير أن يتعامل معه كأنه باق له إلى الأبد.

حضور الموت في تعريف الحياة

قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾. ولا ينبغي أن نحمل تقديم الموت على الحياة معاني تفصيلية لا يدل عليها النص، لكن مجيء الموت في صدر الآية يجعله حاضرًا في تعريف الحياة نفسها، فلا تكتمل قراءة العمر إذا نُسيت نهايته.

وجود النهاية يمنح الاختيارات وزنها. للكلمة وزن لأنها قد تترك أثرًا لا تستطيع رده، وللتوبة وزن لأن وقت العمل ليس مفتوحًا بلا نهاية، وللحق وزن لأنك قد تفارق الدنيا قبل أن تؤديه، وللظلم وزن لأن صاحبه سيمضي إلى يوم لا يضيع فيه حق، وللخير وزن لأنه يبقى حين يذهب كثير مما جمعه الإنسان.

ولو عاش الإنسان وهو يتوهم أن أمامه وقتًا لا ينتهي، لتحولت التوبة إلى تأجيل دائم، والحقوق إلى مواعيد مؤجلة، والعمل الصالح إلى نية لا تجد وقتها. أما وقد جعل الله للعمر أجلًا، فإن كل يوم يصبح جزءًا من أمانة محدودة لا تعود بعد انقضائها.

وهنا يظهر أن ذكر الموت في الوحي لا يعطل الحياة، بل ينقذها من التبدد. لا يقول للإنسان: لا تعش، وإنما يرد عليه وهمًا أخطر:

لا تعش كأنك لن تموت.

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

لم يقل الله: أيكم أكثر عملًا، بل قال: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. والكثرة مطلوبة في الخير إذا صحت أصولها، لكنها لا تستقل بصناعة الحسن؛ فقد يكثر العمل وتفسده النية، وقد ينشغل الإنسان بأعمال ظاهرة ويضيع واجبات ألزم، وقد يتحرك كثيرًا ولا يقترب من الله لأن حركته كلها تدور حول صورته ومكانته.

وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم أصل القصد في قوله: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» رواه البخاري (1)، ومسلم (1907). وجمع أصل الاتباع في قوله: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» رواه البخاري (2697)، ومسلم (1718).

فلا يكفي أن يريد الإنسان الخير إذا سلك إليه طريقًا لا يرضاه الله، ولا يكفي أن يأتي بصورة العمل الصحيحة إذا كان القلب يطلب بها ما يناقض العبودية. وحسن العمل يقوم على إخلاص القصد لله، وموافقة شرعه، وأداء الواجب في موضعه، والعدل في الوسيلة، والصدق حين تغيب عيون الناس.

وقد يكون عمل صغير في أعين الخلق من أحسن أعمال يومك: اعتذار صادق ترد به حقًا، أو ساعة تؤدي فيها حق أهلك، أو مالًا تعيده إلى صاحبه، أو معصية تتركها في الخفاء لا يعلم بها أحد إلا الله. فالآية لا تسأل عن حجم الصورة وحده، وإنما عن حقيقة العمل عند الله.

الابتلاء لا يكشف لله علمًا خفيًا

قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ لا يعني أن الله لم يكن يعلم ما سيفعله عباده حتى اختبرهم؛ فعلمه سبحانه سابق محيط بكل شيء، لا يطرأ عليه جهل ثم علم. وإنما يقع الابتلاء فيظهر في عالم الفعل والاختيار ما علمه الله سبحانه، فتقوم الحجة، ويقع الثواب والعقاب على أعمال صدرت من العبد بإرادته، ويعرف الإنسان من نفسه ما لم تكن الدعوى وحدها تكشفه.

قد يقول الإنسان: أنا صابر، ثم يظهر مقدار صبره حين يؤذى. ويقول: لا أتعلق بالدنيا، ثم يرى من قلبه ما يرى حين يفوته المال أو تزول المكانة. ويقول: أريد الحق، ثم يمتحن حين يكون الرجوع إليه على حساب صورته. ويقول: أحب طاعة الله، ثم يظهر ترتيب المحبوبات حين يتعارض الأمر مع هوى النفس.

فالابتلاء لا يخبر الله بشيء خفي عنه، وإنما ينقل معاني الإنسان من القول إلى الاختيار، ومن المعرفة المجردة إلى القرار، ويكشف للعبد نفسه ما كان يستطيع أن يخفيه وراء صورته التي يحبها عنها.

ولهذا ليست الحياة اختبار معلومات فقط. قد يعرف الإنسان أن الدنيا قصيرة ثم يعيش لها كأنها باقية، ويعرف حرمة الظلم ثم يظلم حين يملك القوة، ويعرف فضل الصدق ثم يكذب حين تصبح الحقيقة مكلفة. والموقف هو الموضع الذي تنتقل فيه المعرفة من العقل إلى العمل.

كل حال لها عبوديتها

حين نقول إن الحياة ميدان ابتلاء، فلا نعني أنها حزن متصل، ولا أن المؤمن مأمور بالريبة من كل فرح. فقد امتن الله على عباده بالصحة والأمن والرزق والأهل، وأمرهم بشكر نعمه، وأباح لهم الانتفاع بالطيبات.

معنى الابتلاء أن العبودية لا تتوقف بتغير الحال. ففي السعة شكر وأداء للحق، وفي الضيق صبر وسعي مشروع، وفي العلم خشية وعمل، وفي القوة عدل وأمانة، وفي الخفاء إخلاص ومراقبة. وإذا تغيرت الظروف تغيرت صورة العبادة المطلوبة، لكن أصل العبودية لا يغيب.

وسيأتي في المحور التالي تفصيل ما تكشفه النعمة والفقد والخوف والهزيمة والتمكين في القلب، ويكفي هنا أن يتقرر أن الإنسان لا يخرج من ميدان التكليف حين تتحسن حياته، كما لا يخرج منه حين تضيق عليه.

فاللحظة التي أنت فيها الآن لها عبوديتها.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾

ختم الله الآية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾. فالميدان الذي تمتحن فيه ليس خارج ملك الله؛ هو العزيز الذي لا يعجزه شيء، ولا يخرج أحد عن سلطانه وحكمه. وهو في الوقت نفسه الغفور الذي فتح لعباده باب الرجوع، فلم يجعل الخطأ نهاية الطريق ما دام العبد حيًا صادق التوبة.

واجتماع الاسمين يربي القلب على معنى متوازن: هيبة تمنع التهاون، ورجاء يمنع اليأس. فمن عرف العزة دون المغفرة قد يغلب عليه الخوف حتى يقنط، ومن تعلق بالمغفرة وهو غافل عن عزة الله وحكمه قد يأمن ويفرط. أما المؤمن فيعلم أنه بين يدي رب لا يُغلب ولا يظلم، ولا تضيع عنده الأعمال، ومع ذلك يغفر لمن رجع إليه.

ولهذا لا ينبغي أن تتحول معرفة الابتلاء إلى سجن من القلق. إنها تدعوك إلى الجد، لكنها تفتح لك التوبة، وتذكرك بالنهاية، لكنها لا تغلق باب البداية الجديدة ما دام في العمر بقية.

حسن العمل والنتيجة

من أخطر الأخطاء أن يقيس الإنسان حسن عمله بالنتيجة الظاهرة وحدها. ينجح المشروع فيظن أن كل ما فعل كان صوابًا، ويكثر المتابعون فيرى الانتشار شهادة على صحة كل ما قيل، وترتفع الأرباح فيحسب أن الطريق كله مرضي، أو تفشل محاولة فيحكم أن المقصد نفسه كان خطأ.

لكن قوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ لا يعني: أيكم أعظم نتيجة دنيوية.

النتائج معتبرة، ويتعلم الإنسان منها، ويراجع خطته وأداءه على ضوئها، لكن حسن العمل يسبق النتيجة في صحة القصد، وموافقة الشرع، والعدل في الوسائل، وأداء الأمانة، وعدم ظلم الناس للوصول إلى الغاية. وقد يعمل الإنسان عملًا صحيحًا ولا يرى الثمرة التي يريدها، وقد ينجح عمل فاسد زمنًا لأسباب كثيرة، فلا تصبح النتيجة وحدها حكمًا أخلاقيًا أو شرعيًا على الطريق.

فالعبد مأمور أن يخطط ويتقن ويبذل، ثم يبقى عبدًا لله لا عبدًا للنتيجة.

من الآية إلى صباحك العادي

قد تبدو آية الملك حديثًا عن قضية كبرى: الموت والحياة. لكنها تدخل في أكثر تفاصيل اليوم عادية. حين تستيقظ لم يضف إلى عمرك يوم مضمون، وإنما فُتح لك وقت جديد للعمل. وحين تذهب إلى وظيفتك، فعملك موطن أمانة وصدق وإتقان، لا مصدر رزق فقط. وحين تجلس مع أهلك، قد تكون حسن المعاملة من أحسن أعمال يومك وإن لم يرها جمهور.

والحياة التي خُلقت للابتلاء ليست الأحداث الكبرى وحدها. قد يكون امتحان اليوم في حق لا تماطل فيه، أو غضب تكظمه، أو نظرة تغضها، أو وعد تفي به، أو صلاة تؤديها كما أمر الله، أو عمل تتقنه لأنك تعلم أن الله يراك.

ولهذا لا يحتاج الإنسان كل صباح إلى انتظار محنة كبيرة حتى يدخل ميدان الابتلاء؛ هو داخله بالفعل.

وقفة عملية: ماذا تصنع بالوقت الذي أعطيته؟

انظر إلى يومك كما هو، واسأل نفسك: ما الحق الذي أؤجله كأن العمر مضمون؟ وما العمل الذي أكرره وقد ضعفت فيه النية أو الإتقان؟ وهل أقيس نجاح عملي برضا الله وصحة الطريق، أم بإعجاب الناس والنتائج وحدها؟ وما الخير الذي أستطيع أن أبدأه اليوم بدل أن أعلقه بغد لا أملكه؟

ليست الغاية أن تعيش في هلع من الموت، وإنما أن تعيش في صدق مع الحياة. فحين تعرف أن العمر ميدان عمل، تصبح المبادرة إلى التوبة وأداء الحقوق جزءًا من فهمك للحياة، لا استجابة مؤقتة لخوف عابر.

وسيأتي يوم لا يكون الموت فيه فكرة تقرؤها أو خبرًا تسمعه، بل حقيقة تخصك أنت. يتوقف العمل، وتبقى آثاره، ويذهب كثير مما جمعت، ويبقى ما قدمت. وعندها لن يكون السؤال الأهم: كم سنة عشت؟ بل: ماذا صنعت بالسنوات التي عشتها؟

ومع ذلك لا يدعوك القرآن إلى اليأس من ماض ضاع؛ فالذي خلق الموت والحياة هو العزيز الغفور. ما دام في العمر بقية، فباب الإحسان مفتوح. قد يكون من أحسن ما بقي لك توبة صادقة، أو حق تعيده، أو قلبًا تصلحه، أو عملًا صغيرًا تخفيه عن الناس ويعلمه الله.

لا تنتظر حياة أخرى أكثر هدوءًا لتكون عبدًا لله. هذه هي حياتك، بهذه الظروف، وبهذا الجسد، وبهذا اليوم الذي ينقص الآن.

ومن هنا ينتقل السؤال من معنى العمر إلى ميزان الدنيا نفسها: إذا كانت الحياة ميدان عمل وليست دار جزاء كامل، فكيف نقرأ ما يعطى الإنسان فيها وما يمنع منه؟

الوحدة الثانية: ليست الدنيا دار الجزاء الكامل

لماذا يُعطى من لا يطيع الله، ويُمنع من يحبه؟ ولماذا لا تصلح أحوال الدنيا وحدها دليلًا على رضا الله أو سخطه؟

من أعمق الأخطاء التي تسكن القلب أن يتعامل الإنسان مع الدنيا كأنها دار الجزاء الأخير. فإذا اتسع رزقه قال في داخله: أنا عند الله مكرم، وإذا ضاق عليه قال: لعل الله أهانني. وإذا نجح مشروعه رأى النجاح شهادة على صحة كل ما فعل، وإذا تأخر عنه ما يرجوه بدأ يشك في الطريق أو في نفسه أو في وعد الله.

وقد يرى ظالمًا قويًا، وصالحًا ضعيفًا، فيضطرب ميزانه لأن الواقع لا يطابق الصورة التي رسمها للعدل. ومصدر الاضطراب أنه يطلب من الدنيا أن تعطيه حكمًا كاملًا، مع أنها لم تُخلق لتكون موضع الجزاء الأخير.

وقد واجه القرآن هذه القراءة مواجهة صريحة:

> ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا﴾ [الفجر: 15-17].

في الحالين قال الله: ﴿ٱبْتَلَىٰهُ﴾. فالنعمة ابتلاء، والتضييق ابتلاء. ثم جاءت ﴿كَلَّا﴾ لتنقض القراءة التي تجعل العطاء كرامة مطلقة والمنع إهانة مطلقة.

ليس كل عطاء دليل رضا، وليس كل منع دليل هوان.

الدنيا لا تعطي أحكامها كاملة

يرى الإنسان من الأحداث جزءًا صغيرًا. يرى اللحظة ولا يرى المسار كله، ويرى ظاهر المنع ولا يحيط بما دفع الله به، ويرى ظاهر العطاء ولا يعرف ما قد يصنعه في القلب، ويرى البداية بينما العاقبة لم تظهر بعد.

ولهذا قد يحكم على الواقعة وهي لا تزال في منتصفها. قال الله تعالى:

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

لا تعني الآية أن كل ما يكرهه الإنسان سيظهر له وجه خيره في الدنيا، ولا تمنحه قدرة على اكتشاف الحكمة التفصيلية في كل قدر. لكنها تضعه أمام حقيقة لا تتغير: علمه بالمشهد محدود، وعلم الله كامل.

قد يكره أمرًا لأنه يرى ألمه القريب، والله يعلم ما وراءه مما لا يحيط به. وقد يحب أمرًا لأنه يرى لذته العاجلة، ولا يعلم ما قد يفتح عليه من فتنة. ومن هنا يبدأ التسليم الصحيح؛ لا بتعطيل العقل وترك الأسباب، وإنما بأن يبذل الإنسان ما يستطيع، ويراجع خطأه إن ظهر، ولا يجعل ما خفي عليه حجة لسوء الظن بالله.

قارون وأصحاب الأخدود: من الفائز؟

خرج قارون على قومه في زينته، فقال الذين يريدون الحياة الدنيا:

﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: 79].

بميزان اللحظة كان قارون هو الفائز: مال وزينة ومكانة، والناس ينظرون إليه بإعجاب حتى وصفوه بأنه ذو حظ عظيم. لكن القرآن لم يترك القصة عند اللحظة التي بهر فيها العطاء أعين الناس، بل قال:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: 81].

الذين حكموا عليه بالحظ العظيم كانوا قد قرؤوا فصلًا واحدًا من القصة، ثم ظهرت لهم بعد ذلك حدود الميزان الذي كانوا يستعملونه.

وفي الجهة الأخرى يعرض القرآن أصحاب الأخدود؛ مؤمنون عذبوا لأنهم آمنوا بالله:

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: 8].

لو قرئت القصة بميزان الدنيا وحدها، لكان أصحاب النار هم المنتصرين؛ بقيت السلطة بأيديهم، ومات المؤمنون. لكن القرآن نقل النظر إلى العاقبة فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [البروج: 11].

فالدنيا تظهر بعض النتائج، أما الآخرة فتظهر الحقيقة كاملة. وقد يبدو إنسان فائزًا في أول المشهد، ويبدو آخر خاسرًا في آخر حياته الدنيوية، ثم يأتي ميزان الله فيكشف أن الحكم لم يكن قد اكتمل.

النتيجة ليست شهادة نهائية

النتائج مهمة؛ بها يتعلم الإنسان، ويصحح خطته، ويعرف أثر عمله، ويعيد النظر في أسبابه. لكن النتيجة لا تستقل بالحكم على صلاح الطريق أو فساد صاحبه.

قد ينجح عمل باطل زمنًا، وقد يتأخر أثر عمل صالح، وقد يكون الفشل ثمرة خطأ واضح يجب إصلاحه، وقد يبذل الإنسان ما يستطيع ثم لا يملك النتيجة التي يريدها. والميزان الشرعي يجمع بين أمرين لا ينبغي أن يفترقا: مراجعة الأسباب والنتائج بصدق، وعدم تحويل النتيجة إلى حكم نهائي على رضا الله أو منزلة العبد.

يسأل الإنسان نفسه: هل أحسنت الوسيلة؟ هل أديت الواجب؟ هل ظلمت أحدًا؟ هل قصرت في سبب أملكه؟ ثم يقوم بما يستطيع من التصحيح، ويبقى بعد ذلك عبدًا لله لا عبدًا للنتيجة.

فليس النجاح الحقيقي أن يمتلك الإنسان كل ثمرة أرادها، وإنما أن يسير إلى الله صادقًا، يؤدي ما عليه، ولا يبيع دينه أو يظلم الناس من أجل الوصول إلى النتيجة.

لا تجزم بالحكمة الخاصة

قد يكون في البلاء تكفير للسيئات أو رفع للدرجات، وقد يكون سببًا في تربية أو هداية، وقد تقع مصيبة بسبب خطأ فعله الإنسان، وقد تجتمع في الواقعة الواحدة أسباب وحكم متعددة لا يحيط بها العبد.

لكن الفرق كبير بين إثبات ما دل عليه الوحي من الحكم العامة، وبين الجزم بأن هذه الواقعة المعينة وقعت لهذه الحكمة الخاصة.

فلا يقال لكل مريض: مرضك بسبب ذنب معين. ولا لكل من تأخر عنه أمر يحبه: صرفه الله لأن عوضًا دنيويًا أفضل ينتظرك. ولا لكل من اتسع رزقه: هذا دليل رضا الله عن طريقك.

قد لا يظهر للعبد وجه الحكمة التفصيلية في الدنيا أصلًا، ويبقى مع ذلك مأمورًا بالثقة بعلم الله وحكمته، وبالقيام بما عليه من توبة وعمل وأخذ بالأسباب. وليس افتقار الإنسان إلى معرفة الحكمة الخاصة نقصًا في إيمانه؛ إنما النقص أن يقول على الله ما لا يعلم حتى يملأ فراغًا لم يكلف بملئه.

السعة قد تكون امتحانًا شديدًا

قد يفتح الله على إنسان أبواب الدنيا، ولا يكون ذلك شهادة بسلامة طريقه. قال تعالى:

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44].

يكفي في هذا الموضع أن يتقرر الأصل: فتح الأبواب ليس دائمًا شهادة رضا، كما أن إغلاقها ليس دائمًا علامة سخط. وسيأتي في وحدة النعمة تفصيل ما يصنعه العطاء بالقلب؛ أما هنا فالمقصود تصحيح الميزان الذي تقرأ به النتائج قبل الدخول في تفاصيل أثرها.

أين يظهر العدل الكامل؟

قد ينظر الإنسان حوله فيرى حقوقًا ضاعت، وظالمًا لم يعاقب، ومظلومًا مات قبل أن ينصف، فيضطرب قلبه إذا ظن أن الدنيا هي الساحة الوحيدة للجزاء. لكن الدنيا ليست آخر القصة.

قال الله تعالى:

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

هناك تظهر الأعمال والنيات والحقوق كاملة، ويعلم كل إنسان حقيقة ما قدم. والإيمان بالآخرة لا يجعل المؤمن يسكت عن الظلم في الدنيا؛ بل يأمره برد الحقوق ونصرة المظلوم وإقامة العدل بما يستطيع. لكنه يمنعه من الظن أن حقًا أفلت من علم الله لمجرد أنه لم ير استيفاءه أمام عينيه.

وقفة عملية: اضبط ميزانك

حين تأتيك نعمة، اسأل عن شكرها وحقها قبل أن تجعلها تزكية لنفسك. وحين يصيبك منع، راجع الأسباب التي تملكها، لكن لا تجعل المنع حكمًا بأن الله أهانك. وحين ترى نجاحًا، انظر في صحة الطريق قبل أن تنبهر بالنتيجة، وحين يتأخر أثر الحق فلا تجعل تأخر الثمرة دليلًا على بطلانه.

واسأل نفسك بصدق: هل أقرأ منزلتي عند الله من مقدار ما أملك؟ وهل حولت النجاح أو الفشل إلى حكم على صحة الطريق كله؟ وهل أراجع أسبابي حين أخفق، أم أحتج بالقدر لأحمي صورتي؟ وهل أسيء الظن بالله حين لا أفهم الحكمة الخاصة؟ وهل يحضر يوم القيامة في حكمي على الفوز والخسارة؟

عبودية هذه الوحدة أن تعمل في الدنيا ولا تجعلها دار الجزاء الأخير؛ تشكر إذا أعطيت، وتصبر إذا منعت، وتراجع نفسك عند الفشل، وتبذل الأسباب، ثم تترك الحكم النهائي لله.

فما تراه من الدنيا جزء من القصة، واليوم الذي ترد فيه الحقوق كاملة وتظهر فيه النتائج على حقيقتها آت لا يتخلف. وحتى يأتي ذلك اليوم، لا يكن سؤالك الأكبر: لماذا أعطي هذا ومنعت أنا؟ وإنما: كيف أعبد الله فيما أعطاني وفيما منعني؟

وإذا تقرر أن الدنيا لا تعطي حكمها الكامل، بقي سؤال آخر: هل الذي وقع لك استثناء غريب، أم أنك دخلت سنة مضت على المؤمنين من قبلك؟

الوحدة الثالثة: سنة الابتلاء ماضية على الجميع

لماذا يظن الإنسان أن ما أصابه استثناء، مع أن القرآن يرده إلى طريق سار فيه المؤمنون قبله؟

حين ينزل البلاء بالإنسان يضيق مجال رؤيته. يشعر أن ما وقع له لم يقع لأحد مثله، وأن إيمانه أو دعاءه أو صلاح قصده كان ينبغي أن يعفيه من هذه الشدة. وقد يتسلل إلى قلبه سؤال لا يصرح به دائمًا: لماذا أنا؟

فيجيبه القرآن بإدخاله في تاريخ الإيمان:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214].

لست أول من خاف، ولا أول من طال عليه الطريق، ولا أول من رأى الأسباب تضيق، ولا أول من دعا وتأخر عنه ما يرجوه. إنك تدخل طريقًا مر به الذين خلوا من قبلك، واختلفت تفاصيل ابتلاءاتهم وبقي أصل السنة واحدًا.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾

تبدأ الآية بتصحيح الحسبان قبل وصف الشدة. قد يتصور الإنسان أن دخوله طريق الإيمان يعني خروجه من الألم، وأن صدقه يجعل الطريق أقصر، وأن الدعاء الصادق يضمن له أن تأتي الإجابة في الصورة والوقت اللذين اختارهما.

لكن الآية تعيد بناء هذا التصور: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾.

فالابتلاء لم يبدأ بك، ولن ينتهي عندك. وهو لا يعني في ذاته أن الله ترك عباده، ولا أن طريق الإيمان كان خطأ، بل هو من سنن الطريق الذي سار فيه المؤمنون من قبل.

ولا يطلب القرآن من المبتلى أن ينكر خصوصية ألمه؛ فكل فقد له موضعه، وكل جرح يحمل تفاصيله. إنما يخرجه من الوهم الذي يجعل ألمه دليلًا على أنه استثناء خارج سنة الله.

﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾

ذكرت الآية البأساء والضراء، ثم قالت: ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾. فالسنة لا تمضي في صورة واحدة؛ قد تكون فقرًا أو مرضًا أو خوفًا أو أذى أو فقدًا أو طريقًا طال أكثر مما ظن صاحبه.

ويخطئ من يحصر الابتلاء في المصائب الظاهرة وحدها؛ فقد يكون الإنسان مبتلى بنعمة واسعة، أو براحة تطول حتى تضعف يقظته، أو بمكانة تكشف ما في قلبه. وسيأتي تفصيل ذلك في المحور التالي.

أما وظيفة هذه الوحدة فليست استقصاء صور الابتلاء، وإنما تقرير الأصل: لا أحد خارج الميدان، وإن اختلف الباب الذي دخل منه إليه.

﴿وَزُلْزِلُواْ﴾

لم تقل الآية إن المؤمنين مروا بالشدة من غير اضطراب، بل قالت: ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾، حتى بلغ بهم الأمر أن يقول الرسول والذين آمنوا معه: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾.

وهذا يرسم صورة صادقة للمؤمن. قد يشتد عليه الألم، ويطول انتظاره، ويضيق صدره، ويسأل ربه الفرج، من غير أن يخرج بذلك من الإيمان. فالإيمان لا يجعل صاحبه بلا إحساس، وإنما يمنعه من تحويل الألم إلى حكم سيئ على الله، أو ذريعة لترك الحق.

والفرق كبير بين قلب يتألم وهو متعلق بالله، وقلب يجعل ألمه دليلًا على أن الله تخلى عنه.

لست خارج العناية لأنك ابتُليت

من أشد ما يفعله الألم بالإنسان أنه يعيد تفسير علاقته بالله. قد يقول في نفسه: لو كان الله يحبني لما حدث هذا، ولو كان دعائي صادقًا لما طال الانتظار، ولو كنت صالحًا لكان طريقي أيسر.

لكن الآية نفسها تذكر رسولًا ومؤمنين معه، وقد مستهم البأساء والضراء وزلزلوا. فمجرد نزول البلاء لا يثبت أن العبد خارج عناية الله، كما أن العافية لا تثبت وحدها أنه في أعلى المنازل.

وقصص المؤمنين من قبل لا تذكر لتقليل ألم المبتلى أو لإسكاته بقول: غيرك أشد منك. إنما تذكر لتصحيح تفسيره لما وقع، ولمنعه من أن يجعل الشدة نفسها دليلًا على الهوان.

عمومية السنة لا تبيح مقارنة الآلام

حين يعرف الإنسان أن الابتلاء سنة عامة، قد يسيء استعمال هذا المعنى فيقول للمبتلى: كل الناس يعانون، أو غيرك أشد منك، فلا تبالغ. وهذا قد يزيد الجرح بدل أن يخففه.

عمومية الابتلاء تعطي الفهم، ولا تسلب الرحمة؛ فكل إنسان يحمل ألمه بطاقته وظروفه وتاريخه، وما يكون يسيرًا على شخصٍ قد يكون شديدًا على آخر، ولا يعلم الناس حقيقة ما يكابده الآخرون في قلوبهم.

ولهذا ينبغي أن تزيد معرفة سنة الابتلاء الإنسان رحمة، لا قسوة. فمن علم أن كل إنسان قد يدخل امتحانًا لا يراه الآخرون، صار أبعد عن الاستهانة بآلامهم وأقرب إلى الرفق بهم.

سنة الابتلاء ليست دعوة إلى السلبية

كون الابتلاء سنة لا يعني أن كل ألم يجب أن يبقى، أو أن الإنسان لا يدفع الضرر. المريض يتعالج، والمظلوم يطلب حقه، والفقير يسعى في رزقه، والخائف يحتاط، والمجتمع يعالج أسباب ضعفه.

الإيمان بالسنة يفسر وجود الابتلاء، لكنه لا يلغي التكليف بدفعه أو تخفيفه بما شرع الله. وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين العمل والتوكل في قوله: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز» رواه مسلم (2664).

فالتسليم يكون في القلب مع فعل الأسباب، أما السلبية فتترك ما يقدر عليه الإنسان ثم تسمي تركها رضا. والمؤمن يعلم أن السبب من قدر الله كما أن النتيجة من قدره، فيعمل بما يستطيع ولا يجعل التسليم ستارًا للعجز.

من تجربتك الفردية إلى تاريخ الإيمان

حين ينحصر الإنسان داخل ألمه، يضيق العالم حتى لا يرى إلا نفسه وما فقد. وتفتح له الآية نافذة على تاريخ طويل: ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾.

مر قبلك أنبياء وصالحون ومؤمنون، عرفوا الخوف والفقد والأذى وطول الطريق، لم تكن قصصهم وعودًا بحياة بلا جراح، بل شواهد على إمكان الثبات والرجوع والنهوض.

وهذا المعنى لا يلغي تفرد تجربتك، لكنه يمنعها من أن تتحول إلى سجن يقنعك أنك وحدك، أو أن ما وقع لك دليل على أن الطريق لا يمكن حمله. لقد سبقك إلى هذا الميدان قوم خافوا وحزنوا وسألوا الله الفرج، وثبت منهم من ثبت، وضعف من ضعف ثم تاب وعاد.

ولست مطالبًا أن تكون بلا خوف أو ألم، وإنما أن تجاهد ألا تجعل خوفك قائدك، ولا ألمك مفسرًا لربك، ولا طول الطريق عذرًا لترك الحق.

﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾

تختم الآية بقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾. وقرب نصر الله حق، لكن العبد لا يملك أن يحدد من عند نفسه صورة هذا النصر ووقته.

قد يكون النصر بدفع مكروه، أو بحفظ الدين، أو بثبات القلب، أو بظهور الحق بعد زمن، أو بما يدخره الله لعبده في الآخرة. والمقصود هنا ألا يجعل المؤمن طول الطريق تكذيبًا لوعد الله، ولا أن يحول يقينه العام بالوعد إلى جزم بتوقيت أو صورة لم يخبره الله بها.

فالعبد يعرف أن النصر لله، وأن العاقبة للمتقين، ثم يقوم بواجب يومه من غير أن يشترط على الله أن تأتي النتيجة وفق الجدول الذي رسمه.

وسيأتي لاحقًا التفريق بين اليقين بوعد الله والتمني الذي يلبس ثوب اليقين. أما هنا فيكفي أن يستقر الأصل: طريق المؤمنين لم يكن بلا زلزلة، وتأخر ما انتظروه لم يجعل وعد الله باطلًا.

وقفة عملية: ماذا يتغير حين تعرف أنها سنة؟

حين تعرف أن الابتلاء سنة، لا يختفي الألم كله، لكنه يفقد بعض قدرته على إقناعك أن الله تركك أو أن طريق الإيمان كان وعدًا بحياة بلا جراح. وبدل الدوران الطويل حول سؤال: لماذا أنا؟ تبدأ في رؤية ما بين يديك من واجب وسبب.

اسأل نفسك: ما الذي أستطيع فعله الآن؟ وما السبب المشروع الذي تركته باسم الصبر أو التسليم؟ وهل جعلني ابتلائي أرحم بمن يتألم، أم أكثر مقارنة لآلام الناس بجرحي؟ وهل أفسر طول الطريق بأنه دليل على أن الله تخلى عني، أم أبقى على العمل والدعاء من غير أن أفرض على الله صورة الفرج؟

عبودية هذه الوحدة أن تعرف أنك لست خارج سنة الله، ولا خارج عنايته لمجرد أنك ابتليت. تصبر من غير أن تنكر ألمك، وتأخذ بالأسباب من غير أن تعبدها، وتسأل الله الفرج من غير أن تشترط عليه صورته، وترحم المبتلين من غير أن تقيس جراحهم بجرحك.

لكن معرفة أن الابتلاء سنة لا تكفي وحدها. فقد يعرف الإنسان كل ذلك، ويتحدث عن الصبر والتوكل والعدل، ثم تأتي اللحظة التي تصبح فيها هذه المعاني مكلفة.

وهنا ينتقل السؤال من طبيعة الطريق إلى حقيقة الدعوى:

ماذا يبقى من إيمانك حين يصبح له ثمن؟

الوحدة الرابعة: الدعوى لا تكفي

ما قيمة أن تقول: آمنت، إذا لم يظهر أثر الإيمان حين يعارض هواك أو يكلفك ما تحب؟

يسهل على الإنسان أن يحمل كثيرًا من المعاني ما دامت لا تطلب منه ثمنًا. يسهل أن يتحدث عن الصبر وهو معافى، وعن التوكل والأسباب متاحة، وعن الزهد وما يحب حاضر بين يديه، وعن العدل حين لا يمس قريبًا له، وعن التوبة ما دام الاعتراف لا يجرح صورته.

لكن الموقف ينقل المعنى من الكلام إلى الاختيار.

قال الله تعالى:

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: 2-3].

لم تنكر الآية قيمة القول؛ فالإيمان قول واعتقاد وعمل. لكنها نفت أن يترك الإنسان عند قوله من غير أن يدخل أثر هذا القول ميدان الامتحان.

من القول إلى الحقيقة

قد يقول الإنسان: آمنت بالله، ثم تأتي لحظة يجد فيها أن طاعة الله ستكلفه مالًا، أو مكانة، أو اعتذارًا، أو ترك شهوة، أو مخالفة من يحب. هنا يظهر أثر القول.

ولا يعني ذلك أن الله كان يجهل ما في قلبه حتى اختبره؛ فقد تقرر أن علمه سبحانه سابق محيط. وإنما يظهر الصدق والكذب في عالم الاختيار والعمل الذي تقوم عليه المحاسبة، ويعرف الإنسان من نفسه ما لم يكن يستطيع أن يعرفه من الكلمات وحدها.

فالصدق ليس شعورًا داخليًا جميلًا فقط، وإنما معنى يظهر حين تصبح له كلفة.

ليست المشكلة أن الإنسان لم يكتمل

لا تعني آيات الفتنة أن المؤمن لا يضعف أو يتردد أو يقع في خطأ. الإنسان يجاهد نفسه، وقد يغلبه هواه، ثم يندم ويتوب ويعود. والفرق كبير بين من يقع في الضعف وهو يعرف أنه ضعف ويطلب الخلاص منه، ومن يحول ضعفه إلى مبدأ، أو يغير أسماء الأشياء حتى لا يعترف بما فعل.

ولا يجوز أن تتحول هذه الوحدة إلى باب للوسواس أو الحكم على بواطن الناس. المقصود أن يحاسب الإنسان نفسه، وأن يراقب المسافة بين ما يقوله وما يفعله، ثم يجاهد في تضييقها.

وسيأتي لاحقًا التفريق بتفصيل أوسع بين ضعف المؤمن وخصال المنافقين. أما هنا فالمقصود تقرير الأصل: الدعوى التي لا تدخل إلى العمل تبقى ناقصة الأثر.

حين يتعارض المحبوبان

يظهر ترتيب ما في القلب حين يقع التعارض. فقد يجتمع رضا الله ورضا الناس زمنًا، ثم تأتي لحظة لا تستطيع فيها الجمع بينهما. وقد يوافق الحق صورة النفس، ثم يأتي موقف يكون الاعتراف فيه بالحق على حساب هذه الصورة.

في حال الاتفاق لا يظهر كل ما في القلب. قد يكون الإنسان كريمًا ما دام المال كثيرًا، وحليمًا ما دام لا يستفز، وعادلًا ما دامت العدالة لا تضر من يحب، وصادقًا ما دام الصدق لا يكلفه.

لكن حين يقع التعارض، يظهر ترتيب المحبوبات: الحق أم حماية صورة النفس؟ الواجب أم الراحة؟ الأمانة أم المصلحة؟ العدل أم القرابة؟ الصدق أم السلامة العاجلة؟

ولا يعني ذلك أن المؤمن لا يتألم أو يتردد؛ قد يجاهد نفسه طويلًا. وإنما يظهر الصدق في أنه يجعل أمر الله هو الحاكم، ويعود إليه كلما غلبته نفسه.

القول الذي لا يتبعه العمل

قال الله تعالى:

> ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: 2-3].

المشكلة ليست أن يتعلم الإنسان قبل أن يكتمل، ولا أن يدعو إلى خير وهو لا يزال يجاهد نفسه فيه؛ فالناس يحتاجون إلى التعليم والتذكير، ولا يشترط في الآمر بالخير أن يكون كاملًا.

الخطر أن يرضى بالفجوة بين القول والعمل، وأن يجعل الكلام بديلًا عن المجاهدة. يتحدث عن الرحمة ثم يقسو على أقرب الناس إليه، ويحذر من الظلم ثم لا يرى ظلم نفسه حين يملك القرار، ويدعو إلى التوبة ثم يرفض الاعتراف بخطئه، ويكتب في الإخلاص ثم يضيق إذا لم يذكر اسمه.

فليس المطلوب أن يصمت الإنسان حتى يكتمل، وإنما أن يجعل ما يقوله حجة على نفسه تدفعه إلى العمل، لا ستارًا يخفي به تقصيره.

المواقف تكشف الأولويات

يكشف الموقف مقدار حضور الإيمان حين تزاحمه المصالح. تظهر الدعوى حين تأتي فرصة مال من طريق محرم، أو حين يكون الاعتذار هو الحق لكنه يجرح الكبرياء، أو حين يحتاج قريب إلى عدل يكون على حساب قريب آخر، أو حين تصبح كلمة الصدق مكلفة، أو حين يقدر الإنسان على معصية في الخفاء ولا يراه الناس.

في هذه المواطن لا يحتاج القلب دائمًا إلى معرفة جديدة بقدر حاجته إلى أن يختار على ضوء ما عرف. فقد تكون الحجة واضحة، ويبقى الامتحان في تقديمها على الهوى.

ولهذا قد تزيد المعرفة صاحبها حجة عليه إذا لم تدخل إلى القرار. فليس العلم غاية مستقلة عن العمل، وإنما نور يهدي إلى الطريق، ثم يبقى على الإنسان أن يسير.

لا تجعل الموقف تعريفك النهائي

كما أن الدعوى لا تكفي، فإن موقفًا واحدًا لا يختصر الإنسان كله. قد يفشل في امتحان، ثم يتوب توبة صادقة تغير ما بعده. وقد يرى من نفسه ضعفًا لم يكن يتوقعه، فيكون انكشافه بداية علاج. وقد يثبت في موقف، ثم يحتاج إلى الحذر من أن يتحول الثبات نفسه إلى باب للعجب.

فالابتلاء يكشف، لكنه يفتح باب التربية أيضًا. وليس المقصود أن يخرج الإنسان من كل موقف بإدانة نهائية لنفسه، وإنما بمعرفة أصدق بها، وتوبة أو شكر يناسبان ما ظهر.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: 17].

فالاستجابة لما عرفه الإنسان عن نفسه قد تفتح له باب هداية جديدة. قد يكون الموقف الذي كشف ضعفه هو نفسه بداية قوة لم تكن موجودة قبله، إذا صدق في الرجوع والإصلاح.

الصدق في الخفاء

من أصدق ميادين الدعوى ما يقع بعيدًا عن أعين الناس. قد يحسن الإنسان ما دام يُرى، ويتغير حين يغيب الرقيب البشري. والإيمان الذي لا يحضر في الخلوة لم يدخل بعد كل زوايا الحياة.

في الخفاء يظهر: هل يترك الحرام لأن الناس لا يرضونه، أم لأن الله حرمه؟ هل يؤدي العمل لأن المدير يراقبه، أم لأنه أمانة؟ هل يحفظ أسرار الناس حين يستطيع استعمالها؟ هل يبقى صادقًا حين لا يخشى انكشاف كذبه؟

ولا يعني هذا أن نظر الناس لا يؤثر في النفس؛ فالإنسان يحب الثناء ويضعف. وإنما يجاهد حتى يكون علم الله به أثقل في قلبه من نظر الخلق، وحتى لا تصبح الخلوة حياة أخرى تسقط فيها القيم التي يتحدث عنها أمام الناس.

الاستمرار بعد الحماسة

وقد يظهر الصدق في الاستمرار. تبدأ أعمال كثيرة في لحظة حماسة، ثم تنطفئ حين يغيب التشجيع أو تتأخر النتائج. أما العمل الذي صار عبادة، فيحفظ صاحبه أصله بقدر استطاعته؛ لأنه لا ينتظر من الناس في كل مرة أن يجددوا له سبب العمل.

والثبات لا يعني أن يكون الأداء في مستوى واحد دائمًا. قد ينشط الإنسان ويفتر، لكنه يحفظ أصل الطريق، ويعود إذا ضعف، ولا يجعل الفتور نهاية لكل ما بدأ.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» رواه البخاري (6464)، ومسلم (783).

فالعمل القليل الذي استقر في الحياة أصدق أثرًا من اندفاعة كبيرة لا يبقى منها شيء. ومن صدق الدعوى أن تتحول المعاني إلى عادات طاعة ومجاهدة، لا إلى لحظات حماس مؤقتة.

وقفة عملية: أمام دعواك

اختر معنى تحب أن تصف نفسك به: أنا صبور، أو مخلص، أو عادل، أو متوكل، أو أريد الحق. ثم لا تسأل عن شعورك تجاه هذه الصفة فقط، بل عن الموقف الذي اختبرها بالفعل.

ماذا فعلت حين أصبحت لها كلفة؟ هل غيرت اسم ضعفك حتى لا تعترف به؟ وما الفجوة الأوضح بين ما تقوله وما تفعله؟ وما الخطوة العملية التي تستطيع بها أن تضيق هذه الفجوة؟

ليس المطلوب أن تثبت لنفسك أنك صادق كامل، وإنما أن تدخل في مجاهدة صادقة.

عبودية هذه الوحدة أن تجعل الإيمان قائدًا للاختيار، لا عبارة تزين بها صورتك؛ وأن تقبل انكشاف ضعفك لأنه بداية للعلاج، وتشكر الله حين يثبتك لأن الثبات توفيق لا بطولة مستقلة، وترد القول إلى العمل، والعلم إلى القرار، والدعوى إلى مجاهدة يومية.

فليس السؤال الأهم: ما الذي أقوله عن نفسي؟

بل: ماذا تفعل بي هذه المعاني حين تصبح الطاعة مكلفة، ويصبح الهوى قريبًا، ولا يراني إلا الله؟

خاتمة المحور الأول

الميزان قبل الدخول في أحوال القلوب

بدأ هذا المحور بالسؤال عن الطريقة التي ينبغي أن نقرأ بها الحياة قبل أن نحكم عليها، فقرر القرآن أن الموت والحياة خلقا للابتلاء وحسن العمل، وأن قيمة العمر لا تستمد من طوله وحده ولا من مقدار ما جمع صاحبه، وإنما من صدق العمل وإخلاصه وصوابه.

ثم صحح ميزان الدنيا، فبين أن العطاء والمنع لا يكشفان وحدهما منزلة العبد عند الله، وأن النتائج الظاهرة جزء من القصة وليست حكمها النهائي. فقد يبدو الإنسان فائزا في لحظة ويكون في ميزان الله خاسرًا، وقد يمضي المؤمن من الدنيا مجروحًا أو مظلومًا وتكون العاقبة له.

ثم أعاد القرآن المبتلى إلى سنة جرت على من قبله، حتى لا يجعل ألمه دليلًا على أنه خارج عناية الله أو مستثنى من طريق المؤمنين. فالذين خلوا من قبل مستهم البأساء والضراء وزلزلوا، ولم يكن وقوع الشدة في طريقهم تكذيبًا للإيمان أو للوعد.

وأخيرًا نقلت آيات الفتنة دعوى الإيمان من عالم القول إلى عالم الاختيار. فالكلمات لا تبلغ تمام أثرها حتى تدخل في القرار، ويظهر صدقها حين تعارض الهوى أو المصلحة أو الخوف، ويعرف الإنسان من نفسه في تلك المواطن ما لم يكن يعرفه في زمن السعة.

وهذه الأصول الأربعة تغير قراءة الإنسان لحياته. فلا يجعل الموت حادثًا بعيدًا عن معنى العمر، ولا يقرأ رضا الله من مقدار ما في يده، ولا يظن أن ابتلاءه استثناء من سنة الطريق، ولا يكتفي بما يقوله عن نفسه إذا خالفه عمله.

لكن معرفة هذه الأصول تفتح سؤالًا جديدًا.

فالابتلاء سنة عامة، ومع ذلك لا تصنع الأحوال الأثر نفسه في كل إنسان. النعمة قد تزيد قلبًا شكرًا وتكشف في آخر اغترارًا، والفقد قد يرد عبدًا إلى الله ويكشف في غيره شدة تعلقه بالمخلوق، والخوف قد يوقظ التوكل وقد يقود إلى سوء الظن، والهزيمة قد تفتح باب المراجعة وقد تتحول إلى إنكار للخطأ، والتمكين قد يظهر العدل وقد يطلق الهوى.

فالحدث وحده لا يفسر ما يحدث في القلب.

ومن هنا ينتقل الكتاب من السؤال عن حقيقة الحياة إلى السؤال عن الإنسان الذي يعيشها. لقد عرفنا أن الحياة ميدان ابتلاء، وأن أحدًا لا يخرج من هذا الميدان ما دام حيًا؛ والآن نقترب من المرآة التي تحملها الأحوال إلى القلب.

ماذا تكشف النعمة والفقد والخوف والهزيمة والتمكين فينا؟

ومن هنا يبدأ المحور الثاني:

كيف يكشف الله ما في القلوب؟

المحور الثاني: كيف يكشف الله ما في القلوب؟

مقدمة المحور

لا تمر الأحوال بالإنسان من خارجه فقط. فالنعمة والفقد والخوف والهزيمة والتمكين تدخل إلى القلب، وتحرك ما استقر فيه، ثم يظهر أثرها في القول والاختيار والعمل. ولهذا قد يعيش اثنان الحال نفسها، فيخرج أحدهما أقرب إلى الله ويخرج الآخر أبعد عنه.

تأتي النعمة إلى قلب فتزيده شكرًا وتواضعًا، وتدخل قلبًا آخر فتملؤه استغناءً واغترارًا. ويفقد إنسان ما يحب فينكشف له ضعف تعلقه بالله فيرجع وينيب، ويفقد آخر الشيء نفسه فيقسو قلبه أو يسيء الظن بربه. ويأتي الخوف فيرد المؤمن إلى الوحي، ويوقظ في غيره الهلع والتخذيل. وتقع الهزيمة فتفتح باب المراجعة والتوبة، أو تتحول إلى إنكار للخطأ وتبادل للاتهامات. ثم يأتي التمكين فيظهر العدل في نفس ويظهر الطغيان في أخرى.

وقد أخبر الله أن هذا التقليب من مقاصد الابتلاء ذاتها:

> ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 154].

والابتلاء هنا لا يكشف لله علمًا كان خافيًا عليه؛ فهو العليم بذات الصدور قبل أن تُبتلى - كما تقرر في المحور الأول- وإنما يُظهر للعبد نفسه ما استقر في قلبه، ويميّز الصف مما دخل عليه من دخيل. وهذا هو مدارُ المحورِ كلِّه: ماذا يظهر حين تُبتلى القلوب بالنعمة والفقد والخوف والهزيمة والتمكين؟

وقد مرّت بك في افتتاح الكتاب آية الابتلاء:

> ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: 31].

وكان النظر فيها هناك إلى عموم السنة وسبق علم الله. والذي يعنينا هنا خاتمتها: ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾. فالإنسان يخبر عن نفسه بما يظنه فيها، ثم تأتي الأحوال فتختبر خبره؛ فيظهر من يثبت حين يطول الطريق، ومن يشكر حين تتسع النعمة، ومن يعدل حين يملك، ومن يراجع نفسه حين يخسر، ومن يبقى متعلقًا بالله حين يفقد ما كان يظنه مصدر أمنه وقيمته.

ولهذا لم يكتف القرآن بذكر الوقائع، بل نقل ما أحدثته في القلوب. ففي أُحد قال:

> ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152].

وفي الأحزاب قال عن مرضى القلوب: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12]. وقال عن المؤمنين في الموقف نفسه: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22]. فالحدث واحد، والقراءة مختلفة، ثم اختلفت النتيجة؛ لأن القلوب لم تدخل الموقف بما استقر فيها من المعاني نفسها.

ولا يفسر نوع الحدث وحده مآل القلب. يسبقه إيمان وتربية، ويصحبه اختيار وتوفيق من الله، ويتبعه رجوع أو إصرار. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: 17]. فالهدى يثمر هدى، والاستجابة تفتح باب التوفيق، ومن صدق مع الله أعانه على ما يعجز عنه بنفسه.

وليس كل ما يظهر في القلب عند تغير الأحوال مرضًا مذمومًا. فقد يحزن المؤمن، ويخاف، ويتردد، ويشتاق إلى ما فقد، ويضيق من أذى أصابه؛ وهذه انفعالات بشرية لا يحكم عليها بمجرد قوتها أو طولها. إنما ينظر إلى ما يصنعه الإنسان بها: هل حملته على اعتراض أو ظلم أو ترك واجب، أم قادته إلى دعاء ومراجعة وأخذ بسبب مشروع؟

فالميزان لا يطلب من الإنسان أن يكون بلا مشاعر، وإنما أن يبقى أمر الله حاكمًا حين تتحرك مشاعره. وقد يكون القلب شديد الألم وهو ثابت على العبودية، وقد يبدو ساكنًا وهو معرض أو قاسٍ؛ فلا تجعل هدوء الظاهر وحده دليل سلامة، ولا شدة التأثر وحدها دليل خلل.

وليس مقصود هذا المحور أن يحول الآيات إلى مقاييس نصنف بها الآخرين، أو أن يجعلنا نتعقب عيوب الناس في أحوالهم؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: 32]. وإنما الغاية أن تصبح الآيات مرآةً يرى بها القارئ نفسه: ماذا تفعل النعمة في قلبي؟ وماذا يكشف الفقد من تعلقي؟ وأين يذهب ظني بالله حين أخاف؟ وكيف أتعامل مع خطئي حين أنهزم؟ ومن أكون حين أملك القوة؟

وسننظر في خمسة ميادين: النعمة حين تكشف الشكر والاغترار، والفقد حين يكشف حقيقة التعلق، والخوف حين يكشف مصدر الأمان والظن بالله، والهزيمة حين تكشف مواضع الخلل وتفتح طريق البناء، والتمكين حين يكشف العدل أو الهوى. والجامع بينها ليس صورة الحدث، بل القلب الذي استقبله والعبودية التي ظهرت عنده. فلا يبقى السؤال: ماذا وقع للإنسان؟ بل ينتقل إلى ما هو أعمق:

ماذا كشف ما وقع، وماذا صنع الإنسان بما انكشف؟

الوحدة الخامسة: حين تخدع النعمة صاحبها

كيف يكشف العطاء حقيقة الشكر؟

لماذا يعرف الإنسان أنه مبتلى حين يَفْقِد، ولا ينتبه إلى ابتلائه حين يُعْطَى؟

المصيبة تعلن حضورها؛ تؤلم، وتُقْلِق، وتدفع صاحبها إلى الدعاء والبحث عن مخرج. أما النعمة فتدخل هادئة؛ توافق ما يحب، وتوسع اختياره، وتمنحه شعورًا بالأمن، ولهذا قد تخفي عنه سؤال الامتحان. فإذا مرض عرف حاجته إلى الله، وإذا ضاق رزقه شعر بضعفه؛ فإذا صح بدنه ونجح عمله وكثر ماله وارتفعت مكانته، ربما تعامل مع ذلك كله كأن زمن الابتلاء قد انتهى.

وقد تقرر في المحور الأول أن الدنيا لا تكشف وحدها منزلة العبد عند الله، وأن الله سمى العطاء والمنع ابتلاءً في الحالين:

> ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝ كَلَّا﴾ [الفجر: 15-17].

وينتقل النظر هنا من ميزان المنزلة إلى داخل القلب: ماذا صنعت النعمة بصاحبها؟ هل أيقظته للشكر أم أوهمته الاستغناء؟ هل جعلته أرحم بالناس أم صارت سببًا لاحتقارهم؟ هل فتح بها أبواب الطاعة أم احتجب بها عن المنعم؟ قال النبي ﷺ:

> «إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال» رواه الترمذي (2336)، وقال: حديث حسن صحيح.

وليس المال شرًا في ذاته، فقد امتن الله به وأمر بابتغاء فضله؛ وإنما تكون الفتنة في تعلق القلب به، وطريقة كسبه وإنفاقه، وما يصنعه الغنى في رؤية الإنسان لنفسه ولربه وللناس.

بين سليمان وقارون

عرض القرآن رجلين أمام عطاء عظيم، فكشفت كلمة كل واحد منهما عن القلب الذي حمل النعمة. رأى سليمان عليه السلام عرش ملكة سبأ حاضرًا عنده فقال:

> ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: 40].

ورأى قارون خزائنه فقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: 78].

فسليمان رأى المنعم قبل النعمة: ﴿مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾، ورأى الامتحان داخل العطاء: ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾، ورأى مسؤوليته قبل أن يستغرق في لذة النجاح: ﴿أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾. أما قارون فاختصر المشهد في نفسه وعلمه؛ رأى السبب وغاب عنه مسبب الأسباب، ورأى ما حصّله ولم ير من وهبه العقل والفرصة والقدرة والنتيجة. وبين الرجلين فرق عميق:

الشاكر يرى النعمة، ويرى نفسه عبدًا داخلها. والمغتر يرى النعمة، ويرى نفسه صانعًا مستقلًا لفضلها.

ولا يطلب الإيمان من الإنسان أن ينكر جهده؛ فالعلم سبب، والتخطيط سبب، والخبرة والعمل المتقن أسباب، وقد أثنى الله على الأخذ بالقوة والإعداد والإحسان. وإنما الخلل أن تتحول الأسباب إلى رواية تمحو فضل الله وتغذي الإحساس بأن النجاح حق طبيعي لصاحبه. وكم من مجتهد لم يبلغ، وذكي لم تتهيأ له فرصة، ومشروع أُحكمت أسبابه ثم لم تُكتب له النتيجة. فحين يقول المؤمن: هذا من فضل ربي، لا يهدم قيمة العمل؛ بل يمنع العمل من أن يصير صنمًا يعبد صاحبه نفسه من خلاله. وقد أرشد النبي ﷺ إلى أصل هذا المعنى فقال:

> «لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة» رواه البخاري (6384)، ومسلم (2704).

حين يتحول الفضل إلى استحقاق

في أول النعمة يشعر الإنسان بالامتنان، ثم تتكرر فيألفها القلب، فتتحول من فضل متجدد إلى حق ثابت. فالصحة التي كان يشكرها تصبح شيئًا طبيعيًا، ومحبة الناس تتحول إلى أمر يرى أنه جدير به دائمًا، والمنصب يندمج في تعريفه لنفسه، والنجاح السابق يقنعه بأن النجاح القادم مضمون. فإذا نقصت النعمة لم يشعر أنه فقد فضلًا، بل أحس أن حقًا من حقوقه قد سُلب.

وقد عرض القرآن هذا المسار كاملًا في صاحب الجنتين. بدأ بالمقارنة: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: 34]، فلم يعد المال وسيلة بل صار حكمًا على القيمة. ثم انتقل من الشعور بالتفوق إلى توهم الدوام: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: 35]. ثم جعل نجاح الدنيا دليلًا على ما يستحقه عند الله: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: 36]. بدأ الأمر بعطاء، فصنع العطاء تصورًا متضخمًا عن النفس، ثم أوهمه هذا التصور أن ما في يده لا ينبغي أن يزول، حتى تحولت النتيجة الدنيوية إلى تزكية دينية.

ويتكرر المسار نفسه في صور أقرب إلينا: ينجح الإنسان في عمل فيصعب عليه احتمال خطئه، وتستقر أسرته فيحاكم كل أسرة مضطربة بوصفها أقل حكمةً منه، ويتفوق أبناؤه فينسب النتيجة كلها إلى طريقته ويقسو على والد بذل ولم ير الثمرة نفسها، وتتسع مؤسسته فيصبح النقد عنده عداوةً للنجاح. وقد لا يقول: أنا أفضل؛ يكفي أن يتوقف عن رؤية فضل الله، أو يعجز عن الفرح لمن أوتي مثل نعمته أو أكثر. قال تعالى:

> ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۝ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: 6-7].

فالطغيان يبدأ من رؤية الاستغناء، لا من مقدار المال وحده.

حين تصبح النعمة ميزانًا للقيمة

وقد تغير النعمة الطريقة التي يرى بها الإنسان نفسه والناس. فيُعامل الغني كأنه أعقل لمجرد غناه، ويُظن المشهور أصدق لأن كلامه واسع الانتشار، وينجح المرء في مجال ثم يتحدث في كل مجال بثقة النجاح نفسها، ويعتاد صاحب المنصب أن تُقدَّم رغباته بوصفها مصالح عامة. عندئذ تنتقل النعمة من كونها وسيلة إلى أن تصير معيارًا للقيمة. والقرآن يرد الميزان إلى موضعه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13]. وقال النبي ﷺ:

> «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» رواه مسلم (2564).

فالمال لا يرفع صاحبه عند الله بذاته، ولا الشهرة، ولا العلم إذا لم يثمر خشيةً وعملًا، ولا النفوذ إذا لم يحمل على العدل. وإنما تظهر حقيقة النعمة في آثارها: هل قرّبت صاحبها من الله؟ هل وسّعت قلبه للناس؟ هل جعلته أقدر على سماع النصح؟ هل حملته على أداء الحقوق؟ هل بقي يرى الضعيف كامل الكرامة؟ أم صارت مسافةً بينه وبين الخلق؟

العلم والقبول: فتنة لا تُرى سريعًا

فتنة المال ظاهرة، أما العلم فيدخل على صاحبه من باب دقيق. فطالب العلم يعرف الأدلة، ويملك لغةً يفسر بها أفعاله، ويستطيع بناء الحجج؛ فيصبح علمه نورًا حين يقوده إلى الخشية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]، وقد يتحول إلى حجاب حين يستخدمه لحماية نفسه. ومن أعظم ثمرات العلم النافع أن يرى صاحبه ربَّه أعظم، ونفسه أضعف، ومسؤوليته أشد. فإذا اتسع العلم وصعب معه الاعتراف بالخطأ، أو نما احتقار الناس، أو تحول البحث عن الحق إلى انتصار للرأي، فقد فات القلب من بركة العلم بقدر ما فاته من الخشية والتواضع.

وقد يتحدث الإنسان طويلًا عن الإخلاص ثم يتألم إذا لم يُذكر اسمه، ويكتب في الرجوع إلى الحق ثم يبحث عند انكشاف خطئه عن كل عبارة إلا كلمة: أخطأت، ويحذر من التقليد ثم يضيق بمن يراجع قوله. قال النبي ﷺ:

> «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». فقيل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» رواه مسلم (91).

فالكبر ليس هيئةً ظاهرة، وإنما ردّ الحق واحتقار الناس؛ وهما مرضان قد تتسرب إليهما النعمة العلمية أو الاجتماعية.

والقبول بين الناس امتحان قريب من ذلك. فمن نعم الله أن ينتفع الناس بإنسان، وأن يضع له محبةً في القلوب. ثم يبدأ السؤال: هل يستخدم القبول لخدمة الحق، أم يستخدم الحق للمحافظة على القبول؟ وقد يراقب ما يرضي الجمهور، ويختار ما ينتشر، ويتجنب ما يظن أنه سيقلل الأعداد، ويفسر النقد حقدًا أو حسدًا. وتزداد الفتنة حين يحيط نفسه بمن لا يقول له إلا ما يحب، فيصير نجاحه سببًا في انقطاعه عن الحقيقة. ولا يُطلب منه أن يفر من التأثير، وإنما أن يبقى قادرًا على مخالفة رغبة الجمهور حين تتعارض مع رضا الله؛ فالقبول الذي لا يحتمل الصدق نوع من الأسر وإن بدا مكانةً وحرية.

وأما القوة والولاية والقرار فأثرها ينفذ إلى حقوق الناس لا إلى قلب صاحبها وحده، ولها موضعها في وحدة التمكين. ويكفي هنا أن نعلم أن أول علامة على خداع القدرة أن يرى صاحبها قدرته دليلًا على صحة كل اختياراته.

الشكر أوسع من كلمة

قول: الحمد لله، من أعظم الذكر؛ قال النبي ﷺ: «الحمد لله تملأ الميزان» رواه مسلم (223). غير أن الشكر لا ينتهي عند القول، بل يقوم على ثلاثة أصول: أن ترى المنعم فلا تحجبك الأسباب عن الله: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾، وأن ترى الامتحان فيبقى سؤال المسؤولية حاضرًا داخل الفرح: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، وأن تؤدي حق النعمة؛ فشكر المال في كسبه وإنفاقه، وشكر العلم في العمل به وتعليمه بصدق، وشكر الجاه في نصرة الحق وقضاء الحاجات، وشكر القوة في العدل، وشكر القبول في ألا يُباع الحق لأجله. قال تعالى:

> ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13].

فجعل الشكر عملًا. ومع كل نعمة حق لله، وحق للخلق، وحق في طريقة استعمالها؛ والنعمة التي تزيد صاحبها غفلةً أو ظلمًا لم يؤدَّ حقها وإن أكثر من الحديث عنها.

وكثير من الناس يخافون زوال النعمة، والسؤال الأشد: ماذا لو بقيت النعمة وزال معها افتقاري؟ ماذا لو زاد مالي ونقصت رحمتي؟ أو اتسع علمي وضاق قبولي للحق؟ أو كثر من حولي ولم يعد فيهم من يصارحني؟ فقد يكون بقاء النعمة أخطر من زوالها إذا بقيت اليد ممتلئة والقلب خاليًا من الشكر.

متى تكون النعمة موضع خوف؟

لا يملك الإنسان أن يحكم على علاقة الآخرين بالله من اتساع أرزاقهم، ولا يصح أن تُجعل كل نعمة استدراجًا؛ وإنما يبدأ بمحاسبة نفسه ومراقبة آثار العطاء فيها. وقد مرّت بك آية الأنعام في المحور الأول شاهدًا على أن النجاح وحده لا يصحح المنهج، وموضعها هنا ما تصنعه في القلب:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44].

ففتح الأبواب في هذا السياق لم يكن شهادة رضا. وتظهر علامات الخطر حين:

- تضعف الطاعة كلما اتسع الرزق.
- يزداد الكبر مع النجاح.
- يصبح النصح أثقل على النفس.
- تُستعمل النعمة في المعصية.
- يتحول التوسع إلى دليل دائم على صحة الطريق.
- تغيب الرحمة والخوف والمسؤولية.

أما النعمة التي تفتح أبواب الخير وتزيد الشكر وترد صاحبها إلى الله فهي فضل يحتاج إلى دوام المراقبة. وليس المطلوب الخوف من كل فرح، وإنما ألا يتحول الفرح إلى غفلة، ولا العطاء إلى أمان من الفتنة.

أين تختبرك النعمة؟

في المال يظهر السؤال في أداء الحق: هل تتسع حاجاتك كلما زاد دخلك؟ وهل تغيرت نظرتك إلى من هم أقل منك؟ وهل خسارة المال أشد في قلبك من خسارة الطاعة؟

وفي الأبناء قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: 15]. فقد يكون حبهم بابًا للرحمة والتربية، وقد يحمل على الظلم لأجلهم، أو تقديم رضاهم على أمر الله، أو التفاخر بهم، أو تعليق قيمة الوالدين بنجاحهم.

وفي العلم والدعوة: هل تستطيع أن تفرح بمن تجاوزك علمًا أو أثرًا؟ وهل يهمك وصول الحق أم أن يصل من طريقك أنت؟ وهل جعلتك المعرفة أسرع رجوعًا أم أكثر قدرة على التبرير؟

وفي الصحة والقدرة قال النبي ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ» رواه البخاري (6412). فقد تبقى الصحة زمنًا طويلًا حتى يعتادها الإنسان، ثم لا يعرف مقدارها إلا عند نقصانها. وكل واحد يملك بابًا من النعمة قد لا يراه؛ لأن طول الملازمة جعله مألوفًا.

وقفة عملية: قف أمام نعمتك

اختر نعمةً واحدة تعيشها الآن — مالًا، أو علمًا، أو صحةً، أو قبولًا، أو أسرةً، أو قدرةً على التأثير — ثم اسأل:

- هل ما زلت أراها فضلًا، أم صارت في داخلي استحقاقًا؟
- ماذا زادت فيّ: تواضعًا أم شعورًا بالتفوق؟
- ما الحق الذي لم أؤدِّه فيها؟
- هل أقبل النصيحة كما كنت أقبلها قبل النجاح؟
- هل أفرح إذا أوتي غيري مثلها أو أكثر؟
- ماذا يحدث لقلبي إذا نقصت أو انتقلت إلى غيري؟
- هل أخاف فساد قلبي بها كما أخاف زوالها؟

وليست هذه الأسئلة اتهامًا لكل فرح؛ إنها سياج يحرس الفرح حتى يبقى عبادة.

عبودية النعمة

عبودية النعمة أن يحمل القلب العطاء ولا يحتجب به عن المعطي: يرى الفضل، ويعرف الامتحان، ويؤدي الحق، ويبقى متواضعًا. والعبد الشاكر لا يحتقر ما في يده ولا يزهد فيه زهدًا يضيع وظيفته؛ يستمتع بالحلال، ويفرح بفضل الله ورحمته: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: 58]، ويستعمل النعمة من غير أن يسمح لها أن تعيد تعريفه بعيدًا عن عبوديته.

فقيمته ليست في ماله، ولا في عدد من يتبعه، ولا في منصبه، ولا في جماله أو قوته أو ذكائه؛ فكل ذلك عطاء مؤقت. قال النبي ﷺ:

> «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس» رواه البخاري (6446)، ومسلم (1051).

فغنى القلب بالله هو الذي يحفظ صاحبه حين تأتي الدنيا وحين تذهب.

حين يأتيك ما تحب

يظن الإنسان أن أخطر أيامه يوم يفقد، وقد يكون يوم العطاء أشد كشفًا. ففي الفقد يشعر بضعفه، وفي العطاء قد ينساه. وفي الرفض يعود إلى الله، وفي القبول قد يلتفت إلى الناس. وفي الفشل يراجع نفسه، وفي النجاح قد يرى المراجعة إهانةً لتاريخه. ولهذا لا تسأل الله نعمةً مجردة؛ اسأله قلبًا يحسن حملها. وقد كان من دعاء النبي ﷺ:

> «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى» رواه مسلم (2721).

فجمع بين غنى النفس والهداية والتقوى والعفاف؛ لأن الغنى الذي لا تحرسه التقوى قد يفتن صاحبه. فحين تأتيك النعمة، لا يكن أول سؤالك: كيف أحافظ عليها؟ بل:

كيف أحافظ على قلبي وأنا فيها؟

فقد تبقى النعمة ويضيع صاحبها، وقد تنقص ويبقى إيمانه. والخسارة الكبرى أن يبقى ما في اليد ثم يُسلب القلب افتقاره وخضوعه وبصيرته بنفسه. كان قارون يرى خزائنه فرأى علمه ونفسه، وكان سليمان يرى الملك فرأى فضل ربه وامتحانه. وبين الكلمتين تنكشف القلوب:

> ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾

أو:

> ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾

الوحدة السادسة: حين يغيب من كنت تستند إليه

كيف يكشف الفقد حقيقة التعلّق؟

ما الذي يسقط من الإنسان حين يفقد ما يحب: الشيء المفقود وحده، أم صورة نفسه وحياته التي بناها حوله؟

كان المكان بالأمس ممتلئًا: صوتٌ اعتاده البيت، وشخصٌ يرجع إليه القلب، وعملٌ يمنح صاحبه مكانةً ومعنى، ومالٌ يفتح له أبواب الاختيار، وصحةٌ يتحرك بها من غير أن يفكر فيها. ثم وقع الفقد؛ فبقي المكان وغاب من كان يملؤه، أو بقي الإنسان وذهب شيء كان يظنه جزءًا لا ينفصل عنه.

عندها لا يكتشف مقدار حبّه للمفقود فقط، بل يكتشف مقدار ما بناه عليه من أمنه وقيمته وتوازنه ورؤيته للمستقبل. ولهذا يكون الفقد من أشد الأحوال كشفًا للقلب؛ فهو لا يسأل الإنسان: ماذا كنت تملك؟ إنما يسأله:

أين كان قلبك يسكن؟ ومن تكون إذا غاب ما كنت تستند إليه؟

> ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 155-157].

لم تَعِد الآيات المؤمن بحياة لا ينقص فيها شيء؛ ذكرت نقص الأموال والأنفس والثمرات، ثم أعادت القلب إلى الحقيقة التي تسبق كل ملك: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، وإلى الحقيقة التي تنتهي إليها كل رحلة: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ قبل أن تكون الأشياء لنا

يقول الإنسان: بيتي، ومالي، وصحتي، وأولادي، وعملي، ومكانتي. وهذه إضافة صحيحة من جهة الملك والاختصاص البشري، لكنها ليست الملك الأول ولا الأخير؛ فقبل أن تكون الأشياء لنا، نحن أنفسنا لله. أجسادنا، وأعمارنا، ومن نحب، وما نجمع، وما نقدر عليه — كل ذلك خلقه الله، وملّكنا إياه زمنًا، وجعل لنا فيه حقوقًا وواجبات، ثم قضى أن تبقى الدنيا دار انتقال. ولهذا قال النبي ﷺ لابنته حين حضرت وفاة ولدها:

> «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى؛ فلتصبر ولتحتسب» رواه البخاري (1284).

وهذه الكلمات لا تقلل من قيمة المفقود؛ إنها تعيد ترتيب الملك في القلب. فما أخذه الله لم يكن خارج ملكه لحظةً واحدة، وما أعطاه لم يخرج عن حكمه، والأجل لم يأت مصادفةً ولا قبل علمه. فإذا استقرت هذه الحقيقة لم يختف الحزن، وإنما تحرر من السؤال الذي يمزقه: كيف أُخذ مني ما هو لي؟ فيعرف أن ما كان بين يديه أمانةٌ عظيمة، وأن تمام العبودية أن يحسن صحبتها عند وجودها، ويسلمها إلى مالكها إذا جاء أجلها.

الفقد يكشف ما جعلناه مصدرًا للأمان

يتعلق القلب بالأشياء على درجات. يحب الإنسان أهله، ويأنس ببيته، ويفرح بعمله، ويحفظ صحته وماله؛ وهذه المحبة من الفطرة وليست مذمومةً في أصلها. وتبدأ الفتنة حين يتحول المخلوق من نعمة يسكن إليها القلب إلى أصل يقوم عليه القلب كله؛ فيقول في داخله: ما دام هذا الشخص معي فأنا بخير، وما دام مالي باقيًا فأنا آمن، وما دمت في هذا المنصب فأنا ذو قيمة، وما دامت صحتي قويةً فأنا قادر على مواجهة الحياة. ثم يأتي الفقد، فينكشف أن القلب لم يكن ينتفع بالنعمة فحسب؛ كان يستمد منها تعريفه لنفسه وضمانه للمستقبل.

قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: 96]. فكل ما عند الإنسان معرض للنقص أو الزوال، والله وحده لا يزول. ولا يريد القرآن إفراغ الحياة من المحبة، وإنما تحرير المحبة من أن تصير عبودية: تحب ولا تؤلّه ما تحب، وتأنس ولا تنسى من وهب الأنس، وتأخذ بالأسباب ولا تجعل السبب ربًّا صغيرًا يضمن لك ما لا يملك. فإذا ذهب شيء، بقي أصل القلب قائمًا بالله.

الحزن لا يناقض الرضا

عند الفقد يظن بعض الناس أن الإيمان القوي يعني جفاف العين وسرعة تجاوز الألم، فيلوم المبتلى نفسه لأنه ما زال يحزن، أو يلومه غيره لأنه لم يعد سريعًا إلى حياته السابقة. والسنة ترسم صورةً أصدق وأرحم؛ فحين مات إبراهيم ابن النبي ﷺ دمعت عيناه وقال:

> «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» رواه البخاري (1303)، ومسلم (2315).

وموضع الحديث هنا أخصّ: اجتمع في الموقف دمع العين، وحزن القلب، وحفظ اللسان. فالرضا لا يقتل الشعور، والصبر لا يمحو المحبة، والإيمان لا يحول الإنسان إلى حجر. وإنما الممنوع أن يتحول الحزن إلى اعتراض على الله، أو يأس من رحمته، أو قول يسخطه، أو ترك دائم للواجبات. وقد يكون الألم نفسه أثرًا طبيعيًا للمحبة، فلا يذم لمجرده؛ وإنما ينظر إلى ما يصنعه باللسان والعمل والظن بالله، وقد قال ﷺ في نظيره من الحديث السابق: «إنما هي رحمة جعلها الله في قلوب عباده» رواه البخاري (1284).

وكان يعقوب عليه السلام قد فقد يوسف، فقال الله عنه: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: 84]. حزن طويلًا، ولم يقطع حزنه صلته بالله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: 86]. وهنا فرق بين أن تشكو إلى الله وأن تشكو الله؛ فالأولى عبودية وافتقار، والثانية اعتراض وسوء ظن. والمؤمن يحمل ألمه إلى ربه، ولا يهرب من ربه بسبب ألمه.

ماذا تأخذ المصيبة معها؟

بعض الخسارات تذهب بالشيء وحده، وخساراتٌ أخرى تهزّ مع الشيء معاني كثيرة؛ فيفقد الإنسان وظيفته فيزول معها دخله وروتين يومه ومكانته وشعوره بأنه نافع، وتنتهي علاقة فينهار معها تصوّر كامل للمستقبل، ويمرض فيسلبه المرض استقلاله وبعض الأدوار التي اعتاد القيام بها، ويموت قريب فيتغير شكل البيت والذاكرة واللغة اليومية.

ولهذا لا يكون سؤال المبتلى دائمًا: كيف أستعيد ما فقدت؟ فبعض الأشياء لا تعود. والسؤال الذي يعيد بناءه: ما المعاني التي ربطتها بهذا الشيء، وكيف أستعيدها من مصدر أصح؟ فإذا فقد عمله، هل كانت قيمته كلها في وظيفته؟ وإذا نقص ماله، هل كان أمنه كله في رصيده؟ وإذا غاب شخص يحبه، هل انتهت قدرته على الحب والعطاء والدعاء والوفاء؟ فالفقد ينتزع صورةً من الحياة، ولا يلزم أن ينتزع معنى الحياة كله. وتبدأ النجاة حين يفصل الإنسان بين ما فقده فعلًا، وما أقنعه الألم أنه فقده معه.

﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

الاسترجاع ليس عبارةً تقال عند سماع الخبر ثم تنتهي وظيفتها؛ إنه تفسير كامل للمصيبة. نحن لله، ونحن راجعون إليه، والمفقود راجع إليه، وما بقي معنا سيلحق به. ولهذا لما قال الله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ ذكر علامتهم: ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾؛ فالقول الصادق يعيد القلب من صدمة اللحظة إلى امتداد الرحلة.

فلم تنته القصة عند القبر، ولم يذهب عمل الميت، ولم تنقطع كل صلة نافعة به؛ يبقى الدعاء، والصدقة عنه، والوفاء بعهده، وصلة رحمه، وحفظ أثره الصالح، وتبقى الآخرة موعدًا لا يغيب فيه من جمعهم الإيمان إذا رحمهم الله. فمن لا يرى إلا الدنيا يقرأ الفقد انقطاعًا كاملًا، ومن يؤمن بالرجوع إلى الله يراه فراقًا مؤلمًا داخل رحلة لم تبلغ نهايتها.

المصيبة التي تعيدك إلى الله

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11]. لم يقل: يمنع عنه المصيبة؛ قال: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾. فمن أعظم العطايا عند الفقد هداية القلب: أن يعرف إلى من يرجع، وأن يحفظ ظنه بالله، وأن يميز بين الحزن والاعتراض، وأن يرى الواجب الذي بقي له، وألا يسمح للمصيبة أن تسلب دينه بعد أن سلبت شيئًا من دنياه.

وهذه الهداية لا تعني غياب الألم، وإنما أن يجد القلب طريقه وسط الألم. فقد لا يتغير الواقع سريعًا، وقد لا يعود المفقود، وتبقى في القلب مساحة خالية لا يملؤها شيء على الصورة القديمة. والهداية ألا تتحول هذه المساحة إلى ظلام يبتلع بقية العمر، وأن تصير بابًا لمعرفة الله والآخرة وضعف الإنسان وحقيقة الدنيا.

الفقد لا يبيح لك أن تضيّع ما بقي

تسلب المصيبة شيئًا، ثم يحاول الحزن أحيانًا أن يسلب بقية الأشياء معه. فقد شخصًا فأهمل من بقي من أهله، وخسر مشروعًا فترك كل محاولة نافعة، ونقص ماله فضيّع صلاته وعلاقاته وصحته؛ وكأن الوفاء للمفقود لا يتم إلا بأن تتوقف الحياة بعده.

والوفاء الحقيقي أكرم من ذلك: أن تحفظ جميله، وتدعو له، وتكمل الخير الذي كان يحبه، وتؤدي الحقوق التي تركها، وتمنح من بقي حولك ما يحتاج إليه من قرب ورحمة. فالذي مات لا ينتفع بانهيارك، ومن بقي لا يستحق أن يفقدك وأنت حي. وللجسد حق، وللأسرة حق، وللعبادة حق، والحياة التي بقيت

أمانة لم ينته تكليفها. ولا يُطلب من الحزين أن يعود في يوم واحد كما كان، وإنما ألا يتخذ الحزن وطنًا دائمًا يقطع به طريقه إلى الله وحقوق الخلق.

ليس كل تعويض نسخةً من المفقود

جاء في حديث أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال:

> «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها؛ إلا أخلف الله له خيرًا منها» قالت أم سلمة رضي الله عنها: فلما مات أبو سلمة دعوتُ بهذا الدعاء، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ. رواه مسلم (918).

والخلف لا يعني دائمًا أن يعود الشيء نفسه في صورة أخرى؛ فمن فقد والده لا يُعطى والدًا بديلًا، ومن مات ولده لا يُمحى موضعه من القلب بطفل آخر. وقد يكون الخلف أجرًا عظيمًا في الآخرة، أو هدايةً في القلب، أو قربًا من الله، أو أسرةً تتماسك بعد المحنة، أو عملًا صالحًا يولد من الألم، أو نضجًا ورحمةً لا يبلغهما الإنسان في السعة. فالله قادر على أن يفتح بعد الفقد أبوابًا لم تكن في الحسبان، من غير أن ينكر العبد خصوصية ما فقده أو يتظاهر بأن كل شيء عاد كما كان.

كيف يمر الحزن من غير أن يحكم القلب؟

الإنسان في الفقد محتاج إلى أمور متكاملة. أولها أن يسمي ألمه؛ فإنكار الحزن لا يشفيه، والاعتراف به لا يعني الاستسلام له. ثم أن يرفعه إلى الله دعاءً وبكاءً وشكوى افتقار وصلاةً واسترجاعًا. ثم أن يحفظ لسانه؛ ففي ساعة الصدمة تخرج كلمات يصعب ردها، وقال النبي ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»

رواه البخاري (1283)، ومسلم (926) — أي إن أول لقاء بالمصيبة هو الموطن الأشد الذي يظهر فيه ضبط النفس واحتسابها، لا أن الحزن ينتهي في اللحظة الأولى.

ثم أن يقبل عون الناس؛ فليس الاستناد إلى الصالحين ضعفًا في التوكل، وقد جعل الله الخلق أسبابًا للرحمة والمواساة. ثم أن يعود تدريجيًا إلى واجباته؛ فالنوم والطعام والصلاة والعمل وصلة الناس ليست خيانةً للمفقود، وإنما حفظ لما بقي من الأمانة. وأن يطلب المساعدة المتخصصة عند الحاجة؛ فإذا تحول الحزن إلى عجز ممتد، أو أفكار مؤذية، أو انقطاع شديد عن الوظائف الأساسية، فطلب العلاج من الأخذ بالأسباب، ولا يعارض الصبر ولا الإيمان.

مواضع الفقد في حياتنا

ففقد الأحبة يكشف مقدار حضور الآخرة في القلب، وطريقة فهمنا للمحبة والملك والرجوع. وفقد المال والعمل يكشف هل كانت القيمة والأمان مرتبطين بالله والأخذ بالأسباب، أم برقم أو منصب وحده. وفقد الصحة يكشف علاقتنا بأجسادنا، وقدرتنا على قبول الحاجة إلى الآخرين، وعبوديتنا حين تضيق القدرة. وفقد المكانة والقبول يكشف هل كنا نطلب الحق أم الصورة التي صنعها الناس عنا.

وثمّة فقدٌ لا ينتبه إليه كثيرون: فقدُ الخطط؛ إذ لا يُشترط أن يفقد الإنسان شيئاً كان يملكه بالفعل، وإنما يفقد مستقبلًا رسمه في خياله: زواجًا، أو سفرًا، أو مشروعًا، أو مسارًا لأحد أبنائه؛ وألم الأمل الذي تبدد حقيقي، مع أن صاحبه لم يمسكه بيده قط. وفي هذه الصور كلها يعود السؤال نفسه: هل كان ما فقدته نعمةً أحببتها، أم صار أصلًا لا أتصور نفسي بدونه؟

وقفة عملية: حين تنظر إلى ما فقدت

لا تبدأ بمطالبة نفسك أن تتوقف عن الحزن. اسألها بصدق:

- ما الذي فقدته فعلًا؟
- وما المعاني التي ربطتها به؟
- هل صارت قيمتي أو أمني أو هويتي قائمةً عليه وحده؟
- ما الحق الذي بقي للمفقود عليّ؟
- من بقي حولي ويحتاج إليّ؟
- كيف أحمل ألمي إلى الله بدل أن أحمله بعيدًا عنه؟
- ماذا يستطيع هذا الفقد أن يعلمني عن الدنيا والآخرة وافتقاري؟

وليست الغاية أن تجد جوابًا سريعًا لكل سؤال؛ فبعض الإجابات تنضج ببطء، ويكفي أن يتجه القلب في الطريق الصحيح.

عبودية الفقد

عبودية الفقد ليست كلمةً واحدة. هي صبر يحفظ اللسان والعمل، ورضا لا ينفي الحزن، واسترجاع يعيد الملك إلى الله، ورجاء يتجاوز حدود الدنيا، ووفاء يحفظ حق المفقود، ورحمة بمن بقي، وافتقار يعلن أن القلب لا يستطيع حمل نفسه إلا بالله. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. لم يقولوا: لم نتألم؛ قالوا كلمةً وضعت الألم داخل الإيمان.

ما يبقى حين يذهب ما تحب

سيأخذ الزمن من الإنسان أشياء كثيرة: يتغير الجسد، ويرحل الأحبة، وتنتهي الوظائف، وتضعف القدرة، وتتبدل البيوت والوجوه والأدوار. ولا يحفظ القلب من التمزق أن يمتنع عن الحب؛ يحفظه أن يحب في الله، ويشكر عند اللقاء، ويؤدي الحق، ويعلم أن كل محبوب مخلوق لا يملك البقاء لنفسه ولا لغيره.

فإذا فقدت، فلا تخجل من دمعك، ولا تجعل دمعك حاكمًا على ربك. ولا تطلب من قلبك أن ينسى؛ اطلب منه أن يهتدي: أن يعرف أن المحبة لم تكن خطأً، وأن الفراق مؤلم، وأنّ الله هو الله في لطفه وحكمته وإن تغيرت حياتك، وأن رحمته لم تغب لأن ما تحب غاب، وأنك ما زلت له، وأن من فقدته له، وأن الطريق كله ينتهي إليه.

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

وحين تستقر هذه الحقيقة، لا يصير الفقد هينًا؛ إنما يصبح القلب أقدر على حمله، لأنه لم يعد يحمله وحده.

الوحدة السابعة: حين يقترب ما تخشاه

كيف يكشف الخوف مصدر الأمان والظن بالله؟

ماذا يقود قلبك حين يقترب الخطر، وتبقى النهاية محجوبة؟

يصل الخبر، فيتغير إيقاع الجسد، وتتجه النفس سريعًا إلى ما يمكن أن يقع: نتيجة فحص لم تظهر، ورزق يخشى الإنسان انقطاعه، وتهديد يقترب من أسرته، وقرار لا يعرف عاقبته، وأحداث تتبدل حوله ولا يملك أن يرى نهايتها. المكروه لم يقع بعد، والقلب بدأ يتجرع آلامه مقدمًا.

وهنا يكشف الخوف ما لا يظهر في زمن الأمان: إلى من يرجع الإنسان؟ وبأي معرفة بالله يفسر ما يحدث؟ وما الذي يفعله بما يملك؟ وقد شخّص القرآن هذه الحال ثم دل على بابها:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: 19-23].

فذكر الهلع، ثم استثنى منه المصلين؛ لأن القلب الذي يتصل بالله مرارًا لا يُترك وحده أمام الاحتمالات. كلما شرده الخوف أعادته الصلاة، وكلما ضاقت رؤيته وقف بين يدي من يعلم الغيب ويملك الأمر.

خوف يهدي صاحبه إلى الله

خرج موسى عليه السلام من المدينة بعد أن بلغه أن القوم يأتمرون به:

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 21].

رأى الخطر، وخاف، وغادر موضع التهديد، ودعا ربه؛ فلم يمنعه الخوف من الحركة، ولم تجعله الحركة مستغنيًا عن الله. واجتمع في موقفه إدراك الواقع، واتخاذ السبب، والافتقار إلى الله.

فالخوف غريزة تحفظ الإنسان ما دامت في موضعها؛ توقظه، وتدعوه إلى الاحتياط، وتحمله على حماية نفسه ومن ائتمن عليهم. وإنما يضل طريقه حين ينتقل من التنبيه إلى القيادة، فيملي على صاحبه عقيدته وأخلاقه وقراراته؛ فيتنازل عن حق يعلمه، أو يلجأ إلى حرام يظنه طريق النجاة، أو يعجز عن عمل يستطيعه، أو يضخم قوة المخلوق حتى يغيب عن قلبه سلطان الخالق. فالسؤال ليس: هل خفت؟ بل:

من يقودك بعد أن تخاف؟

حين بلغت القلوب الحناجر

بلغ الخوف غايته يوم الأحزاب: جيوش تحاصر المدينة، وعهد يُنقَض من الداخل، وأسباب ظاهرة تضيق. ولم يخفِّف القرآن من شدة الموقف:

> ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 10-11].

زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وزُلزل المؤمنون زلزالًا شديدًا. ثم نطق كل قلب بما استقر فيه: فقال أهل المرض: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾، وقال المؤمنون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

الحدث واحد، والخطر واحد، والنهاية غائبة عن الجميع؛ ثم قرأ كل قلب المشهد بما يعرفه عن الله. رأت قلوب أن الشدة تكذيب للوعد، ورأت قلوب أخرى أن الشدة جزء من الطريق الذي أخبر الله به. فمن عرف الله صادقًا لم يجعل تأخر الفرج تكذيبًا لوعده، ومن عرفه حكيمًا لم يجعل الألم دليل عبث، ومن عرف نفسه عبدًا لم يشترط على ربه صورة واحدة للنجاة، ومن ربط إيمانه بسهولة الطريق اضطرب حين تغير الطريق.

والخوف لم يصنع المعرفة بالله في تلك اللحظة؛ كشفها. ولهذا كان امتحانًا للظن بالله قبل أن يكون امتحانًا للشجاعة.

كيف تقرأ الخطر؟

قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 51]. جمعت الآية ثلاثة معانٍ يحتاج إليها القلب عند الخوف.

أولها: أن ما يقع مكتوب: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾؛ فالمستقبل غائب عن العبد، حاضر في علم الله، والأحداث لا تخرج عن تقديره لحظةً واحدة.

وثانيها: أن الذي يقدّر: ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾؛ فالقلب لا يواجه قدرًا أعمى، وإنما تقدير الرب العليم الحكيم الرحيم، ويرى العبد بعض الحدث والله يرى أوله وآخره وما يفتحه من خير وما يدفعه من شر.

وثالثها: أن القلب يعتمد على الله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ يعتمد عليه في قلبه، ويتحرك في جوارحه بما يستطيع.

وحسن الظن بالله لا يمنح الإنسان علمًا بأن كل ما يخشاه سيُصرف عنه؛ يمنحه يقينًا أرسخ: أن الله لا يظلمه، وأن رحمته لم تغب، وأن عبادته وعمله الصالح لا يضيعان عنده، وأن الخير لا ينحصر في النتيجة التي رسمها لنفسه. فقد يُصرف المكروه، وقد يقع ثم يفتح الله فيه من الهداية والأجر والنضج والرحمة ما لم يكن ظاهرًا قبل وقوعه.

الخبر الذي يريد أن يقود قلبك

قيل للمؤمنين: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: 173]. وتضمن الكلام خبرًا وأمرًا: الخبر ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾، والأمر ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾. فالمطلوب ألا تصل المعلومة إلى العقول وحدها، بل أن تنتقل منها إلى القلوب فتقودها. وجاء جواب المؤمنين: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. لم ينكروا وجود الجموع؛ أعادوا الجموع إلى قدرها تحت ملك الله. ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾: الله كافينا. ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: نفوض إليه أمرنا، ونقوم بما أمرنا به.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175]. فالتخويف يعمل على تكبير المخلوق داخل القلب حتى يبدو كأنه يملك المستقبل والنفع والضر، وخشية الله تعيد الأشياء إلى أحجامها: للناس قدرة، وللأسباب أثر، وللخطر حقيقة، والملك كله لله.

وفي زمن الخوف تشتد الحاجة إلى التثبت؛ لأن النفس تميل إلى تصديق ما يوافق فزعها، وتضيف إلى الخبر ما ليس فيه. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: 6]. فقبل أن تبني موقفك اسأل:

- ما الذي ثبت؟
- ما الذي أضافه القلق إلى الخبر؟
- من أين جاءت المعلومة؟
- ما العمل الذي يلزمني الآن؟

فالاحتمال يحتاج إلى دليل، والخوف لا يملك علم المستقبل.

الصلاة في زمن الاضطراب

بدأت الوحدة بقول الله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾. فالصلاة ليست عملًا يأتي بعد انتهاء الأزمة؛ إنها مما يحفظ القلب داخلها. يقف العبد بين يدي الله فيعلن بفعله أن له ربًّا يرجع إليه، ويقرأ كلامه، ويسجد له، ويسأله، ويكرر الصلة كلما عاد الخوف. قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]. وقد تبقى الأسباب مخيفة، ويجد القلب مع ذلك موضعه الذي يستند إليه.

ومن خسارة الإنسان أن يدفعه القلق إلى هجر الصلاة، وإطالة السهر مع الأخبار، وإعادة السيناريو نفسه عشرات المرات؛ فهو في تلك الساعة أحوج إلى ما يربطه بالله، لا إلى مزيد من الدوران داخل الاحتمال. وكان النبي ﷺ يستعيذ بالله فيقول:

> «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضَلَع الدين، وغلبة الرجال» رواه البخاري (6369).

فاستعاذ من همٍّ يشغل القلب، ومن جبن يقعد عن الحق، ومن عجز يوقف العمل.

اعمل بما تستطيع

قال النبي ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز» رواه مسلم (2664). وهذا الحديث يرسم حركة المؤمن أمام الخطر في ثلاث كلمات. فـ«احرص على ما ينفعك» تعني: اجمع المعلومة الصحيحة، واستشر من يعرف، واتخذ سبب العلاج والحماية والوقاية، واحفظ الحقوق، وابحث عن الخطوة التي تستطيعها الآن. و«استعن بالله» تعني أن السبب لا يستقل بالنتيجة، وأن الخطة تحتاج إلى توفيقه، وأن القدرة البشرية محدودة مهما بلغت. و«لا تعجز» تعني أن تتحرك بما تستطيع ولو بقي الخوف حاضرًا؛ فالشجاعة أن يبقى الحق قائدًا مع وجود الخوف، لا أن يغيب الخوف.

وجمع القرآن بين المشاورة والعزم والتوكل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]. مشاورة تكشف جوانب الأمر، وعزم يمنع التردد الذي لا ينتهي، وتوكل يحرر القلب من عبادة النتيجة.

حين يطلب الخوف ثمنًا من دينك

يظهر ترتيب القيم في الشيء الذي يخاف الإنسان فقده أكثر. فقد يخاف على ماله أكثر من أمانته، وعلى صورته أمام الناس أكثر من صدقه، وعلى منصبه أكثر من عدله، وعلى راحته أكثر من واجب ألزمه الله به. قال تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 13].

فخشية الله تحمل العبد على الطاعة، وتحرره من عبودية المخاوف المتفرقة؛ فلا يبيع الحق ليشتري أمانًا مؤقتًا، ولا يظلم ضعيفًا إرضاءً لقوي، ولا يكذب ليهرب من نتيجة، ولا يجعل رضا الناس أثقل في قلبه من رضا الله. ومن خاف الله عرف أن نجاة الدين أعظم من نجاة الصورة، وأن خسارة الدنيا أهون من أن يخسر نفسه عند الله.

وقفة عملية: أمام ما تخشاه الآن

ابدأ بأن تسمي خوفك بدقة: هل تخشى فقد مال؟ أم نتيجة فحص؟ أم أذى إنسان؟ أم فشل قرار؟ أم انكشاف خطأ؟ فحين يتحدد الخوف يظهر ما تستطيع فعله وما تتركه لله. ثم افصل بين الحدث وتفسيرك له؛ فتأخر الجواب حدث، أما قولك: انتهى كل شيء، فقصة لم يثبتها الواقع. ثم خذ السبب التالي وحده — اتصالًا، أو استشارة، أو فحصًا، أو اعتذارًا، أو توبة، أو حمايةً لحق — ثم انتقل إلى الخطوة التي بعدها. واحفظ صلاتك وذكرك ودعاءك في زمن الانتظار، واطلب عون من تثق بدينه وخبرته، أو مساعدة متخصصة حين يستولي الخوف على نومك وعملك وحياتك اليومية.

عبودية الخوف

عبودية الخوف أن ترى الخطر في حجمه وترى الله أعظم منه: أن تتثبت قبل أن تنشر، وتستشير قبل أن تقرر، وتأخذ بالأسباب من غير تعلق بها، وتحفظ حدود الله حين تضيق الخيارات، وتعمل فيما تملك، وتسلّم لله ما لا تملك.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: 107]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ

مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128]. فالله يعلم حال عبده، ويسمع دعاءه، والحفظ والتوفيق والنصر بيده، وقد وعد أهل الصبر والتقوى والإحسان بمعيته الخاصة.

حين تبقى النهاية غائبة

لم يكن المؤمنون يوم الأحزاب يعرفون كيف سينتهي الحصار، ولم يكن موسى عليه السلام يعرف تفاصيل الطريق حين خرج خائفًا، ولم يكن إبراهيم عليه السلام يرى سبب النجاة حين أُلقي في النار.

وكانت كلمة أهل الإيمان: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. فالقلب لا يحتاج إلى معرفة النهاية حتى يطيع الله في الحاضر؛ يكفيه أن يعرف ربه، ويعرف واجبه، ويخطو الخطوة التي بين يديه.

فحين تخاف، علّم قلبك أن يرى ما هو أعظم مما يخشاه: ذكّره أن المستقبل في علم الله، وأن الأسباب تحت ملكه، وأن الخير لا ينحصر في صورة واحدة، وأن عبوديتك لن تضيع عنده. وقد يعود الخوف بعد ذلك، فيعود القلب إلى ربه: حسبنا الله ونعم الوكيل. ويبقى السؤال:

من يقودني حين أخاف: خبر يضخّم المخلوق، أم معرفة بالله تعيد كل شيء إلى قدره؟

الوحدة الثامنة: حين تكشف الهزيمة مواضع الخلل

كيف تنهض وأنت لا تزال مجروحًا؟

ماذا تكشف الهزيمة في الإنسان والجماعة، وكيف يخرج المؤمن من الانكسار أبصر وأصدق؟

انتهى الموقف على غير ما كان الناس يرجون. خسائر ظاهرة، وجراح لم تجف، وأسماء غابت، ونتيجة كانت قريبة ثم انقلب المشهد في لحظات. وبعدها تتدافع الأسئلة: كيف حدث هذا؟ ومن أخطأ؟ وهل كان الطريق نفسه خطأ؟ وهل تخلى الله عنا؟ وهل نستطيع أن نقوم مرة أخرى؟

في تلك الساعة تكشف الهزيمة أكثر من ضعف القوة؛ تكشف مقدار الطاعة، وحقيقة النيات، وقدرة الصف على إدارة الخلاف، وشجاعة الاعتراف بالخطأ، وصلابة الارتباط بالله والحق حين تتراجع النتائج. وقد جعل القرآن يوم أُحد مدرسةً في فهم الانكسار والنهوض بعده؛ فلم يخفِ الألم، وسمى الأخطاء، وحفظ للحق مكانه، وفتح باب العفو، ثم دعا المؤمنين إلى الاستجابة والجراح ما تزال في أجسادهم.

> ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 139-140].

فالهزيمة صورة من صور تداول الأيام، وليست حكمًا نهائيًا على الحق أو أهله. قد يخسر أهل الحق جولةً بسبب خطأ وقع منهم، وقد ينتصر أهل الباطل زمنًا؛ ويبقى الحق حقًا، ويبقى الخطأ خطأً، وتبقى النتيجة مرحلةً من الطريق لا نهايته.

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾

حين أصابت المسلمين مصيبة أُحد قالوا: ﴿أَنَّى هَذَا﴾ — كيف وقع هذا ونحن على الحق ورسول الله ﷺ بيننا؟ فجاء الجواب:

> ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 165].

فشرف القضية زاد أصحابها حاجةً إلى المراجعة والصدق؛ إذ صحة المقصد لا تجعل كل اجتهاد صحيحًا، والانتساب إلى الحق لا يعطل سنن الأسباب، والحماسة لا تقوم مقام الطاعة والإعداد والانضباط.

وعند الفشل تبحث النفس سريعًا عن الأسباب خارجها: الخصوم تآمروا، والظروف لم تساعد، والإمكانات قليلة، والناس لم يفهموا. وقد تكون هذه العوامل كلها حاضرة، ثم يبقى السؤال القرآني: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾. أين أخطأنا؟ وأين تركنا واجبًا؟ وأين غلبتنا العجلة أو الرغبة أو التنازع؟ وغاية المراجعة استعادة القدرة على الإصلاح، لا الدوران حول صورة الذات المكسورة؛ فالخلل الذي ننسبه كله إلى الخارج يظل خارج قدرتنا، والخلل الذي نراه في أنفسنا يفتح باب التوبة والتعلم والتغيير.

وقد تقع الهزيمة ابتلاءً ورفعًا للدرجات، وقد تكون ثمرة تقصير أو معصية أو ضعف تدبير، وقد تجتمع فيها حِكَم وأسباب متعددة لا يحيط بها العبد؛ ولا يملك الإنسان أن يجزم بحكمة غيبية مخصوصة لكل حادثة. ووظيفته أن يراجع ما وُكل إليه، ويصلح ما يقدر عليه، ويسلّم لله فيما غاب عنه.

كيف بدأت الهزيمة؟

لم يختصر القرآن ما وقع في خطأ واحد، بل كشف سلسلةً سبقت النتيجة:

> ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152].

ففي ﴿فَشِلْتُمْ﴾ ضعفت العزيمة حين تغير المشهد، وصار الثبات الذي بدا سهلًا في البداية أثقل عند المفاجأة. وفي ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ انتقل اختلاف النظر إلى اضطراب في القرار، ولم تعد الكلمة واضحةً حاكمةً للجميع. وفي ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ تُرك الأمر الصريح حين ظهرت ثمرة عاجلة أغرت النفوس بالمبادرة إليها. وفي ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ دخل حظ النفس إلى موضع كان يحتاج إلى تجرد وطاعة.

فالهزائم الكبيرة تبدأ أحيانًا قبل أن يراها الناس: في ضعف الثبات، وفي خلاف لا تحكمه مرجعية، وفي تعليمات تُعرف ثم لا تنفَّذ، وفي مصلحة عاجلة تتقدم على مقصد أكبر، وفي نجاح أولي يوهم أصحابه أن الطريق قد حُسم؛ والنتيجة المؤلمة آخر حلقات السلسلة، والمراجعة الصادقة تعود إلى أول السلسلة، لا إلى لحظة الانهيار وحدها.

بين القدر والمسؤولية

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 166]. فما وقع كان ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾، وكان في الوقت نفسه ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: وقعت الهزيمة بأسباب بشرية، ولم تخرج عن علم الله وقدره وحكمته.

فالإيمان بالقدر يسكّن اضطراب القلب، والاعتراف بالمسؤولية يفتح طريق الإصلاح. ومن احتج بالقدر ليهرب من المراجعة كرر خطأه، ومن نسي القدر عاش أسير الندم كأنه كان يملك النتائج استقلالًا. ويقول المؤمن: وقع ما قدّر الله، وقد أخطأنا فيما أخطأنا فيه، نستغفر الله، ونصلح السبب، ونعود إلى العمل. وبهذا يبقى القلب مسلمًا لربه، وتبقى الجوارح مسؤولةً عن واجبها.

ما الذي تكشفه الهزيمة في الصف؟

تخفي أوقات النجاح كثيرًا من الفروق؛ يجتمع الناس حول النتيجة الحسنة، وتتوارى خلافاتهم، ويبدو تماسكهم أعمق مما هو عليه. ثم تأتي الكلفة فتظهر المقاصد. قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: 167]. فكشفت الشدة من يرتبط بالمبدأ ممن يرتبط بالمكسب، ومن يثبت عند التراجع ممن يبحث عن مخرج يحفظ صورته، ومن يحمل نصيبه من المسؤولية ممن يعجل باتهام غيره.

وتكشف الهزيمة كذلك مقدار ارتباط الصف بالأشخاص. انتشر يوم أُحد أن رسول الله ﷺ قد قُتل، فنزل قول الله:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144].

كان رسول الله ﷺ أحب الناس إلى المؤمنين وأعظمهم قيادةً، وربطهم القرآن بالله والرسالة التي يحملها. فالحق لا يموت بموت حامله، والواجب لا يسقط بغياب القائد؛ والمشروع الذي يحصر العلم والقرار والمسؤولية في شخص واحد يحمل في بنائه سبب تعطله. والتربية الناضجة تعظّم القدوة، وتنشئ في الوقت نفسه صفًّا يعرف الحق ويحمله ويستمر عليه.

العفو الذي لا يمحو الدرس

بعد أن ذكر الله الفشل والتنازع والعصيان قال: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 152]. سمّى الخطأ، وبيّن أثره، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾. فلم يتحول الخطأ إلى هوية دائمة، ولم يُطرد المخطئون من طريق الإيمان والعمل؛ تعلّموا، وعفا الله عنهم، واستمر التكليف.

وتحتاج كل مراجعة صادقة إلى هذا التوازن: صدق يكشف الخلل، ورحمة تفتح باب العودة. فالبيئة التي تخفي الأخطاء تكررها، والبيئة التي تحول كل خطأ إلى وصمة دائمة تقتل الاعتراف والمبادرة. فالعفو لا يمحو الدرس، والمحاسبة لا تحتاج إلى الإذلال.

وقد كُسرت رَباعية النبي ﷺ يوم أُحد وشُجَّ وجهه، فجعل يمسح الدم عنه؛ رواه البخاري (4075)، ومسلم (1791). ثم جاء التوجيه الإلهي بعد هذه الجراح:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159].

فجراح القائد حقيقية، وخطأ بعض أصحابه مؤلم؛ وجاء طريق البناء لينًا يحفظ القلوب، وعفوًا يفتح باب الرجوع، واستغفارًا يصلح الصلة بالله، ومشاورةً تعيد الصف إلى تحمل المسؤولية. ولم تُلغَ المشاورة بسبب خطأ وقع بعد مشاورة سابقة، ولم تتحول الأزمة إلى حكم فردي مغلق؛ فالجماعة الجريحة تحتاج إلى حقيقة تصلح الخلل، ورحمة تمنع تفتتها.

افصل الحق عن النتيجة

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾. فالأيام تتداول: يتقدم قوم ثم يتراجعون، وينجح مشروع ثم يتعثر، وتتأخر ثمرة عمل صالح، وتظهر نتائج عاجلة لعمل فاسد. ولذلك لا تصلح النتيجة القريبة ميزانًا وحيدًا للحكم على الحق. وبعد الهزيمة افصل بين ثلاثة أمور:

- حق ثابت لا تغيره الجولة.
- خطأ بشري يحتاج إلى إصلاح.
- نتيجة تجري عليها السنن والأقدار.

فمن خلط بينها ترك الحق بسبب خطأ أهله، أو قدّس أخطاء أهله دفاعًا عن الحق، أو رأى نجاح الباطل شهادةً بصحته. وقد حفظ القرآن الحق، وكشف خطأ المؤمنين، وفسّر النتيجة، وفتح باب العودة، من غير أن يضحي بواحد من هذه المعاني.

مراجعة تعيد البناء

البحث عن المسؤول جزء من العدل، خاصةً حين تضيع الحقوق أو تتكرر الأخطاء. وتتجاوز المراجعة الناضجة أسماء الأشخاص إلى الخلل الذي سمح للخطأ أن يقع؛ فقد يكشف خطأ فرد ضعفًا في وضوح المسؤوليات، أو نقل المعلومات، أو نظام اتخاذ القرار، فتعالج الجماعة الفعل وبيئته معًا. وقال النبي ﷺ: «لا يُلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين» رواه البخاري (6133)، ومسلم (2998). فالإيمان يثمر ذاكرةً تتعلم، والتوبة لا تلغي الخبرة، والعفو لا يعيد الأوضاع إلى ما كانت عليه من غير إصلاح.

وعند مراجعة هزيمة — شخصية كانت أو أسرية أو مؤسسية أو جماعية — اسأل:

- ما الذي وقع كما هو، بعيدًا عن التبرير والتهويل؟
- أين خالفنا أصلًا صحيحًا أو أمرًا واضحًا؟
- ما أثر التنازع وضعف الانضباط وحظوظ النفس؟
- ما الذي كان خارج قدرتنا؟
- ما التغيير الذي يمنع تكرار الخطأ؟
- ما الواجب الذي ينتظرنا الآن؟

وتتجه المراجعة إلى الفعل القادم؛ فالندم الذي يقود إلى التوبة حياة، أما الدوران حول الصورة المكسورة فيستهلك صاحبه ولا يبنيه.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾

لم تنته تربية أُحد عند تفسير الهزيمة. قال تعالى:

> ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 172].
>
> ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾: الجراح حاضرة، والإرهاق باقٍ، والخسارة قريبة، ثم جاءت الاستجابة. فينهض المؤمن بما يستطيع قبل أن تزول كل آثار الانكسار: يصلح الخطأ، ويجمع ما تفرق، ويعيد ترتيب العمل، ويعود إلى واجبه بخبرة أعمق ونفس أقل اغترارًا. فالانتظار حتى تزول الجراح كلها قد يحول الهزيمة إلى هوية دائمة. أصابهم القرح، ولم يصبح اسمهم: المهزومون؛ سماهم الله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. والهزيمة التي يتبعها صدق وتوبة وتعلم واستجابة قد تبني أهلها أكثر مما بناهم نصر لم يروا فيه عيوبهم.

عبودية الهزيمة

عبودية الهزيمة أن تنظر إلى الجرح وأنت لا تزال تنزف، فترى فيه ما يجب أن يُصلَح لا ما يجب أن يُبرَّر. وهي صدق يسمي الخطأ باسمه ولا يستر الخلل بشرف القضية، وبحثٌ أمين فيما وُكل إليك من الأسباب: تعترف بنصيبك من الخطأ إن وُجد، ولا تدّعي معرفة الحكمة الغيبية الكاملة لكل انكسار، ولا تفترض أن كل خسارة ثمرة تقصير.

وهي إيمان بالقدر يسكّن القلب، ومسؤولية تفتح باب العمل، فلا يُحتج بالقدر على ترك المراجعة. ورحمة بمن أخطأ، فقد عفا الله عمن هو أعظم منك ومنه. وثبات على الحق حين تشهد النتيجة عليه؛ فالجولة لا تصدر حكمًا على المبدأ. واستجابة من بعد القرح، فلا يُنتظر زوال الجراح كلها لتبدأ. وافتقار يعلم أن النصر لم يكن من قوتك وحدها، وأن النهوض لن يكون بها وحدها.

حين لا تكون الهزيمة هي النهاية

قد تخسر جولةً ظننت أن خسارتها مستحيلة، وقد ترى من نفسك ومن حولك ما يؤلمك، وقد تضطر إلى الاعتراف بأن جزءًا من النتيجة كان من عندك. وذلك كله لا يكتب السطر الأخير؛ فالذي قال: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ هو الذي قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾، والذي ذكر القرح هو الذي قال: ﴿لَا

تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾، والذي كشف الفشل والتنازع والعصيان هو الذي وصف العائدين بعد الجرح بقوله:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

وإنما تكتمل الهزيمة حين يمر الجرح بلا معرفة، أو تظهر المعرفة بلا توبة، أو تقع التوبة بلا إصلاح، أو يبدأ الإصلاح ثم يخاف أصحابه من العودة إلى الطريق. أما المؤمن فيخرج من الانكسار أصدق مع نفسه، وأبصر بسنن الله، وأرحم بمن أخطأ وتاب، وأشد حذرًا من أسباب السقوط. ثم يقوم. ويبقى السؤال:

هل أريد استعادة صورتي القديمة، أم أريد أن أخرج من الانكسار عبدًا أصلح وأبصر؟

الوحدة التاسعة: حين يصبح القرار في يدك

كيف يكشف التمكين العدل والهوى؟

من تكون حين تقدر على تنفيذ ما تريد، ويصبح أثر قرارك واقعًا في حياة غيرك؟

كان يشكو أن صوته لا يُسمع، وأن الأبواب مغلقة، وأن القرار يصدر بعيدًا عنه. ثم تبدل موضعه؛ فأصبح توقيعه نافذًا، وكلمته مقدَّمة، وقراره يفتح بابًا لإنسان ويغلقه على آخر. كان في الضعف يسأل: من ينصفني؟ وفي التمكين يأتي السؤال الأشد: هل تنصف أنت؟

فالقدرة تنقل ما في القلب إلى حياة الآخرين: الهوى يصبح قرارًا، والغضب يصبح عقوبة، والرحمة تصبح تيسيرًا وحفظًا للكرامة، والعدل يعيد الحقوق إلى أصحابها. قال تعالى:

> ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41].

فبدأت علامات التمكين بالصلاة حتى يبقى صاحب القدرة عبدًا لله، ثم جاء حق المال، وإصلاح المجتمع، واستحضار أن عاقبة الأمور لله. فالتمكين في القرآن وظيفة عبودية، وأمانة تؤدي حق الله وحقوق الخلق.

بين الحق والهوى

قال الله لداود عليه السلام:

> ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: 26].

جاء الأمر بالحكم بالحق عقب ذكر الخلافة، ثم جاء التحذير من الهوى. وصاحب القدرة لا يواجه الهوى في صورته الصريحة دائمًا؛ قد يأتيه باسم مصلحة العمل، أو هيبة القيادة، أو حماية المشروع، أو ضرورة المرحلة، أو حق صاحب الفضل الأول. ثم ينتقل القرار من خدمة الغاية إلى حماية مكانة صاحبه.

والهوى في موقع القوة واسع الأثر؛ إذ يستطيع صاحبه أن يحوّله إلى نظام، وعقوبة، ومكافأة، ومنع، وإقصاء. ولهذا يحتاج كل قرار إلى سؤال صادق:

لو صدر هذا القرار في حقي من شخص آخر، أكنت أراه عدلًا؟

العدل حين يكون عليك

يحب الإنسان العدل حين يعيد إليه حقه، ويظهر صدقه حين يأخذ العدل من مصلحته أو مكانته. قال تعالى:

> ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: 135].

فالعدل عبادة لله: على النفس، ومع القريب، ومع من تحتاج إليه، ومع من تملك إبعاده. ويشتد الامتحان مع الخصم: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: 8]. فقد يعارضك إنسان، أو يكشف خطأك، أو يسيء إليك، وتبقى له حقوق لا يسقطها غضبك. وأصدق اختبار للتمكين يظهر مع من لا تحبه، ومع من لا تحتاج إليه، ومع من لا يستطيع انتزاع حقه منك.

يوسف: أمانة عند الولاية، وعفو عند القدرة

قال يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 55]. فجمع بين الحفظ والعلم؛ إذ الأمانة وحدها لا تكفي لمن يجهل عمله، والكفاءة بلا أمانة قد تحوّل القدرة إلى فساد أوسع.

ثم جاء إخوته إليه محتاجين، وأصبح قادرًا على مؤاخذتهم بما صنعوا، فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 92]. فظهرت أخلاقه حين صار العقاب في يده؛ امتلك القدرة فلم يجعل الماضي ذريعةً للتشفي، واختار العفو في موضع يصلح فيه العفو ويجمع الأسرة.

وفي ختام قصته قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101]. بلغ المُلْكَ وبقي

سؤاله حسن الخاتمة، واتسعت مسؤوليته وبقي الله وليه؛ فلم تصبح منزلته الدنيوية هي المعنى الذي يعرّف به نفسه، بل بقي عبدًا يرجو أن يموت مسلمًا ويلحق بالصالحين.

من في يدك أمرهم أمانة

قال النبي ﷺ: «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته» رواه البخاري (7138)، ومسلم (1829).

فالسلطة رعاية قبل أن تكون امتيازًا، وتبدأ من الحكم العام ثم تمتد إلى كل دائرة يتأثر فيها الناس بقرار إنسان: الأب في بيته، والمعلم مع طلابه، والمدير مع فريقه، والعالم والداعية مع من يثقون بكلامه، وصاحب المال مع من تعلقت حاجتهم به، والمسؤول عن تقييم أو قبول أو علاج أو خدمة. فكل تمكين يضع في الذمة حقًا جديدًا، وكلما اتسع أثر القرار اتسعت مساحة السؤال.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58]. فالمنصب أمانة، والمعلومة أمانة، والمال أمانة، ووقت الناس أمانة، وتقييم أعمالهم أمانة، وأسرارهم أمانة.

ويظهر صدق صاحب التمكين في تفاصيل لا يراها الناس دائمًا: هل يسمع صاحب الحاجة؟ هل يحفظ كرامة من أخطأ؟ هل يرد الفضل إلى أهله؟ هل يطبق على المقربين ما يطبقه على غيرهم؟ هل يستخدم ما عرفه من ضعف الناس لحمايتهم أم للسيطرة عليهم؟ وقد يحقق العمل أرقامًا كبيرة، ويبقى مظلوم واحد شاهدًا على خلل لم تصلحه الأرقام. وقال النبي ﷺ:

> «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشقّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به» رواه مسلم (1828).

فالرفق بالناس باب من أبواب رفق الله بالعبد، والمشقة التي يصنعها صاحب القرار بلا حاجة تعود عليه مسؤوليةً ودعاءً.

لا تجعل سلطتك انتقامًا لنفسك

من أخطر مواضع التمكين أن تختلط حماية الحق بحماية النفس: فيعاقب الإنسان من خالفه ثم يسمي ذلك حمايةً للنظام، ويقصي من انتقده ثم يصفه بأنه يهدد الصف، ويشتد على من أحرجه ثم يزعم أنه يدافع عن المصلحة العامة. وكان من هدي النبي ﷺ كما قالت عائشة رضي الله عنها:

> «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلا أن تُنتهك حرمة الله فينتقم لله بها» رواه البخاري (3560)، ومسلم (2327).

فلم يجعل قدرته وسيلةً لتصفية ما أصاب نفسه؛ كان غضبه لله، وحَزْمُهُ لحماية الحق، وعفوه أوسع حين يتعلق الأمر بحظه الشخصي. ويحتاج صاحب القرار أن يفرق بين سؤالين: هل وقع ظلم يجب رفعه؟ أم جُرحت صورتي فأريد أن يستعيد الناس هيبتي؟ فالعدل يحفظ الحق، والانتقام للنفس يلبس ثوب العدل ثم يضيف ظلمًا جديدًا.

حين تصبح رؤيتك هي الرؤية الوحيدة

قال فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 29]. وهذه صورة للطغيان حين يحتكر صاحبه الرؤية والصواب. وقد يبدأ هذا المرض في دوائر صغيرة: يضيق صاحب القرار بالنقد، ويفسر الاعتراض ضعف ولاء، ويقرّب من يؤكد رأيه، وتصل إليه الأخبار بعد أن تُنقّى مما يزعجه. ثم يرى اتفاق المحيطين به برهانًا على صحة قراره، وقد يكون علامةً على أنهم فقدوا أمان الحديث معه.

ومن أخطر آثار التمكين أن يعزل صاحبه عن الحقيقة وهو يظن أنه صار أقدر على معرفتها. فيحتاج صاحب القوة إلى من يخاف الله أكثر مما يخافه، وإلى من ينقل له ما وقع لا ما يحب سماعه، وإلى قلب يفرح بانكشاف الخطأ قبل أن يتحول إلى ظلم واسع. فالقرار الصحيح أثمن من انتصار الرأي، والرجوع إلى الحق قوة، والإصرار لحماية الصورة ضعف يدفع ثمنه من لا يملكون الاعتراض.

شكر التمكين

سبق أن النعمة قد تخدع صاحبها، ويشتد خطر ذلك حين يكون العطاء سلطةً نافذة؛ فمن رأى التمكين فضلًا بقي مسؤولًا شاكرًا، ومن رآه استحقاقًا طالب الناس بثمن نجاح نسبه إلى نفسه. وشكر التمكين يظهر في:

- نسبة الفضل إلى الله.
- حفظ حقوق أهل الجهد.
- استعمال القدرة في الغاية التي مُنحت من أجلها.
- تذكّر أن بقاء الموقع ليس حقًا دائمًا.

وتبقى عاقبة الأمر لله مهما اتسع سلطان الإنسان: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

وقفة عملية: قف أمام ما مُكّنت فيه

يبدأ الامتحان من أول مساحة قدرة أُعطيت لك؛ قد تكون بيتًا، أو فريقًا، أو فصلًا، أو مشروعًا، أو جمهورًا يسمعك، أو مالًا يحتاج إليه غيرك. فتأمل موضع قدرتك، واسأل:

- هل تخدم قدرتي الناس، أم تحمي صورتي؟

- من يستطيع أن يصارحني من غير أن يخاف أثر كلامه؟
- هل أعدل مع من أخالفه كما أعدل مع من أحبه؟
- من الضعيف الذي يمكن أن يضيع حقه تحت قراراتي؟
- هل زادتني المسؤولية افتقارًا وصلاةً، أم أشغلتني عن الله؟

وهذه الأسئلة لا تختص بأصحاب المناصب الكبرى؛ فكل مساحة قدرة ميدان للعدل أو الهوى.

عبودية التمكين

عبودية التمكين أن تبقى عبدًا حين تصبح مطاعًا: أن ترى المنصب تكليفًا، والقدرة أمانة، والناس أصحاب حقوق، والنقد بابًا إلى الحقيقة، والعدل عبادةً حين يكون لك وحين يكون عليك. وأن ترفق حين تقدر على الإغلاظ، وتعفو حين يكون العفو إصلاحًا، وتحاسب من غير تشفٍّ، وترد الحق إلى خصمك، وتعترف بخطئك قبل أن يدفع ثمنه الضعفاء.

فالتمكين ينقل الامتحان من قلب صاحبه إلى حياة الآخرين، وتظهر قوة العبودية حين يقدر الإنسان على اتباع هواه فيمنعه خوف الله. ويبقى السؤال:

ماذا صنعت بمن جعل الله شيئًا من أمرهم في يدك؟

خاتمة المحور الثاني: بأي قلب دخلت؟

ونعود في ختام هذا المحور إلى آية الابتلاء التي افتتحنا بها مسار الكشف؛ فقد جاءت هناك لتبين أن الأحوال تختبر خبر الإنسان عن نفسه، وتأتي هنا لتجمع ما كشفته النعمة والفقد والخوف والهزيمة والتمكين، ويظهر معها ما استقر في قلبه. قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: 31]. فالإنسان يخبر عن نفسه، ثم تأتي الأحوال فتختبر خبره.

كان السؤال في النعمة: هل رأيت فضل الله أم رأيت نفسك؟ وعبوديتها الشكر، والتواضع، وأداء حق العطاء. وكان السؤال في الفقد: أين كان قلبك يسكن؟ وعبوديته الاسترجاع، والافتقار، وحفظ اللسان والعمل مع حضور الحزن. وكان السؤال في الخوف: من يقودك حين تغيب النهاية؟ وعبوديته التوكل، والتثبت، والعمل بما تستطيع. وكان السؤال في الهزيمة: هل تبحث عن مبرر، أم عن موضع الخلل وطريق العودة؟ وعبوديتها الصدق، والتوبة، والتعلم، والاستجابة من بعد القرح. وكان السؤال في التمكين: ماذا تفعل حين يصبح القرار في يدك؟ وعبوديته العدل، والرعاية، والرفق، ومقاومة الهوى.

وهذه الأحوال لا تغلق باب الإنسان عند لحظة انكشافه؛ فمن اغترّ بالنعمة يستطيع أن يعود إلى الشكر، ومن زلزل الفقد قلبه يستطيع أن يهتدي، ومن قاده الخوف يستطيع أن يرجع إلى الله، ومن أخطأ

عند الهزيمة يستطيع أن يتوب ويصلح، ومن فُتن بالتمكين يستطيع أن يرد الحقوق ويعدل. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: 17]؛ فالاستجابة الصادقة تفتح هدايةً بعدها.

وتتبدل الدنيا بين عطاء ومنع، وأمن وخوف، وقوة وضعف، واجتماع وفراق؛ ويبقى المقصود أن يظل القلب لله في كل حال: شاكرًا عند النعمة، راجعًا عند الفقد، مستعينًا عند الخوف، صادقًا عند الهزيمة، عادلًا عند التمكين. فحين تتغير حياتك، انتقل من السؤال الذي يستهلكك — لماذا وقع هذا لي؟ — إلى السؤال الذي يبنيك:

ماذا كشف هذا الحال في قلبي، وما العبودية التي يطلبها الله مني فيه؟

فقد لا تختار الحال التي تأتيك، وتستطيع أن تجاهد في اختيار الطريق الذي تسلكه إلى الله من خلالها. وعندها لا تمر الأحوال بالعمر فحسب؛ بل تعرّف العبد بربه، وتكشف له نفسه، وتنقله إلى عبودية أصدق.

وقبل أن تمضي إلى المحور التالي

كشفت الأحوال في هذا المحور ما يتحرك في القلب عند العطاء والمنع والخوف والانكسار والقدرة. غير أن رؤية ما انكشف لا تكفي دائمًا؛ فقد يلتبس الإيمان بالعادة الدينية التي لم تُمتحن، ويلتبس اليقين بالتمني، ويلتبس الصبر بالجمود، ويلتبس الإخلاص بصورة تشبهه، ويلتبس ضعف المؤمن بخصال المنافقين. فيخرج الإنسان من المرآة وقد رأى شيئًا، ثم لا يعرف ما رأى: أهو خلل عارض أم مرض مستقر؟ وهل يخاف على نفسه أم يطمئن؟

ومن هنا ينتقل المحور التالي من مرآة الكشف إلى موازين القراءة؛ فلا يسأل: ماذا يكشف الابتلاء؟ فذلك ما فرغنا منه، وإنما يسأل:

كيف تقرأ ما انكشف؟

المحور الثالث: كيف تقرأ ما انكشف؟

موازين التمييز في أحوال القلوب

مقدمة المحور: بعد المرآة

لا تمر الأحوال بالإنسان ثم تتركه كما كان. ففي السعة والضيق، وعند حضور الأسباب وغيابها، تظهر استجابات لم تكن واضحة لصاحبها: تعلق ظنه توكلًا، أو خوف سترته الطمأنينة، أو رغبة في المنزلة تسللت إلى عمل صالح. وقد يظهر أيضًا صدق يحمله على الثبات، أو تجرد لم يعرفه من نفسه، أو قوة أودعها الله فيه حين احتاج إليها.

هذا الانكشاف نعمة؛ لأنه يحدد موضع العمل. فالمرض المستور يمتد من غير مقاومة، فإذا ظهرت علاماته أمكن علاجه. غير أن الرؤية وحدها لا تكفي؛ فقد يرى الإنسان صورة صادقة ثم يفسرها تفسيرًا فاسدًا، فيضيع أثر الكشف لاختلال الميزان.

قال الله تعالى:

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: 14-15].

في النفس بصيرة تعرف كثيرًا مما تحاول الأعذار تغطيته، وتدرك الفرق بين عذر حقيقي وعذر صنعته الرغبة في حفظ الصورة. وربما أقنع الإنسان من حوله، لكنه لا يغير علم الله، ولا يمحو من قلبه المعرفة التي تعود إليه حين يهدأ ضجيج الدفاع عن النفس.

ولهذا جاء النهي القرآني حاكمًا على قراءة الإنسان لذاته: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النجم: 32]. فليس المطلوب إنكار ما وفق الله إليه من خير، ولا استصغار كل طاعة، بل ألّا يمنح العبد نفسه شهادة الأمان، أو يجعل عملًا سابقًا وصورة حسنة عند الناس مانعين من محاسبة حاضره.

وفي الطرف المقابل قد يظلم الإنسان نفسه، فيجعل ما ظهر حكمًا نهائيًّا عليها. يرى ضعفًا في موقف فيقول: لم يكن في قلبي إيمان صادق. ويجد حظًّا للنفس في عمله فيتوهم أن العمل كله بطل، أو يقع في معصية فيعد السقوط حقيقة ثابتة لا تتغير. وهكذا تتحول المحاسبة من باب للإصلاح إلى باب للقنوط والاضطراب.

والقرآن لا يربي المؤمن على إنكار الذنب، ولا يختصره فيه. قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].

وقعت منهم المعصية، ثم كشف ما بعدها عن اتجاه قلوبهم: ذكروا الله، وطلبوا مغفرته، ولم يحولوا الذنب إلى موضع إقامة. فالتوبة لا تجعل الخطأ صوابًا، لكنها تمنعه من أن يصبح طريقًا، وتكشف أن القلب ما زال يرجع إلى حكم ربه.

تحتاج قراءة القلب إذن إلى صدق وعدل. الصدق يمنع تخفيف ما ظهر أو تحسين اسمه، والعدل يمنع تحميل الموقف أكثر مما يدل عليه. وقد يكون الخلل عارضًا، أو بداية اتجاه، أو أثرًا لمسار قديم؛ ويظهر الفرق بالنظر في الاختيار والتكرار والرضا والمجاهدة، وما أحدثته المعرفة من عمل.

قال النبي ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» رواه مسلم (2564). جمع الحديث بين القلب والعمل؛ لأن ما يستقر في الباطن يظهر في الاختيارات، ولأن الأفعال المتكررة تعود فتزيد القلب حياة أو مرضًا. ومع ذلك لا يملك العبد حكمًا نهائيًّا على قلبه، وإنما يعرف ما ظهر، ويزن قرائنه، ويراقب الاتجاه الذي تبنيه اختياراته.

ولا تعني مراقبة الاتجاه أن ينتظر الإنسان اكتمال صورة نفسه قبل أن يعمل. قد تبقى بعض الدوافع مختلطة، وقد يحتاج الحكم على المسار إلى زمن، لكن المعلوم لا يؤجل: الواجب يؤدى، والحرام يترك، والحق يرد، والسبب الفاسد يقطع. وبالعمل نفسه تتضح أحيانًا حقيقة عجز التفكير المجرد عن فصلها؛ لأن القلب يكشف موقفه حين يدفع كلفة الطاعة أو التوبة.

وهذه الموازين لمحاسبة النفس، لا لتصنيف الناس. فما يظهر من الآخرين يحتمل وجوهًا، وما في صدورهم لا يعلمه إلا الله. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: 12]. وقد يصبح العلم بأمراض القلوب مرضًا جديدًا إذا استُعمل لتتبع بواطن الخلق، وبقي صاحبه عاجزًا عن رؤية أعذاره هو.

ينتقل المحور من الميزان العام إلى خمسة تطبيقات: ماذا يبقى من الإيمان حين لا تحمل البيئة صاحبها؟ ولمن يعمل إذا غابت أعين الناس؟ وعلى أي وعد يبني يقينه؟ وكيف يصبر من غير جمود أو استسلام؟ وكيف يخاف على إيمانه خوفًا يقوده إلى العمل، من غير أن يحول كل ضعف إلى حكم بالنفاق؟

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: 18]. فالنظر في النفس ليس دورانًا حول مشاعرها، بل نظر فيما قدمت، وما تبنيه بأعمالها، وإلى أين تمضي بها اختياراتها.

حين ترى ما تكره، لا تخف من الانكشاف؛ خف من أن ترى ثم تعرض، أو تعرف ثم لا تتغير. فبعد الكشف يأتي الميزان، وبعد الميزان قرار يصدق ما عرفته عن قلبك.

الوحدة العاشرة: مرآة تحتاج إلى ميزان

هل ما ظهر موقف عابر أم اتجاه مستقر؟

خرج من المجلس مثقلًا بما قال. كان النقاش قد اشتد، فلما شعر أن صورته تهتز أمام الحاضرين، اندفعت منه كلمة جارحة يعرف في قرارة نفسه أنها ظلم. ظل في طريق عودته يعيد المشهد: أكان يدافع عن الحق، أم كان ينتصر لنفسه؟ وهل كشفت الكلمة عارضًا غلبه في لحظة غضب، أم أظهرت خلقًا يستقر فيه كلما خشي أن يخسر مكانته؟

هذا السؤال لا تجيب عنه الكلمة وحدها، مع أنها لا تفقد دلالتها. فقد يقع الإنسان في فعل يناقض ما يعرفه من نفسه، ثم يكون اعترافه ورجوعه وإصلاحه شاهدًا على أن الخطأ لم يتحول إلى مقام يرضاه. وقد يكشف الموقف ما ظل مستورًا؛ لأن صاحبه يكرر الفعل، ويهيئ أسبابه، ويحميه بالأعذار كلما ظهر. وبين الصورتين يحتاج القلب إلى ميزان أعدل من التبرئة العاجلة والإدانة الشاملة.

المؤمن مأمور بأن يحاسب نفسه، لكنه لا يحاسبها بالظنون المضطربة ولا بالصور التي يحبها عنها. يزن ما ظهر بوحي الله، ويفرق بين ما ورد على القلب من غير اختيار، وما استدعاه صاحبه أو استرسل معه، وما ترجمه إلى قول أو عمل، وما صار بالتكرار والرضا طريقًا معروفًا. وبهذا يضع الخلل في حجمه: فلا يصغر حتى يهمل، ولا يتضخم حتى يقطع الرجاء.

الموقف لا يساوي المسار

تمر بالإنسان خواطر ومشاعر ودوافع لا يملك ابتداءها كلها. تعرض له صورة محرمة فيكرهها، أو يثور في داخله خوف، أو يجد ضيقًا من كلمة، أو يميل إلى رد يؤذي من أمامه. وقد رفع الله الحرج عما لم يدخل في الاختيار، فقال النبي ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم» رواه البخاري (6664)، ومسلم (127).

يدل الحديث على أن مجرد حديث النفس لا يجعل صاحبه مؤاخذًا بما لم يختره ولم يحوله إلى عمل أو قول. وهو في الوقت نفسه يرد الإنسان إلى موضع مسؤوليته؛ لأن ما يقع بعد الورود قد يكون من كسبه. فالفكرة التي باغتته غير الفكرة التي أعادها، والخوف الذي أحس به غير القرار الذي اتخذه تحته، والغضب الذي ثار فيه غير الكلمة التي أطلقها بعدما وجد فرصة للكف عنها.

لهذا لا يصح أن يقال عن كل ما ظهر: هذه حقيقتي كلها، كما لا يصح أن يقال عن كل سقطة: إنها حادثة لا تكشف شيئًا. الموقف نافذة؛ يكشف ضعفًا محدودًا، أو بداية اتجاه، أو مسارًا ترسخ منذ زمن. وتظهر دلالته حين ينظر الإنسان في سلسلة كاملة: كيف بدأ الأمر، وكيف استقبله، وماذا اختار، وما الذي فعله بعدما عرف أثر اختياره.

أربع درجات تعين على القراءة

يمكن تقريب حركة القلب والعمل بأربع درجات: خاطر يرد، وميل يجد موافقة، واختيار ينحاز إليه صاحبه، ومسار يتكون من التكرار والرضا والدفاع. وهذه ليست أسماء شرعية لمراتب محصورة، ولا حدودًا جامدة بين أحوال النفس، وإنما أداة تقريبية تعين على معرفة موضع التكليف ومساحة المجاهدة.

وقد قرر أهل العلم الفرق بين حديث النفس الذي يرد على الإنسان من غير اختيار، وبين الإرادة التي يقصدها ويعزم عليها، وما يتحول بعد ذلك إلى قول أو عمل. فليس أول الخاطر كاستدعائه، ولا الميل العارض كالاختيار، ولا الزلة التي يتبعها ندم ورجوع كالمسار الذي يحميه صاحبه بالتكرار والرضا والتبرير.

الخاطر هو المعنى الذي يرد من غير استدعاء مقصود: سوء ظن، أو رغبة في الانتقام، أو خوف يدعو إلى ترك واجب، أو ضيق من نعمة أصابت غيرك. ولا يملك المرء دائمًا منع أول الورود، لكنه يملك في الجملة أن يصرفه أو يكرره، وأن يستعيذ بالله أو يفتح له باب الاسترسال. لذلك يكون السؤال النافع: ماذا صنعت حين طرق هذا المعنى قلبك؟

وقد يجد الخاطر من النفس موافقة، فينشأ الميل. يشعر الإنسان بلذة الغلبة، أو براحة مؤقتة في تأخير الواجب، أو برغبة في أن ينتقص من أساء إليه. وجود هذا الميل يكشف موضع مجاهدة، لكنه لا يساوي اختيار الطريق. فقد يميل المرء إلى كلمة ثم يحبسها، أو تدعوه نفسه إلى انتقام فيعدل، أو يجد حسدًا فيدعو لأخيه بالبركة. والمعتبر هنا أن يكون أمر الله أرجح عند التعارض.

ويظهر الاختيار حين ينحاز الإنسان بإرادته إلى ما مال إليه، فيعزم أو يتكلم أو يعمل أو يهيئ الأسباب المؤدية إليه. عند هذه النقطة ينتقل ما في القلب إلى كسب يتحمل العبد مسؤوليته. وقد يرجع بعد الخطأ، فيكون رجوعه اختيارًا جديدًا يعالج ما سبق، وقد يمضي فيه ثم يعيد تسميته حتى يبدو في عينه حقًّا، فيضيف إلى الفعل فساد الميزان الذي كان يمكن أن يرده.

أما المسار فينشأ حين تتكرر الاختيارات، وتصبح لها طرق مألوفة، وتُصنع لها الأعذار، ويضيق صاحبها بمن ينبهه إليها. وليس عدد الوقائع وحده كافيًا للحكم؛ فقد يتكرر الذنب من عبد يكرهه، ويتوب منه، ويجاهد أسبابه، فيبقى محتاجًا إلى علاج أقوى من غير أن يستوي بمن رضي بفعله ودافع عنه وأقام عليه. فالتكرار قرينة، وموقف القلب من الفعل قرينة أعمق.

قال الله تعالى في وصف أهل التقوى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].

أثبت وقوع الذنب، ونفى الإصرار؛ فدل على أن الزلة لا تخرج صاحبها من طريق التقوى إذا أعقبها ذكر واستغفار وترك للإقامة عليها. والإصرار ليس مجرد تكرر الصورة، بل بقاء القلب على الرضا، أو تعطيل التوبة، أو الإعراض عن أسباب الرجوع مع العلم.

ما بعد الخطأ يكشف الطريق

عاد صاحب الكلمة الجارحة إلى بيته، وظل يبحث عن صيغة تبرئه. قال في نفسه: لقد استفزني، وكان لا بد أن أوقفه عند حده. ثم تذكر أنه لم يكتف ببيان الخطأ، بل تعمد لفظًا يعرف أنه يجرح. هنا بدأ الامتحان الأشد: هل يحفظ صورته عن نفسه، أم يواجه حقيقة ما صنع؟

لو اتصل بصاحبه، واعترف بظلمه، واعتذر، ورد ما ترتب على كلامه، ثم راقب السبب الذي أطلق لسانه، لكان ما بعد السقطة شاهدًا على حياة قلبه. أما إذا أعاد رواية الموقف مرات حتى يقنع نفسه أن الأذى كان شجاعة، وجمع من كلام صاحبه ما يسوغ تجاوزه، وغضب ممن دعاه إلى الاعتذار، فإن دفاعه عن الخطأ يبدأ في تحويله من موقف إلى طريق.

ولهذا قد تكون طريقة الإنسان في تفسير ذنبه أبلغ دلالة من الذنب الأول. فالمعصية التي تبقى في نظر صاحبها معصية يظل باب التوبة مفتوحًا أمامها، أما إذا تغير اسمها في قلبه صار الرجوع أبعد. قد يسمى الجبن حكمة، والبخل تدبيرًا، والحسد نقدًا، والفظاظة صراحة، وترك الواجب توازنًا. وحين تتبدل الأسماء لا يتغير اللفظ وحده، بل يختل الحكم الذي يحرك الإرادة.

يعرض القرآن الفرق بين الاعتراف والتبرير في موقف آدم عليه السلام وموقف إبليس، من غير مساواة بين المعصيتين ولا بين صاحبيهما. قال آدم وزوجه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]. نسبا الظلم إلى نفسيهما، ثم افتقرا إلى المغفرة والرحمة، فلم يجعلا وسوسة إبليس عذرًا يسقط المسؤولية.

أما إبليس فواجه ظهور كبره بالتزكية والاعتراض: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]. لم يرجع إلى الأمر الإلهي ليزن نفسه به، بل جعل حكمه على نفسه أصلًا يرد به الأمر. ومن هنا كان التبرير تثبيتًا للانحراف؛ لأنه أغلق الباب الذي تدخل منه التوبة: الاعتراف بأن الحق لله وأن العبد قد خالفه.

القلب يتشكل بما يكسب

لا تمر الأعمال بالقلب ثم تتركه كما كان. كل استجابة تهيئ لما بعدها؛ فمن رد الخاطر مرة قويت فيه قدرة الرد، ومن استرسل معه ألفه، ومن بادر إلى الاعتذار صار الرجوع أيسر عليه، ومن اعتاد حفظ صورته ثقل عليه الاعتراف. لذلك لا يقرأ المسار من حادثة معزولة، بل من الأثر الذي تصنعه الاختيارات المتتابعة في القلب.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: 5]. بدأ الزيغ منهم، ثم جاءت العقوبة زيادة في الانحراف. وقال سبحانه: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]. نسب الران إلى الكسب المتراكم، فدل على أن العمل المتكرر قد يصير حجابًا يحول بين القلب والحق.

وفي الاتجاه المقابل، تجعل المجاهدة القلب أقدر على الهداية والطاعة. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]. قد يبدأ العبد ضعيف المقاومة، بطيء الرجوع، ثم يقوى بتكرر الصدق، ويصير قطع السبب أسرع، والاعتذار أهون، وقبول الحق أحب إليه من الانتصار لذاته. فالمجاهدة لا تعالج الفعل وحده؛ بل تعيد تشكيل صاحبه.

من هنا يكشف الموقف ضعفًا حاضرًا، بينما يكشف ما بعده بداية قوة لم تكن موجودة قبل الانكشاف. وقد يظهر من الإنسان موقف حسن، ثم يفسده بما يتبعه من عجب وأمن. ليست العبرة بلحظة منفردة مع إهمالها، ولا بسيرة عامة تمحو تفاصيلها، وإنما بقراءة اللحظة داخل اتجاه القلب والعمل.

وتظهر دلالة ما انكشف من اجتماع قرائن، لا من لقطة واحدة. يميل إلى أن يكون عارضًا إذا فاجأ صاحبه، ووجد منه كراهية، وسارع إلى إصلاح أثره، وقبل النصيحة، واتخذ سببًا يمنع عودته. ويميل إلى أن يكون اتجاهًا إذا تكرر في أحوال مختلفة، واستدعاه صاحبه، وهيأ أسبابه، وصنع له أسماء محمودة، وضاق بمن ينبهه إليه.

ومع ذلك لا يقتضي صدق المحاسبة أن يصدق الإنسان كل اتهام يوجه إليه، أو يسلم لكل تفسير لأفعاله. ينظر في الدليل بهدوء، ثم يسأل نفسه: هل أرفض هذا الكلام لأنه غير صحيح، أم لأن قبوله يجرح الصورة التي أحبها عن نفسي؟ فقد تكون طريقة استقباله للنصيحة أشد كشفًا من الحادثة التي بدأت منها المراجعة.

أسئلة تضبط القراءة

عندما يظهر خلل، ابدأ بتحديده من غير تهويل ولا تخفيف. لا تقل: أنا فاسد، فهذه إدانة واسعة لا تدل على موضع العمل، ولا تقل: لم يحدث شيء، وأنت تعرف أثر ما صنعت. قل: غضبت فظلمت، أو خفت فتركت واجبًا، أو ضقت من خير أصاب غيري. التحديد الصادق أول طريق العلاج.

ثم فرّق بين ما وقع عليك وما صدر منك. أول الخوف قد لا يكون اختيارًا، لكن ترك الواجب بسببه قد يكون اختيارًا. ورود الخاطر لا تملكه دائمًا، أما استبقاؤه وتغذيته ففيه مساحة من الإرادة. بهذا التفريق لا تحمل نفسك ما لم تملك، ولا تسقط مسؤوليتك عما صنعت.

وانظر إلى موقف قلبك من الفعل: هل تكرهه لأنه يخالف أمر الله، أم يزعجك فقط لأن صورته ظهرت للناس؟ هل تريد إزالة المرض، أم تريد إزالة الشعور المؤلم مع إبقاء أسبابه؟ قد يبحث الإنسان عمن يطمئنه بدل أن يبحث عما يصلحه، والفرق بين الطلبين يظهر حين تقترب كلفة التوبة.

بعد ذلك اسأل عما أحدثته المعرفة: هل استغفرت، ورددت حقًّا، واعتذرت، وقطعت سببًا، وقبلت توجيهًا، أم اكتفيت بوصف دقيق لخللك؟ المعرفة النافعة تنشئ فعلًا يناقض المرض، وتحوّل المحاسبة من حديث داخلي إلى عبودية ظاهرة.

وأخيرًا، راقب الاتجاه عبر الزمن. قد لا تختفي الآفة سريعًا، لكن آثار العلاج يمكن رؤيتها: تقصر مدة الاسترسال، ويسرع الرجوع، وتضعف الأسباب المغذية للخلل، ويصبح قبول النصيحة أيسر. بطء الشفاء لا يعني انعدامه، والتحسن الجزئي لا يسوغ ترك المجاهدة.

الانكشاف باب إلى العمل

رؤية الضعف رحمة حين تقود إلى إصلاحه. أن يعرف الإنسان موضع غضبه أو بخله أو خوفه قبل أن يستحكم خير من أن يبقى مطمئنًا إلى صورة لا تصمد عند الامتحان. والخطر الأكبر أن يرى ثم يغير اسم ما رأى، أو يراه فيغلق على نفسه باب الرجاء؛ فالأول يحفظ المرض بالتبرير، والثاني يحفظه بالاستسلام.

طريق الإيمان أعدل من ذلك. يعترف العبد بما ظهر، ويزنه بحكم الله، ويرجو رحمته، ثم يتخذ من العمل ما يناسب حاله. فالخاطر يُدْفَعُ، والميل يُجَاهَدُ، والاختيار الخاطئ يتبع بتوبة وإصلاح، والمسار يحتاج إلى إعادة بناء الأسباب والعادات التي تغذيه.

وهكذا لا ينتهي السؤال عند: ماذا ظهر في قلبي؟ بل يمتد إلى ما هو أصدق كشفًا:

ما الذي اخترته بعد أن ظهر، وأي طريق تبنيه بهذا الاختيار؟

ومن هذا الميزان العام ننتقل إلى أول تطبيقاته: ماذا يبقى من إيمان الإنسان حين لا تحمله البيئة، ولا تدفعه العادة، ويصبح عليه أن يختار الطريق بنفسه؟

الوحدة الحادية عشرة: حين لا تحملك العادة

كيف تميز الإيمان المختار من الاكتفاء بالعادة الدينية؟

لم يكن يتوقع أن يؤثر انتقاله من بيت أسرته في عبادته. فقد نشأ على الصلاة، واعتاد سماع القرآن، وعاش في منزل تضبط فيه المواقيت كثيرًا من تفاصيل اليوم. فلما انتقل إلى مدينة أخرى، لم يمنعه أحد من الطاعة، ولم يدعه أحد صراحة إلى تركها، غير أن الأصوات التي كانت تحمل يومه سكتت: لا من يوقظه للفجر، ولا حركة في البيت تذكره بالصلاة، ولا مصحف موضوع حيث تقع عليه عينه.

حافظ في البداية على أكثر ما كان يفعله، ثم بدأ النظام يتفكك في هدوء. تأخرت صلاة، وانقطع الورد، ومرت أيام لم ينتبه فيها إلى ما فقده إلا بعد زمن. لم يتخذ قرارًا بترك عبادته، لكنه اكتشف أن جانبًا من انتظامه كان محمولًا بطريق ممهّد لم يكن هو الذي بناه كله.

هذا الانكشاف لا يبطل عبادته الماضية، ولا يثبت أن إيمانه كان مجرد تقليد خالٍ من القصد. فقد يجتمع صدق القلب مع شدة الانتفاع ببيئة صالحة، ويكون انتظام الطاعة ثمرة لإيمان صاحبه ولأسباب أحاطه الله بها معًا. لكن تغير الحال أظهر سؤالًا لم يكن مضطرًّا إلى مواجهته من قبل: ماذا يبقى من الطاعة حين تتوقف الحياة من حولك عن تذكيرك بها؟

الميزان الحاكم لهذا السؤال هو صلة العبادة بالله؛ فهي قد تُتعلَّم في البيت، وتنتظم بالصحبة، وتحفظها العادة، لكنها لا تستمد معناها الأخير من شيء من ذلك. قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162-163].

فالصلاة والنسك وسائر الحياة لله وبأمره. وقد يدل الوالدان على الطريق، وتفتح الصحبة أبوابه، ويعين النظام على الثبات فيه، ثم يبقى على العبد أن يعرف لمن يصلي، وبأمر من يطيع، وإلى من يعود إذا غابت الأسباب التي كانت تقوده.

حين تتوقف البيئة عن حملك

تمنح البيئة الصالحة الإنسان من العون ما قد لا يدرك قدره إلا بعد فقده. يسمع الأذان، ويرى من يقوم للصلاة، ويجد الحلال هو الطريق المعتاد، وتحجزه نظرة من حوله عن أبواب من الشر. وهذه كلها من نعم الله؛ تحفظ القلب، وتقلل دواعي الغفلة، وتجعل كثيرًا من الطاعات أقرب إلى النفس.

وقد يعيش المرء داخل هذه الحماية زمنًا طويلًا، فيحسب أن حاله كلها ثمرة قوة مستقرة فيه، مع أن جانبًا منها أثر لأسباب أكرمه الله بها. فإذا تغير المكان، أو تبدل وقت العمل، أو غابت الصحبة، أو أثقلت المسؤوليات الجديدة يومه، انكشف مقدار ما كانت البيئة تؤديه عنه، وظهر ما يحتاج أن يبنيه بنفسه عن معرفة وقصد.

تأثر الإنسان بما حوله من طبيعته، وليس نقصًا أن يحتاج إلى من يذكره ويعينه. يبدأ الخلل حين تزول الأسباب فيزول معها معنى الطاعة، وكأن الأمر الذي كان يعبد الله به انتهى بانتهاء المكان أو الجماعة أو النظام الذي اعتاده.

وقد عرض القرآن صورة بالغة الخطر لمن ربط عبادته ببقاء ما يلائم نفسه فقال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: 11].

تصف الآية عبادة يقف صاحبها على طرفها؛ يطمئن ما دامت الحال موافقة لما يريد، فإذا أصابته الفتنة انقلب عن الدين. ولا تحمل هذه الصورة على مسلم فتر بعد سفر أو انتقال، فبين الفتور والانقلاب فرق عظيم. لكنها تنبه إلى أصل يخشى على كل قلب: أن يربط طاعته بشرط خارجي، حتى تضطرب صلته بالله كلما تغير ذلك الشرط.

لم يكن الشاب الذي انتقل عن أسرته قريبًا من حال الانقلاب الذي تصفه الآية، لكنه رأى في ضعف برنامجه إنذارًا نافعًا. لقد اكتشف أن بعض ما كان يفعله يحتاج إلى أن ينتقل من الاستجابة التلقائية لحركة البيت إلى استجابة يستحضر فيها أمر الله، ويبني لها أسبابًا تناسب حياته الجديدة.

العادة خادمة للعبادة

العادة الدينية ليست خصمًا للإيمان، واستقرار الطاعة في حياة الإنسان من علامات التوفيق. فمن رحمة الله أن تصبح الصلاة جزءًا ثابتًا من اليوم، وأن يألف اللسان الذكر، وأن يسهل ترك الحرام بعد طول مجاهدة. ولو احتاج الإنسان إلى اندفاع وجداني جديد عند كل عبادة لتعطلت أعمال كثيرة بتقلب النفس.

قال النبي ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» رواه البخاري (6464)، ومسلم (783). فالمداومة محبوبة، والعمل القليل المستقر خير من اندفاع كثير ينطفئ سريعًا. والعادة الصالحة تحفظ الطاعة في أوقات الفتور، وتقلل مساحة التردد، وتجعل الخير أقرب إلى صاحبه كلما جاء وقته.

موضع الخلل أن تنفصل العادة عن أصلها، فيؤدى العمل لأن الساعة دقت، أو لأن الآخرين قاموا، أو لأن هذه هي الصورة المألوفة منذ الصغر، من غير رجوع كافٍ إلى معنى العبودية. وقد يبقى أصل الإيمان مع هذا الضعف، لكن الطاعة تصبح أشد تعرضًا للاضطراب؛ لأنها استمدت حركتها من النظام المحيط أكثر مما استمدتها من معرفة العبد بربه واستجابته لأمره.

ولا يلزم أن يعيش المؤمن في حضور وجداني كامل عند كل حركة؛ فقد يصلي وهو يجاهد شرود قلبه، ويقرأ القرآن في يوم لا يجد فيه انشراحًا، وتكون طاعته مع ذلك صادقة. المطلوب أن يبقى أصل المعنى حيًّا، يوقظه حين يغفل، ويرده حين ينقطع، ويذكره بأن الطاعة عهد لا ينتهي بانتهاء الشعور أو تغير المكان.

فالعادة النافعة طريق ممهّد ييسر الوصول، لكنها لا تحدد وحدها الوجهة. قد يسير الإنسان فيه زمنًا لأنه وجد من حوله يسيرون، ثم تأتي مرحلة يحتاج فيها إلى أن يعرف أين يمضي ولماذا. عندئذ لا يهدم الطريق الذي ورثه، بل يملكه على وجه أعمق: يعرف وجهته، ويختار مواصلة السير فيه، ويصل ما اعتاده بما أمر الله به.

من الموروث إلى القصد

النشأة على الإسلام من أعظم المنن. يتعلم الطفل الصلاة من والديه، ويسمع اسم الله قبل أن يدرك كثيرًا من معانيه، ويعرف القرآن من أصوات أهله ومسجده. ولم يختر لنفسه هذه البداية، وإنما اختارها الله له، وأجرى إليه الهداية من أبواب حُرمها خلق كثيرون.

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: 17]. فالاهتداء إلى الإيمان منة من الله، لا إنجازًا يتعالى به صاحبه. ومن شكر هذه النعمة أن يتلقاها المرء بعلم ووعي، وألّا يكتفي بحفظ صورتها الخارجية.

ومع النضج تتسع المسؤولية؛ فيحتاج الإنسان أن يعرف معنى ما يشهد به، وحقيقة من يعبد، ولماذا يصلي ويصوم، وعلى أي خبر يبني خوفه ورجاءه. وهكذا يتحول الدين الذي وجده في بيته إلى عهد يعرف قدره ويحمله، من غير أن يتنكر للبيت الذي علّمه، أو يتوهم أن صدق إيمانه مشروط بأن يبدأ رحلته من الشك والضياع.

ولا يقع هذا التحول في لحظة واحدة، بل ينمو كلما قرأ الإنسان القرآن طالبًا هدايته، وفهم معنى عبادة يؤديها، وسأل حين يجهل، ورد ما ورثه وما استحدثه إلى حكم الشرع. وقد يزداد تمسكًا بعادة نشأ عليها حين يعرف موافقتها للوحي، وقد يترك ما ألفه إذا ظهر له أنه عرف اجتماعي لا عبادة شرعية.

في الحالتين يصبح الوحي هو الميزان. فلا يقبل المرء كل موروث لمجرد قدمه، ولا يرفضه لمجرد أنه موروث، وإنما يسأل: ماذا أمر الله؟ وماذا جاء عن رسوله ﷺ؟ وعندها ينتقل من تقليد الصورة إلى بصيرة تحفظ الخير وتصحح ما خالطه.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: 17]. يستجيب العبد لما بلغه من الهدى، ثم يزيده الله هداية وتوفيقًا. فالإيمان الذي يعيه صاحبه ويختاره ليس صناعة مستقلة عن فضل الله، بل ثمرة له واستجابة لما منّ به.

ولهذا يبقى المؤمن مفتقرًا إلى تثبيت ربه مهما عرف واختار. يقول مع الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8]. يعرف نعمة الهداية، ويخاف زوالها، ويأخذ بأسبابها من غير غرور بما عنده.

ما الذي يبقى بعد تغير الحال؟

حين تتغير البيئة، لا يقاس حال الإنسان بأيام الارتباك الأولى؛ فقد يختل نظامه، ويحتاج إلى وقت حتى يعيد ترتيب حياته. المعتبر ما يبقى في قلبه، وإلى أي اتجاه تدفعه معرفته بما فقد.

من القرائن النافعة أن يشعر بانقطاع العبادة بوصفه فقدًا حقيقيًّا، لا مجرد خلل في الصورة المعتادة. قد يتأخر في الرجوع، لكنه لا يطمئن إلى البعد، وتظل الصلاة الفائتة أو التلاوة المهجورة تفتحان في قلبه سؤالًا يطالبه بالعودة. وهذا الشعور لا يغني عن العمل، لكنه أصل يمكن البناء عليه.

ويظهر صدق الاتجاه في القدرة على إعادة العبادة في صورة تناسب الواقع الجديد. فمن عرف مقصد العمل لم يربطه بطريقة واحدة؛ فإذا تغير جدول يومه نقل ورده، وإذا تبدلت مسؤولياته صنع للطاعة موضعًا جديدًا، وإذا ضعفت البيئة التمس أسبابًا تعينه. قد تقل الكمية، لكن الصلة تبقى، ويستمر البحث عن سبيل يحفظها.

ويظهر كذلك عند اصطدام البيئة الجديدة بأمر الله. قد يخاف الإنسان أو يتردد أو يقع في تقصير، لكنه لا يعيد تعريف الحلال والحرام حتى يوافق من حوله. يبقى حكم الشرع مرجعه الذي يقيس به نفسه، ويرى الانحراف عنه ضعفًا يحتاج إلى توبة، لا تطورًا يطالبه بالتخلي عن دينه.

أما إذا غابت الطاعة بزوال أسبابها، ثم لم ينشأ في القلب طلب جاد لإعادتها، فقد كشف الحال اعتمادًا زائدًا على البيئة. ولا يدعو هذا الاكتشاف إلى إبطال كل ما مضى، وإنما يحدد موضع البناء: معرفة أعمق، وقصد أوضح، وأسباب يشارك الإنسان في اختيارها وترتيبها.

وهذا الميزان لمحاسبة النفس، لا للحكم على الناس. فقد يتغير شخص بعد سفر أو انتقال، ويخفى عليك ما يمر به من ضعف أو صراع أو رجوع. أما قلبك فأولى بالسؤال: ماذا كان يحملني؟ وماذا بقي حين تغير؟ وما الذي يلزمني بناؤه الآن؟

ابْنِ الطريق من جديد

أدرك الشاب أن الحنين إلى بيته لن يعيد نظامه القديم. فأعاد وصل العبادة بمعناها، وضبط مواقيتها، وقرب ما يذكره، واختار صحبة تعينه، وربط تلاوته بوقت ثابت.

ويختلف البناء باختلاف الحال: يتغير وقت العمل، أو تتسع مسؤوليات الأسرة، أو يفقد الإنسان رفيقًا كان يعينه. والمعتبر أن يعرف ما تغير، ثم يرتب أسبابه من غير انتظار عودة الظروف السابقة.

والبداية الأرسخ ما أمكن دوامه؛ فالبرنامج المرهق قد ينطفئ سريعًا، أما العمل الموافق للطاقة فيعيد تشكيل اليوم تدريجيًّا.

ومن فقه الإنسان بضعفه أن يلتمس البيئة التي تحفظه. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 119]. فالصحبة الصالحة، والمسجد، والبيت المعين، والعلم، والنظام المحكم أسباب للثبات، والاستعانة بها من صدق القصد لا من نقصه.

وإذا تعثر عاد من أقرب باب؛ فالمقصود بناء طريق يعرف وجهته، ويصلح ما اختل كلما تغيرت الظروف أو ضعفت الأسباب.

بعد أشهر لم تصبح حياته نسخة من حياته القديمة، لكنه تعلم أن النعمة التي حملته في بدايته كانت تدله على رب لا يغيب بغياب المكان. فشكر الطريق الأول، وبدأ يتحمل نصيبه من مواصلة السير.

حين يغيب ما كان يحملك، لا تهدم قيمة ما مضى؛ ابْنِ طريقًا جديدًا تعرف أنه يقودك إلى الله.

وإذا ثبت العمل مع تغير البيئة، بقي سؤال أدق: لمن يكون هذا العمل؟

الوحدة الثانية عشرة: لمن تعمل حين لا يراك أحد؟

كيف تميز الإخلاص من حظوظ النفس؟

كان يعمل منذ أشهر في مشروع نافع، ويبذل فيه وقتًا لا يراه أكثر الناس. ولما اقترب إنجازه، اقترح المسؤول أن ينشر باسم الفريق من غير إبراز الأفراد. وافق، ثم شعر أن شيئًا من حماسه قد انطفأ. لم تتغير فائدة العمل، ولم يذهب ما بذله، لكن الاسم الذي توقع أن يقترن بالإنجاز لم يعد ظاهرًا.

أقلقه ما وجده في نفسه. أكان يعمل ليعرفه الناس؟ وهل يكشف فتوره أن العمل كله فاسد؟ أم أن محبة التقدير شعور طبيعي لا أثر له؟ وبين التبرئة الكاملة والإدانة الشاملة يحتاج القلب إلى ميزان؛ فقد يكون أصل العمل لله، ثم تتسلل النفس تطلب نصيبها، وقد يفرح العبد بالثناء من غير أن يكون هو الذي حمله على البداية.

ولا يلزم من هذا الموقف أن تكون نسبة العمل إلى صاحبه مذمومة؛ فقد يكون ذكر الاسم ضرورة للتوثيق، أو حفظًا لحق مهني، أو تعريفًا بمن يتحمل المسؤولية. السؤال هنا ليس عن مجرد ظهور الاسم، وإنما عما يصنعه وجوده أو غيابه في قلب العامل: هل بقي الخير محبوبًا لأنه خير، أم فقد قيمته حين لم يعد شاهدًا على مكانته؟

الوجهة التي تعطي العمل قيمته

الإخلاص أن يقصد العبد بعبادته وجه الله، مستجيبًا لأمره، راجيًا ثوابه، وألّا يجعل القربة وسيلة لتعظيم نفسه في قلوب الخلق. قال تعالى:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5].

فإخلاص الدين لله ليس منزلة تجميلية تضاف إلى العبادة بعد اكتمالها، بل هو من حقيقة ما أمر الله به. وقد جمع سبحانه بين صحة الطريق وصحة القصد فقال:

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: 110].

فالعمل الصالح يوافق ما شرعه الله، والقصد المخلص يتوجه به إليه. لا تكفي نية حسنة تسلك طريقًا لم يأذن به، كما لا تكفي صورة صحيحة يتخذها صاحبها جسرًا إلى منزلة عند الناس.

قال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» رواه البخاري (1)، ومسلم (1907).

ثم ذكر الهجرة، فبيّن أن رجلين قد يسلكان الطريق نفسه، بينما تختلف حقيقة عمل كل منهما باختلاف ما حمله عليه. فظاهر الفعل لا يمنح وحده حكمًا كاملًا على قيمته عند الله.

ولا يملك الإنسان دائمًا أن يحيط بكل ما يتحرك في قلبه؛ فقد تختلط الدوافع، ويظهر بعضها بعد بدء العمل. لكن حديث النيات يرده إلى الأصل الذي ينبغي أن يحكمه: ما الذي أريده بهذا الفعل؟ وإذا تزاحمت المقاصد، فأيها يقود القرار ويحدد الاستمرار؟

ما لا يعد رياءً بمجرده

قد يحب الإنسان أن يشكر على إحسانه، ويفرح حين يرى أثر عمله، ويتألم إذا جحد الناس جهده. هذه مشاعر بشرية لا تجعل القربة رياءً بمجرد وجودها. موضع الخطر أن يتحول رضا الناس من أمر تابع إلى باعث أصلي، أو يصبح الثناء شرطًا للاستمرار.

سئل النبي ﷺ عن الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه، فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن» رواه مسلم (2642). فالثناء الذي يأتي من غير طلب، بعد عمل قصد به صاحبه وجه الله، قد يكون بشرى يفرح بها، ولا يلزمه أن يكره كل مدح حتى يثبت إخلاصه.

ويظهر الفرق بالنظر إلى أثر الثناء: هل حملك إلى حمد الله والخوف من التقصير، أم صار غذاء لا تستطيع العمل من دونه؟ وهل سررت بقبول الخير، أم اتخذت كلام الناس شهادة نهائية بقيمتك؟ الفرح الأول لا يناقض الإخلاص، أما الثاني فقد يفتح باب العجب والتعلق بالخلق.

ويجتمع أحيانًا مع العمل الصالح نفع دنيوي مباح تابع، كأجر يعين صاحبه على التفرغ، أو خبرة يكتسبها في خدمة نافعة، أو حق معنوي يحفظ جهده. وجود هذا النفع لا يسمى رياءً؛ فالرياء متعلق بطلب المنزلة في قلوب الناس عن طريق العبادة. لكن القلب يحتاج إلى سؤال صادق: هل بقي رضا الله ونفع الخير أصلًا، أم صارت القربة مجرد طريق إلى المكسب؟

وتختلف الأحكام التفصيلية حين يغلب المقصد الدنيوي أو يشارك أصل العبادة باختلاف نوع العمل والنية التي أنشأته. والمقصود هنا ليس تفصيل تلك الأحكام، وإنما منع خطأين: أن يسمى كل نفع دنيوي رياءً، وأن يحول الإنسان العبادة إلى وسيلة محضة للدنيا ثم يطمئن إلى مجرد بقاء صورتها.

ليس كل ظاهر رياءً ولا كل خفي إخلاصًا

تقع طاعات كثيرة في المجال العام: التعليم، والدعوة، والإمامة، وإغاثة المحتاج، وإدارة المشروعات النافعة. وقد يحقق إظهار العمل مصلحة شرعية، كتوجيه الناس إلى الخير، أو توثيق الأمانة، أو جمع الدعم لمشروع يحتاج إليه المجتمع. فلا تكون رؤية الناس دليلًا كافيًا على فساد القصد.

قال تعالى في الصدقة:

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 271].

أثنى على الإبداء، وذكر مزية الإخفاء؛ فدل على أن لكل حال موضعها، وأن المعيار يتجاوز مجرد الظهور إلى المصلحة والقصد وأمن الفتنة.

وقد يخفي الإنسان عمله ثم يطلب بإخفائه منزلة المخلصين، أو يحدث المقربين بسر لا يريد أن يبقى سرًّا، وإنما يريد أن يعرف عنه أنه صاحب أعمال خفية. فالسر يعين على الإخلاص، لكنه لا يصنعه وحده، كما أن العلن قد يكون موضع عبودية صادقة إذا احتاج إليه الحق.

ومع ذلك تبقى الأعمال الخفية مدرسة لا يستغني عنها القلب؛ لأنها تقلل دواعي الملاحظة البشرية، وتعود العبد أن يكتفي بعلم الله. وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه» رواه البخاري (660)، ومسلم (1031).

من النافع أن يكون للإنسان نصيب من عبادة لا يعلم بها أحد، لا ليقيم لنفسه صورة سرية أجمل، بل ليختبر قلبه في موضع لا ينتظر فيه جزاءً بشريًّا، ويغذي صلته بمن يعلم السر وأخفى.

كيف تتسلل حظوظ النفس؟

لا يأتي الرياء دائمًا في صورة قرار صريح بأن يعمل الإنسان ليمدحه الناس. قد يدخل من أبواب أدق: ينشط إذا ظهر اسمه، ويثقل عليه العمل إذا صار واحدًا من فريق، ويستكثر ما قدم حين لا يشكر، ويغضب إذا نُسب الفضل إلى غيره، مع أن الخير نفسه قد تم.

ومن أدق علاماته أن يصعب على الإنسان أن يفرح بتحقق الحق على يد شخص آخر. فإذا جاء من هو أقدر على العمل، شعر أن نجاح المشروع صار تهديدًا له، أو تمنى في خفاء أن يتعثر من بعده ليبقى اسمه هو الأصل. عندها يتنافس في القلب مقصدان: أن ينجح الخير، وأن تبقى المنزلة الشخصية.

وقد يطلب الإنسان من المستفيدين ثمنًا لم يعلموا أنهم ملتزمون به. يعلمهم أو يخدمهم أو ينفق عليهم، ثم ينتظر طاعة خاصة، أو امتنانًا دائمًا، أو تقديمًا في كل مجلس. فإذا لم يجد ذلك رأى إحسانه ضائعًا، كأن أجره كان مودعًا في قلوب الناس.

وقد وصف القرآن وجهة أهل الإخلاص في الإحسان فقال:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: 9].

لا تعني الآية ذم الشكر أو إسقاط حقوق المحسنين، وإنما تكشف قلبًا لم يجعل امتنان الناس عوضًا عن عمله، لأن المقصود الأول عنده وجه الله.

وحذر النبي ﷺ من طلب السمعة فقال: «من سمّع سمّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به» رواه البخاري (6499)، ومسلم (2987). فالذي يتخذ القربة طريقًا إلى تعظيم نفسه عند الناس يعامل بنقيض قصده، ويظهر الله حقيقة ما أخفاه.

وجاء في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» رواه مسلم (2985). وهذا وعيد في العمل الذي يدخل غير الله في أصل قصده التعبدي. أما الخاطر الطارئ أو الفرح الطبيعي الذي يجاهده صاحبه، فلا يسوى بهذه الحال.

ومع خطر الرياء، لا ينبغي أن تتحول محاسبة النية إلى تفتيش يشل العمل. فالنية لا تصح بكثرة التحديق فيها، وإنما بتوجيه القلب إلى الله، ثم دفع ما يعرض له من طلب الثناء أو ملاحظة الناس. فإذا ظهر حظ النفس، رده العبد واستمر في الخير؛ ولا يجعل رؤية الناس سببًا للعمل أو سببًا لتركه.

والسؤال النافع ليس: هل بلغت الإخلاص الكامل؟ وإنما: هل أمضي في الخير إذا لم يذكر اسمي؟ وهل أفرح إذا تحقق المقصود على يد غيري؟ وهل أقلل الحديث عن عملي؟ وهل لي نصيب من طاعة لا يعلم بها أحد؟ فالمحاسبة الصحيحة تنشئ قرارًا أصلح، ولا تحبس صاحبها في مراقبة لا تنتهي.

موازين تكشف الاتجاه

يظهر جانب من الإخلاص في الخلوة: هل لك عبادة تستمر حين لا يوجد جمهور ولا موعد جماعي؟ لا يلزم أن يساوي عمل السر عمل العلن في المقدار، لكن وجود أصل خفي يدل على أن الصلة بالله لا تقوم كلها على المشاهدة.

ويظهر جانب آخر حين يغيب الاعتراف بالفضل. إذا نُشر الإنجاز باسم الفريق، أو شكر الناس غيرك، أو مر عملك بلا التفات، فقد تتألم النفس، لكن هل يبقى فرحك بتمام الخير؟ الألم الطبيعي لا يحكم وحده؛ الذي يكشف الاتجاه هو القرار الذي يتبعه.

ويُختبر القصد عند زوال وهج البداية. فكثير من الأعمال يحظى أولها بالاهتمام، ثم يتحول إلى خدمة هادئة لا يراها أحد. من علامات صحة الوجهة أن يستمر الإنسان ما دام العمل مشروعًا نافعًا وفي طاقته، لا أن تكون حركته أسيرة التصفيق.

وتكشف النصيحة مقدار تعلق الإنسان بالعمل أو بنفسه. من قصد وجه الله يريد أن يصلح ما يقدم، فيقبل التصحيح ولو تألم أولًا. أما من تعلقت نفسه بالصورة، فيرى الملاحظة هدمًا لمكانته، ويصرف جهده إلى الدفاع بدل الإصلاح.

ولا يكفي موقف واحد للحكم على القلب؛ فقد يضعف العبد في موضع ويجاهد في آخر. المقصود قراءة الاتجاه: هل يزداد فرحه بقبول الله وتحقيق الخير، أم يزداد احتياجه إلى أن يثبت الناس له قيمته؟

كيف تربي الإخلاص؟

ابدأ العمل بقصد واضح ومختصر. صل لأن الله أمرك، وعلّم طلبًا لرضاه ونفع عباده، وأنفق ابتغاء ما عنده. لا تحتاج النية إلى خطاب طويل، وإنما إلى وجهة تعرفها وتستطيع العودة إليها حين تتداخل الدوافع.

وأثناء العمل، لا تنتظر صفاءً كاملًا؛ فقد يجعل الشيطان اشتراط الكمال في النية بابًا إلى ترك الخير. ابدأ مستعينًا بالله، وإذا ظهر حظ النفس فسمّه بصدق، ثم أعد القلب إلى مقصده من غير تهويل ولا تبرير.

واجعل لك عملًا خفيًّا لا تذكره إلا لحاجة، مع الحذر من أن يتحول السر نفسه إلى مصدر عجب. فالغاية ليست امتلاك قصة لا يعرفها الناس، وإنما بناء صلة يكفي فيها علم الله.

وحين يحتاج العمل إلى الظهور، أظهر القدر الذي تقتضيه المصلحة. قد يلزم تعريف الناس بالمشروع، أو بيان المسؤوليات، أو حفظ الحقوق، ولا يناقض ذلك الإخلاص. يبقى السؤال: لماذا أظهر؟ وما القدر الذي أحتاج إليه؟ وماذا ينتظر قلبي بعد أن يعرف الناس؟

ومن أنفع العلاج أن تعين من يعمل في الميدان نفسه، وتدعو له بالقبول والنجاح. فالنفس التي لا ترى الخير إلا إذا صدر عنها تظل أسيرة لمكانتها، أما من أحب انتصار الحق على يده أو يد غيره فقد اقترب من التحرر من حظها.

وتذكر أن جزاءك عند من لا ينسى ولا يضيع. قال تعالى:

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30].

قد يشكر الناس ثم ينسون، وقد يخطئون في نسبة الفضل، وقد لا يرون شيئًا مما بذلت. شكرهم لطف مشروع، لكنه ليس الخزانة التي أودعت فيها أجرك.

حين لا يبقى إلا نظر الله

عاد صاحب المشروع إلى نفسه، فعرف أن فتور حماسه لم يكن حكمًا ببطلان كل ما مضى، لكنه كشف نصيبًا للنفس يحتاج إلى مجاهدة. راجع أيضًا حقه في نسبة العمل، فوجد أن غياب اسمه لا يضيع حقًّا لازمًا ولا يضر المشروع، وإنما يؤلم الصورة التي كان ينتظرها.

أكمل عمله، ولم يدع أن قلبه صار خالصًا من كل رغبة في التقدير. صار يراقب أثر تلك الرغبة في قراراته: هل تمنعه من التعاون؟ هل تدفعه إلى تذكير الناس بفضله؟ هل تفسد فرحه إذا نجح غيره؟ وكلما وجدها تحكمه، ردها إلى موضعها.

ومع الأيام صار فرحه باكتمال الخير أكبر من انشغاله بمن نسب إليه، وجعل لنفسه عملًا لا يعرفه فريقه. لم تختف النفس، لكنها لم تعد صاحبة الكلمة الأخيرة.

الإخلاص لا يعني خلو القلب من كل ميل بشري، وإنما أن يبقى وجه الله هو الباعث الأعلى والحاكم عند التزاحم، وأن يجاهد العبد ما ينازعه بدل أن يسلمه زمام العمل.

حين لا يراك أحد، يظهر هل يكفيك علم الله؛ وحين يراك الناس، يظهر هل يبقى علم الله هو الذي يحكمك.

وإذا عرف الإنسان لمن يعمل، بقي أن يميز بين وعد آمن به، ونتيجة تمناها ثم سماها يقينًا.

الوحدة الثالثة عشرة: حين تنتظر ما لم تُوعَد به

كيف تميز اليقين من التمني؟

كان ينتظر جوابًا عن وظيفة بذل لها ما يستطيع. استعد للمقابلة، واستشار من يعرف المجال، ودعا الله طويلًا، ثم بدأت بعض الأمور تبدو مبشرة: أثنى المسؤول على خبرته، وتأخر الرد بدل أن يأتي بالرفض، واتصل به أحد العاملين ليستوضح أمرًا في ملفه. جمع هذه الإشارات وقال لمن حوله: أنا موقن أن الوظيفة ستكون لي.

لم يكن يرجوها فقط، بل بنى في داخله صورة شبه مكتملة لما سيقع. رأى القبول قريبًا، وبدأ يرتب حياته عليه، وفسر ما مر به من تيسير بوصفه دليلًا على أن الله اختار له هذه النتيجة. وحين جاء الاعتذار، لم يكن ألمه بسبب فقد الوظيفة وحدها؛ فقد شعر أن شيئًا من ثقته قد اهتز، وسأل في اضطراب: كيف دعوت وأحسنت الظن، ثم وقع خلاف ما كنت موقنًا به؟

هنا يظهر الفرق بين الثقة بالله والثقة بالنتيجة التي اختارها الإنسان لنفسه. المؤمن يوقن بأن الله صادق الوعد، محيط العلم، كامل الحكمة، يسمع الدعاء ويقدر على الإجابة. أما الجزم بأن الله سيعطي عبدًا أمرًا بعينه، في وقت بعينه، وعلى صورة بعينها، فيحتاج إلى خبر من الوحي، لا إلى شدة الرغبة ولا قوة الشعور.

ولا يراد بهذا التفريق إضعاف اليقين؛ فاليقين من أجلّ أعمال القلوب، وبه يثبت المؤمن على ما أخبر الله به وإن غابت عنه دلائله المحسوسة. إنما يراد حمايته من أن يحمل ما ليس منه، فيصبح اسمًا للتوقعات النفسية، ثم تُجعل مخالفة التوقع طعنًا في وعد لم يصدر أصلًا.

اليقين يبدأ من خبر الله

مصدر اليقين هو ما أخبر الله به، وما ثبت عن رسوله ﷺ. قال تعالى:

> ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122].

وقال سبحانه:

> ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 9].

فالمؤمن يوقن بالبعث والحساب، وبأن الجنة حق والنار حق، وأن الله لا يظلم مثقال ذرة، ولا يضيع أجر المحسنين. ويؤمن بكل وعد جاء في الوحي على الوجه الذي أراده الله، مستجمعًا شروطه، سالمًا من الفهم الذي يخرجه عن دلالته.

يكون الوعد ثابتًا أحيانًا، بينما يخطئ الإنسان في تعيين صورته. يقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2-3]، فيوقن بأن وعد الله للمتقي حق، لكنه لا يملك أن يحدد لنفسه شكل المخرج، ولا الباب الذي يأتي منه الرزق، ولا الوقت الذي يظهر فيه.

ويعلم أن العاقبة للمتقين، ثم يجعل نجاح مشروعه العاجل هو العاقبة المقصودة. ويؤمن بأن مع العسر يسرًا، ثم يحدد لليسر طريقًا واحدًا وموعدًا قريبًا. النص حق لا يتخلف، أما تنزيله على تفصيل معين في حياة الفرد فقد يكون فهمًا راجحًا، أو احتمالًا، أو مجرد رغبة لبست ثوب الوعد.

ومن هنا يحفظ المؤمن حدًّا فاصلًا بين قولين: **الله وعد بهذا المعنى**، و**أنا أتوقع أن يتحقق في هذه الصورة**. الأول يقين إذا صح فهم النص، والثاني اجتهاد بشري يقبل الصواب والخطأ.

حين تتحول الرغبة إلى خبر

الرغبة في الشفاء أو الرزق أو الزواج أو النجاح ليست مذمومة، والرجاء في فضل الله عبادة. يبدأ التمني المضلل حين تتحول الأمنية من مطلوب يرجوه العبد إلى خبر يجزم بأنه سيقع، ثم ينسب هذا الجزم إلى الله من غير دليل.

قال تعالى:

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: 24-25].

ليست قوة الأمنية هي التي ترتب الأقدار، ولا شدة الحاجة تجعل الإنسان عالمًا بما سيختاره الله له. لله الأمر كله، والعبد يسأل ويرجو ويبذل، ثم يقف عند حد ما يعلم.

وربما استند الجزم إلى شعور قوي، أو انشراح في الصدر، أو تيسير في أول الطريق، أو توافقات يراها الإنسان لافتة. هذه الأمور قد تبعث الرجاء، وتعين على اتخاذ قرار بعد النظر والاستشارة، لكنها لا تتحول بمجردها إلى خبر معصوم عن المستقبل.

والرؤيا الصالحة قد تكون من المبشرات؛ فقد قال النبي ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات». قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة» رواه البخاري (6990). لكنها بشارة محتملة الدلالة، وليست مصدرًا لحكم شرعي، ولا تمنح صاحبها حق الجزم بتفصيل غيبي، فقد يخطئ في تعبيرها، أو يحملها على غير وجهها، أو يربطها بما تشتهيه نفسه.

وكذلك ما يسميه الإنسان إلهامًا أو إحساسًا داخليًّا يحتاج إلى وزن. قد يجد في قلبه انشراحًا لقرار، لكن قلبه غير معصوم، والانشراح قد تتداخل فيه الخبرة والرغبة والخوف. فما وافق الشرع وانتظمت أسبابه أمكن الانتفاع به بوصفه قرينة، لا بوصفه وحيًا يخبره بما سيقع.

والاستخارة نفسها لا تعني أن يرى المستخير رؤيا، أو يشعر حتمًا بانشراح، أو يضمن أن يتم الأمر الذي استخار فيه. علّم النبي ﷺ أصحابه أن يقولوا في دعائها: «فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب» رواه البخاري (1166). فحقيقة الاستخارة إظهار العجز عن معرفة العواقب، وطلب اختيار الله، لا اتخاذها طريقًا إلى ادعاء الاطلاع على الغيب.

الدعاء وحسن الظن لا يحددان صورة العطاء

أمر الله عباده بالدعاء، ووعدهم بالإجابة فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186].

يدعو المؤمن موقنًا بأن الله يسمعه، ويعلم حاجته، ويقدر على قضائها. يسأل الشفاء والولد والرزق ورفع البلاء، ولا يحتاج إلى تخفيف طلبه حتى يثبت رضاه. لكن يقينه يتعلق بالله ووعده بالإجابة، لا بأن صورة واحدة هي وحدها الإجابة المقبولة.

قال النبي ﷺ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها». قالوا: إذًا نكثر. قال: «الله أكثر». رواه أحمد (11133)، وقال محققو المسند: إسناده جيد.

فقد يعطى الداعي عين ما طلب، وقد يدخر له من الثواب ما هو أبقى، وقد يصرف عنه من السوء ما لا يعلمه. ولا يمنع هذا أن يلح في حاجته ويرجو تعجيلها؛ وإنما يجمع بين قوة السؤال وصدق التفويض: يا رب، هذا ما أحبه وأحتاج إليه، وأنت أعلم بعاقبته، فأعطنيه إن كان خيرًا، واختر لي برحمتك ما لا أحسن اختياره لنفسي.

ومن آفات التمني أن يحدد الإنسان موعدًا لم يحدده الله، ثم يعد مرور الوقت دليلًا على الرد. قال النبي ﷺ: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يُستجب لي». رواه البخاري (6340)، ومسلم (2735). فالمستعجل لا يضيق بالزمن وحده، بل يضيّق مفهوم الإجابة حتى يحصرها في الموعد والصورة اللذين وضعهما.

وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي». رواه البخاري (7405)، ومسلم (2675). وحسن الظن بالله أن يرجو العبد رحمته ومغفرته وإجابته، ويعلم أنه حكيم لا يظلم، كريم لا تنفد خزائنه. أما أن يعتقد أن الله لن يحسن إليه إلا إذا أعطاه ما اختار، فهذا حسن ظن باختياره هو، لا بربه.

قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

لا تطلب الآية من العبد أن ينكر ألمه، أو أن يجزم بأن وجه الخير سيظهر له في الدنيا؛ وإنما تذكره بأن محبته وكراهته لا تحيطان بالعواقب. وقد يرجو تعويضًا دنيويًّا أكبر، وهذا رجاء حسن ما دام رجاءً، لكنه لا يصير وعدًا ثابتًا. الثابت أن الله لا يضيع الإحسان، أما صورة العوض ووقته فليسا مما يملك العبد تعيينه.

اليقين لا يمنح علمًا بالغيب

اليقين الصحيح لا يجعل صاحبه قارئًا لما سيقع، وإنما يجعله ثابتًا على ما أخبر الله به مهما تغيرت الوقائع. يعمل بالأسباب المتاحة، ويقدر الاحتمالات، ثم يعلم أن ظنه بالنتيجة يظل ظنًّا، ولو ترجح عنده.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

فالعزم فعل واختيار، والتوكل اعتماد على الله، ولا يتضمن أحدهما ادعاء معرفة ما سينتهي إليه الأمر. قد يرجح الإنسان النجاح ويستعد له، ويضع في الوقت نفسه احتمالًا آخر؛ فلا تكون الخطة البديلة سوء ظن، ولا تكون مراجعة الأسباب ضعفًا في اليقين.

كما أن التيسير لا يثبت وحده رضا الله عن كل تفصيل، والتعسر لا يدل وحده على أن الطريق شر. كلاهما واقع يقرأه الإنسان مع الشرع والمصلحة والخبرة، من غير أن يحول كل حدث إلى رسالة قاطعة من الغيب.

موازين تحفظ اليقين

ابدأ بالسؤال عن مصدر الجزم. إذا كان المعنى ثابتًا بآية محكمة أو حديث صحيح يدل عليه، فهو مما يبنى عليه اليقين. أما الشعور، والرؤيا، والانشراح، والتيسير الأولي، وكلام المتفائلين، فقد تفتح باب الرجاء، لكنها لا ترتقي وحدها إلى منزلة الوعد الإلهي.

ثم افصل بين أصل الوعد وتطبيقه الخاص. توقن بأن الله يجيب الدعاء، ولا تعلم أي صورة من الإجابة اختار. وتؤمن بأنه يرزق المتقي، ولا تعين باب الرزق ولا موعده. وتعلم أن العاقبة للتقوى، من غير أن تجعل كل نجاح عاجل دليلًا على صلاح صاحبه، أو كل تعثر نفيًا للعاقبة.

واضبط لغة قلبك ولسانك. بين قولك: «أرجو أن يقع»، وقولك: «أعلم أن الله سيفعل» مسافة كبيرة. الأول رجاء قد يقوى بالأسباب، والثاني خبر عن فعل الله يحتاج إلى دليل. والألفاظ المتكررة تبني التصورات، وقد يصدق الإنسان بمرور الوقت جزمًا صنعه بلسانه.

وانظر إلى أثر توقعك. اليقين يدفع إلى الدعاء والعمل، ويترك القلب مستعدًّا لحكم الله. أما التمني فيربط الطمأنينة بصورة واحدة، ويجعل الإنسان يتجاهل ما يخالفها، ثم يرى النصيحة تشاؤمًا، والاحتمال الآخر ضعفًا في الثقة.

ويظهر الميزان الأوضح حين تأتي النتيجة على غير ما رجوت. الحزن لا ينافي الإيمان، والصدمة الأولى لا تكشف وحدها اتجاه القلب. لكن هل تقول بعد أن تهدأ: أخطأت في توقعي، ولم يخلف الله وعده؟ أم ترى أن الله خذلك لأنه لم يفعل ما نسبت إليه؟ هنا يتبين موضع اعتمادك.

حين تنكشف الأمنية

حين جاء الاعتذار عن الوظيفة، أدرك صاحبها أن ثلاثة أمور اختلطت عليه: حاجته الحقيقية إلى العمل، ورجاؤه المشروع أن ييسره الله، وجزمه بأن القبول قد صار وعدًا. لم يكن عليه أن يتوب من حاجته أو رجائه، وإنما أن يصحح ما أضافه إلى علمه من غير بينة.

ولم يكن التصحيح مطالبة له بأن يتظاهر بأن الرفض لا يؤلمه، أو أن يجزم بأن ما وقع خير ظاهر يستطيع فهمه الآن. كان يكفي أن يقول: أنا حزين لما فات، ولا أعلم جميع العواقب، لكن الله لم يعدني بهذه الوظيفة، ولم يخلف لي وعدًا.

راجع أداءه، وأصلح ما استطاع من أسباب، وبدأ يبحث عن فرص أخرى. ظل يدعو بالرزق، لكنه لم يعد يحصره في باب واحد، ولم يعد يسمي كل إشارة وعدًا. وصار يقينه أرسخ؛ لأنه انتقل من الثقة بما توقعه إلى الثقة بمن يعلم ما لا يعلم.

اليقين لا يقول: سيقع ما اخترت؛ بل يقول: وعد الله حق، وعلمه كامل، واختياره لا يخرج عن حكمته، وإن خفي عنك وجهها.

وحين يصح هذا الميزان، يبقى سؤال آخر: كيف يمضي العبد إذا طال الطريق؟

الوحدة الرابعة عشرة: الصبر الذي يتحرك

كيف تميز الثبات من الجمود والاستسلام؟

منذ عامين وهو يعمل في مشروع نافع بدأه بحماسة كبيرة. كانت الفكرة جيدة، والحاجة إليها ظاهرة، لكن النتائج أخذت تتراجع، وغادر بعض العاملين، وظهرت أخطاء لم تعد تصلح معها الطريقة الأولى. وكلما اقترح عليه أحد مراجعة الخطة أو تغيير الوسائل، أجاب بأن الطريق الطويل يحتاج إلى الصبر، وأن أصحاب الرسالات لا يتراجعون عند أول عقبة.

ضاعف جهده، وكرر الأسلوب نفسه، وتحمل خسائر كان يمكن تقليلها، ثم صار يسمع كل ملاحظة كأنها دعوة إلى الاستسلام. لم يعد يميز بين الثبات على المقصد والتمسك بوسيلة اعتادها، ولا بين احتمال مشقة الطريق وإهمال الخلل الذي ظهر فيه. كان يظن أنه يحمي المشروع بالصبر، بينما كان يحمي صورته الأولى عنه.

وحين توقف أحد أنفع أجزائه بسبب خطأ تكرر ولم يعالج، واجه السؤال الذي طال تأجيله: هل الصبر أن أستمر في الفعل نفسه مهما انكشفت آثاره، أم أن الصبر قد يطالبني باعتراف مؤلم، وتغيير شاق، وتعلم طريق جديد؟

ولا يخص هذا السؤال أصحاب المشروعات وحدهم. يواجهه طالب طال تعثره، ومريض يتابع علاجًا، ووالد يسعى إلى إصلاح بيته، وعابد يجاهد نفسه، وصاحب حق يزن بين المطالبة والعفو. قد تسمي النفس عجزها صبرًا، كما قد تسمي نفورها من المشقة مراجعة وحكمة. لذلك يحتاج الإنسان إلى ميزان يعرف به ما الذي يثبت عليه، وما الذي يغيره، وما الذي يتركه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 153].

جعل الله الصبر عونًا يستمده المؤمن ليقوم بما كُلّف، ويعبر به ضغط الشهوة والمشقة والمصيبة. فالصبر قوة تحفظ الإنسان في طريق العبودية، وتمنعه من أن تسوقه اللحظة بعيدًا عن أمر الله.

الصبر يبقيك مع أمر الله

يجمع الصبر ثبات النفس على طاعة الله، وكفها عن معصيته، وحفظها عند الأقدار المؤلمة من الاعتراض المحرم. وفي هذه الأحوال جميعًا يوجد ضغط يدفع الإنسان إلى مغادرة موضع التكليف، فيأتي الصبر ليرده إلى ما يرضي الله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200].

تتابعت الأوامر بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى، فدل ذلك على حركة متجددة، ومداومة على الموقع الذي يقتضيه الإيمان. الصابر لا ينتظر زوال المشقة ساكنًا، وإنما يجدد قيامه بما عليه كلما تجدد ما يضعفه.

وقال سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: 132].

فالاصطبار على الصلاة قيام متكرر بها، وحفظ لحدودها، وأمر للأهل، ومقاومة لما يقطعها. الصبر هنا ليس شعورًا ساكنًا، وإنما عبادة تعود كلما عاد التكليف.

ولا تقاس منزلة الصبر بمقدار الألم الذي يحتمله الإنسان وحده؛ فقد يتحمل ألمًا طويلًا في طريق محرم، أو يصر على قرار يضيع به الحقوق، أو يبقى في موضع لم يلزمه الله بالبقاء فيه. قيمة الصبر تستمد من الجهة التي يحفظها: أهي أمر الله، أم قرار النفس الذي تكره الاعتراف بخطئه؟

قال تعالى في خبر يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 90].

جمع الله بين التقوى والصبر؛ فالتقوى تحدد الطريق، والصبر يمنح العبد قوة البقاء فيه. وإذا انفصل الاحتمال عن التقوى، أمكن أن يتحول الإصرار إلى ظلم أو هوى يحمل اسمًا شرعيًّا جميلًا.

والصبر نفسه ليس قوة مستقلة يصنعها الإنسان وحده؛ قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: 127].

فالعبد يتصبر ويجاهد، لكنه يعلم أن تثبيت قلبه وإعانته من الله. وهذا الافتقار يحميه من الإعجاب بقوته، ويمنعه من احتقار من ضعفت طاقتهم أو طال اضطرابهم.

الثبات على الأصل لا على الصورة

قد تكون الغاية صحيحة، بينما تحتاج الطريق المؤدية إليها إلى مراجعة. يثبت الإنسان على طلب العلم ويغير طريقة دراسته، ويحفظ مسؤوليته تجاه أسرته ويعيد توزيع وقته، ويتمسك بخدمة الناس ويوقف برنامجًا لم يعد يحقق نفعًا، ثم ينقل جهده إلى باب أصلح.

تغيير الوسيلة قد يكون من الصبر على الغاية؛ لأن المراجعة تحتاج أحيانًا إلى شجاعة أكبر من التكرار. فالطريق المألوف يعفي النفس من الاعتراف، أما التغيير فيطالبها بأن تتعلم، وتستشير، وتتخلى عن صورة بنتها لنفسها.

ومن علامات الجمود أن يصبح الاستمرار قيمة مستقلة، حتى ينفصل عن المقصد الذي بدأ العمل من أجله. يقول صاحبه: كيف أتوقف بعد كل ما بذلت؟ ويغفل عن سؤال أهم: هل ما أفعله الآن يحقق

الخير الذي بذلت من أجله؟ فالجهد الماضي لا يجعل الوسيلة صالحة إلى الأبد، ولا يلزم الإنسان أن يزيد الخسارة حتى يثبت وفاءه لما سبق.

ومع ذلك ليست كل رغبة في التغيير حكمة. فقد تفتر الحماسة أو تظهر المشقة المعتادة، فيعلن الإنسان أن الطريق لم يعد مناسبًا، مع أن الذي تغير هو استعداده لدفع الكلفة. هنا تكون المراجعة غطاءً للهروب، كما كان الصبر في الصورة الأولى غطاءً للجمود.

يكون الاستمرار أقرب إلى الصبر حين يكون الأصل مشروعًا، وتبقى مصلحته، وتكون المعاناة من مشقة الطريق لا من فساد العمل. ويكون التغيير أقرب إلى الصواب حين تبقى الغاية، بينما تكشف التجربة خلل الوسيلة أو يدل أهل الخبرة على طريق أنفع. أما التوقف فيكون مشروعًا أو واجبًا إذا صار العمل محرمًا، أو أفضى إلى ضرر لا يجوز، أو انتهت الحاجة إليه، أو أمكن تسليم المسؤولية إلى من هو أصلح.

والميزان يجمع أربعة أسئلة: ما حكم الأصل؟ وهل ما زالت مصلحته قائمة؟ وماذا كشفت التجربة عن الوسيلة؟ وما الدافع الحقيقي للقرار: طلب الحق، أم حماية الصورة، أم الهروب من المشقة؟ وحين تختلط الإجابات، تكون المشورة جزءًا من الصدق؛ فالنفس تزين تعلقها في صورة وفاء، وتقدم خوفها بوصفه حكمة.

بين الحرص والتسليم

وقد مرّ هذا الحديث في محور الأحوال بوجه آخر؛ وموضعه هنا بيان الحرص من غير عجز، والتسليم بعد وقوع المقدور من غير تعطيل للمراجعة.

جمع النبي ﷺ بين الحركة والتسليم فقال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» رواه مسلم (2664).

قبل وقوع الأمر يكون الحرص على النافع، والاستعانة بالله، ومقاومة الاستسلام الذي يترك معه الإنسان ما يستطيع. وبعد وقوع ما لا يمكن رده يأتي التسليم، وإغلاق باب الندم الذي يعيد الماضي ولا يصلح المستقبل.

قوله ﷺ: «احرص على ما ينفعك» يوجه إلى النافع، لا إلى مجرد كثرة الحركة. قد يكون النافع استمرارًا، أو تعلمًا، أو طلب مساعدة، أو تغيير طريق ثبت ضعفه. فالحرص متعلق بالمصلحة الصحيحة، لا بالوفاء الأعمى لوسيلة واحدة.

والنهي عن العجز لا يلغي تفاوت الناس في صحتهم وطاقتهم وظروفهم. قد يمرض الإنسان، أو ينهك، أو يحتاج إلى تخفيف وراحة، ولا يكون بذلك واقعًا في العجز المذموم. موضع الخلل أن يترك النافع الممكن، أو يجعل القدر حجة قبل أن يبذل وسعه.

فإذا أخذ بالأسباب ثم وقع ما لم يرد، قال: «قدر الله وما شاء فعل». ويمكنه بعد ذلك أن يراجع خطته ويتعلم من خطئه، من غير أن يتحول التعلم إلى محاكمة لا تنتهي لماضٍ لا يملك تغييره.

الألم لا يعطل السبب المشروع

ظل رجل يتابع علاج مرض مزمن عدة أشهر. كان يلتزم بما يستطيع، ثم يعود في بعض الأيام مرهقًا، يشكو إلى أهله، ويبكي من طول الطريق. بدأ يظن أن حزنه يناقض صبره، وأن طلبه مراجعة العلاج دليل على ضعف رضاه.

غير أن الصبر لا يطالب الإنسان بإنكار ألمه. قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 86].

اجتمع الصبر الجميل مع الحزن، واجتمعت الثقة بالله مع الشكوى إليه. لم ينكر يعقوب ألمه، ولم يحوله إلى اعتراض على ربه، وإنما حمله إلى من يملك كشفه.

فالشكوى إلى الله من صميم الافتقار. وكذلك وصف الألم للطبيب، وطلب مساندة الأهل، وإخبار من يملك المساعدة، ومراجعة العلاج عند أهل الاختصاص؛ كل ذلك أسباب مشروعة لا تناقض الصبر. الذي يفسده هو الاعتراض المحرم، أو إطلاق اللسان بما يسخط الله، أو ترك ما يقدر عليه الإنسان من غير عذر معتبر.

ولا يشترط الصبر أن يحب المرء المصيبة أو يتمنى بقاءها. يسأل الله رفعها، ويأخذ بأسباب زوالها، ويحزن لما أحدثته، ثم يحفظ اختياره داخل حدود العبودية. الألم يقع عليه، والصبر يظهر فيما يختاره أثناءه.

وكما لا يمنع الصبر طلب العلاج، فإنه لا يسقط حق المظلوم في رفع الظلم بطريق مشروع. قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: 41].

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: 43].

أباح الله الانتصار المشروع، ومدح الصبر والعفو. فالصبر يضبط طلب الحق ويمنع التعدي، لكنه لا يحول الظلم إلى واجب الاحتمال، ولا يلزم صاحبه أن يعطل أسباب الحماية والإنصاف.

وقد تضطرب النفس عند الصدمة الأولى، ثم تستعيد توازنها وتعود إلى الله. فلا يحكم الإنسان على إيمانه من دمعة أو لحظة ضعف، وإنما ينظر إلى اتجاهه بعد الصدمة: هل يستسلم للتسخط والانقطاع، أم يعود إلى الله ويستأنف ما يستطيع؟

كيف يتصبر القلب؟

قال النبي ﷺ: «ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر» رواه البخاري (1469)، ومسلم (1053). فقوله: «يتصبر» يدل على أن الصبر يُطلب ويُمارس، ولا ينتظر الإنسان حتى يشعر بقوة كاملة قبل أن يبدأ.

يبدأ التصبر بتحديد التكليف القريب. حين يحمل المرء الطريق كله دفعة واحدة ترهقه المسافة، أما إذا عرف ما يطلب منه اليوم استطاع القيام به: صلاة يحفظها، وموعد علاج يلتزم به، وكلمة يمنعها، وخطوة نافعة يؤديها، وقرار يؤجله حتى يهدأ غضبه.

ويحتاج الصبر إلى زاد. الصلاة، والقرآن، والدعاء، والصحبة الصالحة، والراحة المباحة، وتنظيم الجهد، وطلب المساندة؛ كلها أسباب تعين على المواصلة. من أهمل كل ما يقويه، ثم طالب نفسه باحتمال لا ينقطع، فقد يرهقها بدل أن يربيها.

ومن فقه التصبر التمييز بين التعب الذي يحتاج إلى احتمال، والتعب الذي يطلب تعديلًا. ليست كل راحة هروبًا، ولا كل زيادة في الجهد فضيلة. وقد يكون تخفيف بعض الأعمال لحفظ الواجب، أو توزيع المسؤولية، أو طلب العلاج، أقرب إلى الأمانة من الاستمرار حتى الانهيار.

وإذا تعثر الإنسان، لم يحول عثرته إلى نهاية. يتوب من الخطأ، ويصلح ما أفسد، ويعود بخبرة أصدق في معرفة ضعفه. الصبر لا يعني طريقًا بلا سقوط، وإنما يعني أن السقوط لا يصبح وجهة دائمة.

حين تغيّر الطريق وتحفظ الوجهة

عاد صاحب المشروع إلى ما كان يفعله، لكنه غير السؤال. لم يعد يسأل: كيف أثبت أنني لم أفشل؟ بل سأل: ما الخير الذي بدأنا من أجله، وما الذي بقي منه، وأي طريق يخدمه الآن؟

استمع إلى فريقه، وأوقف جزءًا استهلك الجهد ولم يعد نافعًا، وأبقى جزءًا ظهرت فائدته، وسلم بعض المسؤوليات إلى من كان أقدر عليها. كان التغيير مؤلمًا؛ لأنه اضطر إلى الاعتراف بأن طول البذل لا يجعل كل قرار صائبًا، وأن الوفاء للغاية قد يطالبه بترك صورتها الأولى.

لم يترك الخير الذي بدأ من أجله، ولم يبق المشروع كما كان. ثبت على المقصد، وتحرك في الوسائل، ثم تلقى ما انتهت إليه الأمور بعد أن أخذ بأسباب الإصلاح. عندها فهم أن الصبر لم يكن حبلًا يربطه بمكان واحد، بل قوة تمنعه من الهرب من أمر الله، سواء طالبه الأمر بالبقاء أو التغيير.

الصبر يحفظ الوجهة تحت الضغط، ويمنح الإنسان القدرة على أن يعمل من غير استسلام، ويتغير من غير هروب، ويتلقى ما وقع من غير اعتراض محرم.

ليس الصابر من يبقى دائمًا في الموضع نفسه، بل من يبقى مع أمر الله حين يتغير الموضع والطريق.

وبعد أن يعرف الإنسان كيف يثبت من غير جمود، يبقى سؤال يمس نظره إلى نفسه: كيف يقرأ خوفه على إيمانه؟

الوحدة الخامسة عشرة: حين تخاف على إيمانك

كيف تميز ضعف المؤمن من خصال النفاق؟

عاد من خصومة بقي أثرها في صدره ساعات. كان قد بالغ في وصف موقفه، وأخفى جانبًا يضعف حجته، ثم أطلق كلمة جارحة لم يكن ليقولها لو هدأ غضبه. وفي المساء مر به حديث خصال النفاق: الكذب، والغدر، والخيانة، والفجور في الخصومة. توقف عند الكلمات كأنها كشفت موضعًا في نفسه لا يستطيع تجاهله.

لم يكتف بالخوف من الفعل الذي وقع فيه، بل انتقل سريعًا إلى الحكم على نفسه كلها: لعل عبادتي صورة، ولعل ما أظهره من إيمان يخفي حقيقة أخرى. ثم أخذ يجمع إلى موقف الخصومة كل ما يعرفه من ضعفه؛ فتوره في بعض الصلوات، وتغير حال قلبه بعد مجالس الذكر، وخواطر يخجل من مرورها في نفسه.

اجتمعت أحوال مختلفة في حكم واحد، فتحولت المحاسبة إلى خوف مبهم لا يعرف له بابًا. ولم يعد السؤال: ما الخطأ الذي وقع، وكيف أصلحه؟ صار السؤال الذي يطارده: هل أنا مؤمن أم منافق؟

الخوف على الإيمان من علامات حياة القلب حين يحمله إلى الصدق والتوبة، لكنه قد ينحرف في اتجاهين متقابلين: أن يهوّن الإنسان خصلة خطرة حتى تستقر فيه، أو أن يحمل ضعفًا عارضًا وخاطرًا غير مختار حكمًا لا يحتملانه. وبين الأمن الكاذب واليأس المفسد ميزان يحفظ الخوف ويمنعه من هدم صاحبه.

الخوف الذي يزيدك عملًا

وصف الله عباده الصالحين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: 60-61].

سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن الآية: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ فقال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون ألّا تُقبل منهم» رواه الترمذي (3175)، وصححه الألباني.

كان خوفهم مصاحبًا للطاعة، ثم وصفهم الله بالمسارعة في الخيرات. لم يحملهم الخوف على ترك العمل، ولم يجعلهم يشهدون لأنفسهم بالهلاك؛ بل منعهم من الاغترار، ودفعهم إلى إحسان ما يقدمون لله.

فالخوف النافع يفتح بابًا محددًا: توبة من ذنب، أو إصلاح عمل، أو رد حق، أو تجديد قصد. أما الخوف الذي يطلق حكمًا شاملًا على الإنسان، ثم يقنعه بأن التوبة لا تنفع وأن أعماله كلها كذب، فقد خرج من المحاسبة إلى القنوط أو الوسواس.

ولا يكفي أن يقول الإنسان: خوفي دليل على سلامتي، ثم يبقي الخلل كما هو. الخوف يدل على حياة القلب حين يتحول إلى موقف؛ يرى العبد عيبه، ولا يبرره، ثم يسلك طريق إصلاحه.

أحوال لا يجمعها حكم واحد

يحتاج من يخاف على إيمانه إلى التفريق بين أحوال متعددة؛ لأن لكل حال معناها وعلاجها. فتغير درجة حضور القلب غير الخاطر الذي يقتحمه، والخاطر غير الذنب المختار، والذنب غير الخلق الذي صار طريقًا مستقرًا، وهذه كلها غير النفاق الاعتقادي.

جمعها في اسم واحد يجعل الخوف أعمى، بينما القراءة الصحيحة تبدأ من تسمية ما وقع كما هو.

تغير حال القلب ليس نفاقًا

لقي حنظلة رضي الله عنه أبا بكر فقال: نافق حنظلة. وذكر أنهم يكونون عند رسول الله ﷺ يذكرهم بالجنة والنار حتى كأنهم يرونهما، فإذا عادوا إلى الأزواج والأولاد والأعمال نسوا كثيرًا. فقال أبو بكر: إنا لنلقى مثل هذا.

ذهبا إلى النبي ﷺ، فقال: «والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» ثلاث مراتٍ. رواه مسلم (2750).

لم يكن حنظلة يخفي الكفر ويظهر الإيمان، وإنما خاف من تغير درجة استحضاره للآخرة. فبين له النبي ﷺ أن البشر لا يدومون على حال واحدة من صفاء القلب وشدة التأثر.

وقوله ﷺ: «ساعة وساعة» لا يمنح وقتًا للمعصية، وإنما يبين أن للحياة حقوقًا مباحة، وأن حضور القلب يقوى ويضعف. قد يرق الإنسان في مجلس علم، ثم ينشغل بأهله وعمله، ولا يكون انشغاله المشروع نفاقًا.

المعيار ليس دوام الشعور نفسه، بل بقاء أصل العبودية حاكمًا عند تغيره. هل يحافظ الإنسان على الفرائض، ويعرف الحق، ويعود إذا غفل؟ أم يتخذ الفتور بابًا إلى ترك الطريق والاستهانة بأمر الله؟

الخاطر المقتحم لا يساوي اعتقادًا

وقد تقرر في الوحدة العاشرة أن الخاطر الوارد بغير اختيار لا يساوي قرارًا أو اعتقادًا يتبناه الإنسان. ويتأكد هذا المعنى في الوساوس التي تقتحم القلب في أبواب العقيدة والعبادة، فيفزع منها صاحبها ويظن أن مجرد مرورها يكشف فساد باطنه.

جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فقالوا: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. فقال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم. قال: «ذاك صريح الإيمان». رواه مسلم (132). ولم يكن مضمون الوسوسة إيمانًا؛ وإنما كانت كراهتهم لها وتعاظمهم أن ينطقوا بها دليلًا على أن قلوبهم لم تقبلها.

وعلاجها أن يستعيذ العبد بالله، ويعرض عنها، ويستمر على ما يعلمه من إيمانه وعبادته، ولا يحول فحص قلبه إلى طقس متكرر يطلب به يقينًا شعوريًّا كاملًا. وإذا اشتدت الوساوس حتى عطلت حياته، سأل أهل العلم واستعان بالمتخصصين، دون أن يجعل شدة معاناته حكمًا على عقيدته.

الذنب المختار يحتاج إلى توبة

قد يقع المؤمن في معصية يعرف أنها معصية، ويغلبه غضب أو شهوة أو مصلحة عاجلة. وجود الإيمان لا يجعل فعله هينًا، كما أن وقوع الذنب لا يثبت وحده بطلان أصل الإيمان.

وقد مرّ معنى هذه الآية في مطلع هذا المحور، وجاء منها في الوحدة العاشرة موضع الإصرار؛ وموضعها هنا أخصّ، لأنها تضبط الفرق بين وقوع المؤمن في الذنب واتخاذه طريقًا. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].

لم تنف الآية وقوع الفاحشة وظلم النفس، لكنها كشفت ما فعله المؤمنون بعد السقوط: ذكروا الله، واستغفروا، ولم يصروا. لم يتحول الذنب عندهم إلى حق يدافعون عنه، ولا إلى موضع إقامة يطمئنون إليه.

وقد يتكرر الذنب بسبب ضعف المجاهدة، ويظل ذلك خطرًا لا يجوز تهوينه. غير أن التكرار المصحوب بالندم والتوبة والمقاومة يختلف عن اتخاذ المعصية وسيلة مستقرة، ثم تبريرها والدفاع عنها.

وقول الإنسان: أنا ضعيف، لا يعفيه من التوبة ولا يرد حقًّا أضاعه. الاعتراف بالضعف بداية للعلاج حين يقوده إلى طلب القوة، وقد يصبح حيلة جديدة إذا استخدمه ليتعايش مع الذنب.

خصال النفاق إنذار يجب ألّا يهوَّن

قال النبي ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» رواه البخاري (34)، ومسلم (58).

يثبت الحديث لهذه الأخلاق وصفًا شديدًا من النفاق، فلا يصح تحويل الكذب والخيانة والغدر والفجور في الخصومة إلى عيوب اجتماعية صغيرة. إنها تناقض ما يقتضيه الإيمان من الصدق والأمانة والعدل، وتفسد علاقة العبد بربه وبالناس.

وفي الوقت نفسه قال النبي ﷺ: «ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها». فنسب إليه خصلة من النفاق، وفتح له باب تركها، ولم يجعل وقوعها وحده حكمًا بثبوت النفاق الاعتقادي الذي هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر.

فالمقصود بالخلوص في هذا الحديث استجماع هذه الخصال واستحكامها من جهة العمل، لا أن صاحبها يصير بها وحدها من أهل النفاق الأكبر. ولذلك يحذر الحديث من السلوك المنافق تحذيرًا شديدًا، من غير أن يمنح الأفراد حق الحكم على البواطن أو إخراج الناس من الإسلام بالانطباعات.

لكن هذا الاحتراز لا يفرغ الحديث من رهبة ألفاظه. فمن رأى في نفسه كذبًا أو خيانة أو فجورًا، فواجبه أن يخاف من الخصلة نفسها، وأن يبادر إلى نزعها قبل أن تصبح خلقًا ينساب منه من غير مقاومة.

متى تتحول الخصلة إلى طريق؟

الكذبة الواحدة محرمة، والخيانة مرة واحدة ظلم، والفجور في خصومة واحدة قد يهدم حقًّا عظيمًا. فلا يحتاج الفعل إلى التكرار حتى يستوجب التوبة. لكن معرفة ما يبنيه في القلب تحتاج إلى النظر في الاختيارات التي تليه.

قد يكذب الإنسان تحت ضغط، ثم يفزع مما قال، ويصحح خبره، ويتحمل كلفة اعترافه. وقد يخلف وعدًا لعجز طارئ، ثم يعتذر ويجبر الضرر. لا تصبح الأفعال مقبولة، لكن ما بعدها يكشف أن صاحبها لم يتخذها نظامًا يحميه.

ويشتد الخطر حين تصبح الخصلة وسيلة معتادة لتحقيق المصالح؛ يكذب كلما خاف على صورته، ويخون إذا غابت الرقابة، ويغدر حين تتغير منفعته، ويفجر في الخصومة لأن إسقاط خصمه عنده أهم من العدل. ثم يصنع لكل ذلك تفسيرًا يعفيه من التوبة.

فالتحول الأخطر يقع حين ينتقل الذنب من فعل يستحي الإنسان منه إلى طريق يدافع عنه، ومن سقوط يقاومه إلى أداة يعتمد عليها. ولا ينبغي انتظار استحكام الخلق؛ فكل اختيار متكرر، لا تتبعه توبة أو إصلاح، يزيد الطريق رسوخًا.

وقد وصف الله المنافقين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 142].

ترسم الآية حالًا مركبة من المخادعة والرياء والكسل وقلة الذكر. فلا يصح اقتطاع شعور واحد منها، ككسل وقع في صلاة، ثم بناء الوصف كله عليه. لكن الكسل المستقر الذي يقترن بترك الصلاة عند غياب الناس والنشاط لها عند حضورهم يفتح بابًا للمحاسبة الجادة.

أربعة موازين تقرأ بها حالك

ابدأ بتحديد مصدر الخوف: أهو خاطر لم تختره، أم فعل فعلته، أم خصلة تتكرر، أم اعتقاد تقبله وتتبناه؟ لكل واحد من هذه الأحوال بابه، وجمعها في حكم واحد يفسد العلاج.

ثم انظر إلى موقفك من حكم الله. قد تعصي وأنت تعرف أنك مخطئ، وهذه حال خطرة تحتاج إلى توبة. ويزداد الخطر حين تعيد تعريف الخطأ ليصبح صوابًا، أو تجعل رغبتك هي المرجع الذي تقبل به ما يوافقك وترد ما يخالفك.

وانظر فيما تفعله بعد أن تنكشف. هل تبادر إلى الاعتذار ورد الحقوق وإصلاح الطريق، أم تنشغل بحفظ صورتك وصناعة الأعذار؟ التوبة لا تعرف من شدة الألم وحدها، وإنما من الأثر الذي تحدثه في القرار.

ثم راقب الاتجاه مع الزمن. لا تحكم على أصل إيمانك من لقطة منفردة، ولا تعامل التكرار المستمر كأنه لا دلالة له. السؤال: أي اختيار يزداد رسوخًا؟ وإلى أي جهة تعود بعد السقوط؟

وهذه الموازين لمحاسبة النفس، وليست أداة لتوزيع وصف النفاق على الناس. تسمّي الكذب كذبًا، وتحمي الحقوق من الخيانة، وتحذر من الغدر، لكنك لا تدعي معرفة حقيقة الباطن من موقف رأيته.

عالج الخصلة بدل أن تحاكم اسمك

حين تخاف من أمر ظهر فيك، سمّه بدقة. لا تقل: أنا منافق، ثم تترك الكذب كما هو. قل: كذبت في هذا الموضع، أو خنت هذه الأمانة، أو تجاوزت العدل في هذه الخصومة. التحديد يحول الخوف إلى عمل، بينما الحكم العام قد يزيد الألم ولا يصلح شيئًا.

ثم أصلح أثر الفعل. صدّق الخبر الذي حرفته، ورد الأمانة، واعتذر ممن ظلمته، وأوف بالوعد أو بيّن عجزك قبل أن ينتظرك الناس. لا تكتمل توبة تتعلق بحقوق الخلق مع الإصرار على إبقاء آثار الظلم.

وابن ضد الخصلة التي تخاف منها. من عرف من نفسه الكذب ألزمها الصدق في المواضع التي يخاف فيها على صورته، وَتَعَلَّمَ أن يقول: لا أعلم، وأخطأت، ولا أستطيع. ومن يخلف الوعود قلل ما يعد به، وضبط التزاماته، وبادر إلى الاعتذار.

وقد تكون الخصلة قديمة تغذيها بيئة أو مصلحة أو صحبة؛ فلا يكفي معها انفعال عابر. يحتاج الإنسان إلى حواجز عملية، وناصح صادق، ومراجعة متكررة، ودعاء يطلب به تطهير القلب.

ويجمع المؤمن بين الخوف والرجاء. يخاف أن تستقر فيه الخصلة، ويرجو أن يطهره الله منها. لا يأمن لمجرد أن له طاعات، ولا يقنط لأنه رأى ضعفًا؛ فقد يكون انكشاف المرض بداية رحمته إذا قاده إلى العلاج.

عاد صاحب الخصومة إلى كلامه، فصحح المعلومة التي بالغ فيها، واعتذر عن الكلمة الجارحة، ثم وقف عند الدافع الذي حمله على الفجور: كان يريد الانتصار ولو ضاع العدل. لم يعد يقضي يومه يسأل عن الاسم الذي يستحقه، بل عن الواجب الذي يقتضيه ما ظهر.

بقي خائفًا على قلبه، لكن خوفه لم يعد حكمًا يغلق الطريق. صار عينًا تراقب الاتجاه، وتمنعه من تحويل الزلة إلى خلق، والخلق إلى حياة مستقرة.

لا تجعل خوفك من النفاق حكمًا على باطنك، ولا تجعل إيمانك عذرًا لخصلة ظهرت فيك؛ سمِّ الخلل، واتركه، وردّ ما أفسدت، واسأل الله قلبًا صادقًا.

خاتمة المحور الثالث: لا تخف من المرآة

ونعود في خاتمة هذا المحور إلى الآية التي افتتحناه بها؛ فقد جاءت هناك لتأسيس ضرورة الصدق مع النفس، وتأتي هنا بعد الموازين لتبين أن بصيرة الإنسان لا تنفعه حتى يزن ما رأى بالوحي ويتحرك لإصلاحه: قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: 14-15].

يعرف الإنسان من نفسه أشياء يستطيع إخفاءها عن الناس، ويلقي حولها من الأعذار ما يخفف ألم رؤيتها. ثم تأتي ساعة خوف أو خسارة أو نجاح أو غياب للرقابة، فتزيح الحال بعض ما صنعه من ستار، ويظهر من القلب ما لم يكن واضحًا في أوقات السعة.

لم يكن مقصد هذا المحور تحويل الحياة إلى تفتيش لا ينتهي، أو قياس الإيمان مع كل خاطر وشعور. المقصود أن تتعلم قراءة ما انكشف: فلا تهرب منه بالتبرير، ولا تحمله حكمًا أكبر مما يدل عليه. هذه الرؤية فرصة لمعرفة موضع العمل، وليست حكمًا نهائيًا على القلب.

لا تحكم من لقطة واحدة

الخاطر ليس قرارًا، والزلة ليست هوية، والفتور لا يساوي انقلابًا في الطريق. لكن ما تختاره بعد الخاطر، وما تفعله بعد الزلة، وما تكرره حين تتاح لك الفرصة؛ هو الذي يبني الاتجاه.

فلا تهوّن الفعل لأنه وقع مرة؛ فالمعصية تحتاج إلى توبة من أول مرة. ولا تجعل المرة الواحدة خاتمة قصتك؛ فباب الرجوع لا يغلقه سقوط عارض. اقرأ الحدث، ثم اقرأ ما صنعته به. وقد يشتد الندم ثم يزول من غير إصلاح، بينما يحمل ألم هادئ قرارًا صادقًا برد الحق.

اسأل عمّا يحكمك

كشفت العادة الدينية مقدار ما انتقل من الموروث إلى الاختيار، وكشف الإخلاص الجهة التي يقصدها العمل عند تزاحم رضا الله مع حظ النفس. وكشف اليقين الفرق بين وعد الله والتفسير الذي اختاره الإنسان لأقداره.

وفي الصبر ظهر أن الثبات يحفظ أمر الله، ولا يقدس وسيلة اعتادتها النفس. وفي الخوف على الإيمان ظهر أن القلب يحتاج إلى خشية تمنعه من الأمن، ورجاء يمنعه من القنوط؛ فيخاف من الخصلة فيتركها، من غير أن يحول الضعف العارض إلى حكم على باطنه.

تجتمع هذه الموازين في سؤال واحد: ما الذي يحكم اختيارك حين تنكشف دوافعك وتتزاحم عليك الطرق؟

الوحي هو الميزان

الشعور يخبرك بأنك تتألم أو ترغب أو تخاف، لكنه لا يحدد وحده حكم حالك. قد تشعر بالإخلاص وتكون النفس تطلب حظها، أو تتهم نفسك بالنفاق وأنت تدافع وسواسًا تكرهه، أو تسمي الجمود صبرًا لأن التغيير يؤلمك.

لهذا تقرأ نفسك في ضوء الكتاب والسنة، لا في ضوء المزاج ولا في ضوء الصورة التي تريدها عنها. والعودة إلى الوحي لا تعني اقتطاع نص واحد وإسقاطه بلا علم؛ بل تجمع النصوص، وتفهم حدودها، وتسأل أهل العلم فيما أشكل، وترد الأحكام الكبيرة إلى قدرها.

حاسب نفسك لتتحرك

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: 18].

النظر هنا متعلق بما قدمت النفس لغد؛ فهو نظر يهيئ للعمل، ولا يقيم صاحبه في دوائر التحليل. فإذا ظهر ذنب فبابه التوبة، وإذا ظهر حق للناس فبابه الرد، وإذا كشفت العادة اعتمادًا زائدًا فبابه تجديد القصد وبناء الأسباب. وإذا لبست الأمنية ثوب اليقين فبابها التفويض، وإذا تكلم الجمود باسم الصبر فبابه المراجعة.

لا تجعل المعرفة بديلًا عن الحركة، ولا تنتظر أن تفهم قلبك كله حتى تبدأ. بعض الدوافع مختلطة، وبعض الأحوال تحتاج إلى زمن حتى تتبين. اعمل بما ظهر لك من الحق: أدّ الواجب، واترك الحرام، وأصلح الضرر، وجدّد قصدك؛ فالطاعة الصادقة تكشف أحيانًا ما لا يكشفه التفكير وحده.

وقد يبقى الحكم على بعض الأحوال غير مكتمل: لا تدري أكان الميل عارضًا أم بداية مسار، أو يختلط في العمل قصد صالح بحظ للنفس. حينئذ لا تتكلف يقينًا لا تملكه، ولا تجعل غموض الدافع عذرًا للتوقف. الزم الحكم الظاهر، وخذ بأسباب الصدق، وراقب ما تبنيه اختياراتك؛ فالزمن مع المجاهدة يكشف من الاتجاه ما لا تكشفه لحظة واحدة.

ابدأ بنفسك

بعد تعلم هذه الفروق يسهل استعمالها في قراءة الناس: هذا تحمله العادة، وذاك يطلب الثناء، وهذا يتمنى ويسميه يقينًا، والآخر جامد أو منافق. عندئذ تتحول أداة الإصلاح إلى نافذة على قلوب الخلق.

هذه الموازين أعطيت لك لتعرف واجبك تجاه ما يظهر فيك. أما الناس فتحكم على أعمالهم بالعدل، وتحمي الحقوق، وتنكر الخطأ، من غير أن تدعي ما لم تعلمه من بواطنهم. تسمي الكذب كذبًا والخيانة خيانة والظلم ظلمًا؛ فالحكم على الفعل شيء، والحكم على حقيقة القلب ومآله شيء آخر.

ثم امض

قد تتألم حين ترى ضعفًا لم تعرفه، لكن انكشافه رحمة إذا قادك إلى الله. وقد ترى رجوعًا بعد الزلة، أو صدقًا حين غابت الرقابة، أو قدرة على ترك حظ النفس؛ فاحمد الله ولا تجعل رؤية النعمة بابًا إلى الإعجاب.

لا تخف مما انكشف، ولا تمنح الانكشاف أكثر من وظيفته؛ فهو يريك موضعك، والوحي يحدد وجهتك، والتوبة والعمل ينقلانك من موضع الخلل إلى طريق الإصلاح.

ومن هنا يبدأ المحور الرابع؛ فما يظهر في الابتلاء ليس نهاية القصة. فقد يكشف الله للعبد ضعفًا، ثم يفتح له من خلاله باب التمحيص والتربية، حتى يخرج من التجربة أصدق إيمانًا، وأنضج عقلًا، وأصلح عملًا. وبعد أن تعلمنا كيف نقرأ ما ظهر في القلوب، ننتقل إلى سؤال أعمق:

كيف يربي الله المؤمنين بما يمر بهم؟

المحور الرابع: كيف يربي الله المؤمنين؟

الابتلاء ليس كشفًا فقط، بل بناء

مرَّ بنا أن الابتلاء يكشف ما استقر في القلوب، وأن المؤمن يحتاج بعد الانكشاف إلى ميزان يمنعه من التبرير والقنوط معًا. غير أن رؤية الخلل لا تصلحه وحدها؛ فقد يعرف الإنسان موضع ضعفه، ويحسن وصفه، ويتحدث عنه بصدق، ثم يعود بعد هدوء الموقف إلى عاداته القديمة، كأن شيئًا لم يقع.

لهذا لا تقف آثار الابتلاء عند الكشف. يربي الله به عباده، وينقلهم من دعاوى لم تختبر إلى إيمان دفع كلفته، ومن تعلق خفي بالأسباب إلى توكل يجمع بين إحكامها والافتقار إلى مسببها، ومن ثقة زائدة بالنفس إلى صدق يعرف الضعف ويجاهده، ولا يتخذه عذرًا للركون.

ظهر هذا المعنى جليًّا في معالجة القرآن لغزوة أُحد. سمّى الوحي ما وقع من فشل وتنازع وعصيان، وكشف ما دخل على بعض النفوس من إرادة الدنيا، ثم لم يترك المؤمنين عند مشهد السقوط. أخبرهم بعفوه، وأمر نبيه ﷺ أن يعفو عنهم، ويستغفر لهم، ويشاورهم، ثم يعزم ويتوكل ويمضي بهم في الطريق.

فالقرآن لم يروِ أُحد لتبقى الهزيمة جرحًا في ذاكرة الأمة، وإنما ربّى بها الصف الذي سيحمل الرسالة بعد ذلك. كشف الخلل حتى لا يستتر، وحفظ للمؤمنين إيمانهم حتى لا يقنطوا، وأعادهم إلى العمل حتى لا يتحول الندم إلى عجز، وربط العزم بالتوكل حتى لا ينقلب تصحيح الأسباب إلى اتكال جديد عليها.

وهذه التربية لا تعني أن الألم يصنع الفضيلة بطبيعته. قد يخرج الإنسان من الشدة أصدق وأرحم، وقد يخرج منها أشد قسوة وسوء ظن. الذي يبني القلب هو توفيق الله، ثم استجابة العبد لهدايته: يعترف بما ظهر، ويتوب مما أخطأ فيه، ويصحح أسبابه، ويتعلم، ويصبر، ويواصل السير.

كما لا تعني أن المؤمن يستطيع تعيين الحكمة الغيبية الخاصة في كل ما يقع له. لا يجزم بأن مرضًا معينًا جاء لينزعه من خلق محدد، أو أن خسارة وقعت لتعده لمكانة ينتظرها، أو أن تأخر مطلوبه دليل على نصر قريب. نؤمن بالسنن العامة التي بينها الوحي، ونعمل بالعبودية التي أمر بها، ونكل أسرار الأقدار المفصلة إلى الله.

والسؤال الصحيح عند الابتلاء ليس: ما الرسالة الخفية التي أرادها الله لي وحدي من هذه الحادثة؟ وإنما: ما السنة التي بينها الوحي في مثل هذا الموقف؟ ماذا ظهر من قلبي وعملي؟ وما الواجب الذي يرضي الله مني الآن؟ بهذه الأسئلة ينتقل المؤمن من محاولة كشف الغيب إلى أداء العبودية التي كلف بها.

يسير هذا المحور في أربع مراحل متصلة. نبدأ بالتمحيص؛ كيف ينقي الله المؤمنين أفرادًا وصفوفًا؟ ثم ننظر في حياة الأنبياء؛ كيف نمت خلال مراحل الابتلاء خصال حمل الرسالة؟ وبعد ذلك نقف مع تأخر النصر؛ ماذا يربي الانتظار، وما الذي ينبغي استكماله في الطريق؟ ثم ننتهي إلى البلاء قبل التمكين؛ كيف تُبنى الأهلية التي تحمل القوة من غير أن تفسد بها؟

ولكل مرحلة وظيفتها. التمحيص يعالج الشوائب التي كشفها الابتلاء. وصناعة الرجال تظهر خصال أهل الرسالة وتنميها في مواطن العبودية. وتأخر النصر يربي المؤمن في زمن الانتظار، ويحرره من استعجال الثمرة. أما البلاء قبل التمكين فينظر في الأهلية التي تحتاج إليها القوة، وكيف يظهر قبل اتساع المسؤولية مقدار العلم والأمانة وضبط النفس؛ حتى لا تتحول القدرة الجديدة إلى توسيع للهوى القديم.

قد تنزع المحنة من اليد شيئًا محبوبًا، ثم تفتح للعبد بابًا لينزع من قلبه وهمًا كان أشد خطرًا. وقد تهزم تجربة خطة كاملة، ثم ينتفع بها من صدق في الاستجابة، فيخرج بعلم وتواضع لم تكن النجاحات المتتابعة تسمح بولادتهما. وقد يطول الانتظار، فيتعلم من أحسن الاستجابة له عبودية الطريق، وتنضج فيه خصال يحتاج إليها ما يرجوه، من غير أن يكون طول الانتظار وعدًا بثمرة دنيوية بعينها.

إن الله لا يربي المؤمنين ليحسنوا احتمال الألم فحسب، وإنما ليحسنوا عبوديته في السعة والشدة، ويحملوا أمانته بقلوب أنقى، وبصائر أهدى، وأعمال أصلح.

الوحدة السادسة عشرة: التمحيص

المعنى القرآني

طوى صاحب القرار الورقة التي أمامه للمرة الثالثة. كان يعرف أن الاعتراض وصله قبل تنفيذ المشروع، لكنه رده سريعًا؛ فقد وثق بخبرته، وخشي أن يطيل النقاش فيظهر الفريق مترددًا. والآن انتهى المشروع إلى خسارة موجعة، واجتمع أصحابه يبحثون عمن يتحملها.

تحدث بعضهم عن الظروف، وألقى آخرون الخطأ على من تأخر في التنفيذ، واقترح أحدهم إغلاق الملف قبل أن تتضرر سمعة المؤسسة. أما صاحب القرار فكان يسمع كلماتهم وهو يعرف أن جزءًا من الحقيقة غائب: لم تكن المشكلة في شخص واحد، ولا في ظرف واحد؛ كان في طريقة عملهم كلها شيء يحتاج إلى أن يظهر.

غير أن ظهور الخلل لا يعني أنه عولج. تستطيع الجماعة أن تعرف سبب فشلها، ثم تكتب تقريرًا محكمًا، وتعيد بعد أشهر إنتاج الخطأ نفسه. ويستطيع الإنسان أن يرى عيبه بوضوح، ثم يمنحه اسمًا حسنًا يحميه به. وبين أن ينكشف المرض وأن يبدأ شفاؤه تقع منزلة قرآنية دقيقة:

التمحيص.

حين يمحص الله المؤمنين

قال الله تعالى في سياق أُحد:

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: 140-141].

تدور عبارات المفسرين في التمحيص حول الاختبار والتخليص والتطهير. وهذه المعاني يضم بعضها إلى بعض سياق الآيات؛ فالله يداول الأيام، ويبتلي المؤمنين، ويظهر صدقهم، وينقي إيمانهم مما يخالطه، ويفتح لهم في أثناء ذلك أبوابًا من الصبر والتوبة والافتقار لم تكن لتظهر في زمن العافية وحده.

ولا يصح أن نجعل بين الكشف والتمحيص حدًّا لغويًّا جامدًا؛ فقد فسر بعض أهل العلم التمحيص بالاختبار نفسه. غير أن السياق يمنحنا فرقًا تربويًّا نافعًا: يكشف الابتلاء ما في الصدر، ويصبح ما يعقب هذا الكشف من تربية وتوبة ومجاهدة طريقًا لتنقية القلب وتصحيح العمل.

قال الله تعالى:

﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 154].

وقد مرت هذه الآية في مقدمة محور الكشف، وكان موضع النظر هناك ما يظهره الابتلاء من أحوال القلوب. ونعود إليها هنا لوظيفة أخص: كيف لا يبقى ما ظهر خبرًا مؤلمًا عن النفس، وإنما يصبح بداية لتطهيرها وإعادة بنائها؟

وعلم الله سابق محيط، لا يستجد له بالابتلاء علم لم يكن. وإنما يقع معلومه في عالم الشهادة، ويظهر للعباد ما كان خافيًا عليهم، وتقوم الحجة بما يصدر عن الإنسان من اختيار وعمل، ويترتب الثواب والعقاب على ما وقع منه، لا على علم البشر بما كان يمكن أن يفعله.

في التمحيص يديل الله الأيام، ويكشف للإنسان مواضع ضعفه، ويسقط عنه بعض أوهامه، ويميز داخل الصف بين الاستجابات، ثم يفتح للمؤمنين طريق العفو والرجوع والإصلاح. لا يتركهم لوهم الكمال، ولا يختصرهم في زلة عارضة؛ يعرفهم بحقيقة حاجتهم إليه، ويعيدهم إلى الطريق بما يصلح قلوبهم وأعمالهم.

أُحد: كشف يتبعه بناء

سبق أن وقفنا عند أُحد من جهة ما كشفته الهزيمة، ونعود إلى الآية الحاملة لذلك المعنى لأن وظيفتها هنا مختلفة. قال الله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾

[آل عمران: 152].

سمى القرآن الخلل بأسمائه: فشل، وتنازع، وعصيان، وإرادة للدنيا ظهرت في بعض النفوس. ولم تكن هذه معاني عابرة داخل القلب؛ تحولت إلى قرار في لحظة حاسمة، ثم امتد أثرها إلى الصف كله. فالخطأ الفردي إذا وقع في موضع الأمانة قد يتجاوز صاحبه إلى أناس لم يشاركوه اختياره.

ومع هذه الصراحة لم يختصرهم الوحي في لحظة السقوط، فقال في تمام الآية:

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 152].

وصفهم بالمؤمنين، وأخبر بعفوه عنهم، فجمع لهم بين حقيقة الإيمان، ووقوع الخطأ، والحاجة إلى التربية. لم يجعل الإيمان عصمة من الزلل، ولم يجعل الزلل حكمًا يمحو الإيمان، ولم يجعل العفو سببًا لإخفاء ما وقع أو تعطيل التعلم منه.

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

[آل عمران: 155].

هذه هي التربية القرآنية في توازنها: سمّت التولي توليًا، وربطت الزلة ببعض ما كسبوا، ثم فتحت فوق ذلك باب العفو. فلا العفو يمحو حقيقة الخطأ حتى لا يتعلموا، ولا ذكر الخطأ يحجب سعة المغفرة حتى يقنطوا.

والمؤمن يحتاج إلى هذا التوازن كلما ظهرت له حقيقة مؤلمة عن نفسه. فإن هو هوَّن الخطأ باسم الرجاء بقيت العلة، وإن جعل الخطأ حكمًا نهائيًا على إيمانه قطع طريق الرجوع. أما القرآن فيحمّله مسؤوليته، ويحفظ له باب الأمل، ثم يدعوه إلى عمل يصدق توبته.

ما الذي يظهر في القلب؟

يكشف التمحيص أولًا الوهم الذي يحمله الإنسان عن نفسه. قد يحب الصبر، ويتحدث عنه، ويظن أنه صار من أهله؛ فإذا طال الانتظار ظهر مقدار ما يحتمل. وقد يعلن أنه لا يريد إلا الحق؛ فإذا جاء الحق على لسان من يخالفه ضاق به. وقد يرى المنصب وسيلة للدعوة، حتى يُطلب منه أن يتركه لمن هو أصلح.

لا يعني ذلك أن كل معنى صالح كان ادعاءً كاذبًا. قد يكون الإيمان حاضرًا، والقصد صالحًا في أصله، ثم تخالطهما شائبة لم تظهر من قبل. والإنسان لا يكلف أن ينفي عن نفسه كل خير، وإنما أن يشكر ما وفق إليه، ويعترف بما خالطه، ويجاهد حتى يقل سلطان الهوى عليه.

ويكشف التمحيص مقدار التعلق بالأسباب. يأخذ الإنسان بسبب نجح معه مرارًا، فيتحول في شعوره من وسيلة مأمور بها إلى ضمان لا يتخلف. يعتمد على خطة، أو خبرة، أو مال، أو شخص مؤثر؛ فإذا غاب السبب أو خذله، ظهر مقدار ما كان القلب يستند إليه.

ولا تربي هذه المعرفة المؤمن على إهمال الأسباب. يعود بعد التجربة إلى التخطيط والاستشارة والتعلم بإحكام أكبر، لكنه يرد السبب إلى منزلته: وسيلة يبذلها، لا ربًّا للنتائج. فلا يحتج بالقدر ليستر الإهمال، ولا يتوهم أن جودة خطته توجب على الأقدار أن تأتي وفق ما رسم.

ويظهر كذلك وهم أن صلاح الغاية يغني عن سلامة الطريق. كان المخاطبون في جيش رسول الله ﷺ، وغايتهم نصرة الدين، ومع ذلك لم يمنع شرف الغاية أثر التنازع والعصيان. فالنية الصالحة لا تجعل القرار الخاطئ صوابًا، والحماسة لا تقوم مقام العلم، والانتماء إلى أهل الخير لا يلغي المحاسبة.

كما يكشف الموقف حرص الإنسان على صورته. ربما يعرف خطأه، لكنه يخشى أن يعترف به فتضعف مكانته. وربما يدافع عن قرار لم يعد يراه صوابًا، لأن الرجوع عنه سيؤلمه أكثر من استمرار الضرر. عندئذ تصبح حماية الاسم أثقل في قلبه من حماية الحق الذي رفع الاسم من أجله.

وهذه المواضع لا تمنحنا حق تفتيش بواطن الآخرين أو إصدار الأحكام على نياتهم. وظيفتها أن يعود الإنسان بها إلى نفسه، وأن يحكم على الأقوال والأفعال بما ظهر، ويترك السرائر إلى الله. فما يكشفه الموقف عني موضع عبوديتي، وما يكشفه عن غيري لا يبيح لي أن أتجاوز العدل.

حين يعرف الإنسان ولا يتغير

عاد أصحاب المشروع إلى اجتماع ثانٍ، فأعادوا رواية الأحداث حتى صار كل واحد منهم ضحية كاملة، ثم كتبوا في المحضر: «ضرورة الاستفادة من الأخطاء السابقة». انتهى الاجتماع، وبقيت طريقة القرار والخوف من الاعتراض وتعليق المسؤوليات كما كانت.

قد يرى الإنسان عيبه ثم يحميه باسم حسن؛ يسمي خوفه حكمة، وعناده ثباتًا، ودفاعه عن صورته دفاعًا عن المصلحة. ويبدأ الانتفاع بالتمحيص حين يقف أمام الوحي بلا محامٍ يدافع عن كل ما صدر منه؛ يعترف بما ثبت، ويفرق بين قدر الله الذي يؤمن به وخطئه الذي يسأل عنه، ثم ينتقل من سؤال: لماذا وقع هذا؟ إلى سؤال أنفع: ما الحق الذي يطلبه الله مني الآن؟

من الانكشاف إلى الإصلاح

لم يترك القرآن المؤمنين بعد أُحد عند حدود الاعتراف والندم، بل أعاد بناء القلب والصف والعمل:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

جاء هذا المنهج بعد خطأ عظيم الكلفة: لين يحفظ القلوب من أن يحطمها التقريع، وعفو عما تعلق بحق النبي ﷺ، واستغفار لهم فيما بينهم وبين الله، وشورى لا تلغيها التجربة السابقة، وعزم يمنع الصف من الإقامة عند الندم، وتوكل يرد النتيجة إلى الله بعد استكمال ما يستطيعون.

لم تكن التربية طردًا للمخطئين من الطريق، ولم تكن إبقاءً لهم بلا مراجعة. حفظ الوحي الجماعة من التفرق، وعالج ما وقع، وأعاد الشورى، ثم أمر بالمضي. فالصف لا ينقى بالفضيحة والتشفي، كما لا ينقى بحماية الأخطاء من المحاسبة؛ وإنما بالصدق والعدل والرحمة والعمل.

وعلى مستوى الفرد تبدأ العبودية بالتوبة. إن كان الخلل معصية، أقلع عنها وندم وعزم على ألا يعود. وإن تعلق بحقوق الخلق، رد الحق أو طلب المسامحة. وإن كان سببه جهلًا، تعلم. وإن كانت تعيد إنتاجه صحبة أو عادة أو بيئة، غير منها ما يستطيع.

ثم يثبت صدق الرجوع بعمل يخالف المسار القديم. من ظهر له أنه ينفرد بالرأي، يبني لنفسه طريقًا حقيقيًا للشورى. ومن كشف له الخوف أنه يترك واجبًا، يتعلم ويستعد ويتدرج حتى يثبت. ومن رأى تعلقه بالثناء، يواصل الخير حين يغيب اسمه، من غير أن يمنح نفسه شهادة الإخلاص الكامل.

قال النبي ﷺ:

«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان» رواه مسلم (2664).

وقد مر هذا الحديث من قبل في بيان الجمع بين الأخذ بالأسباب والإيمان بالقدر، ونعود إليه هنا لوظيفة أخص: كيف ينتقل المؤمن بعد الانكشاف من الندم المستهلك إلى عمل نافع يستعين فيه بالله ولا يعجز.

جمع الحديث طريق السير بعد التجربة: حرص على النافع يمنع تكرار التقصير، واستعانة بالله تمنع العجب، وترك للعجز يمنع الاستسلام، وإيمان بالقدر يمنع الماضي من أن يتحول إلى اعتراض يستهلك القلب ولا يصلح العمل.

ولا تتم العبودية بالاندفاع العابر. بعض العلل ترسخت خلال سنوات، فلا تزول بتأثر ساعة. يحتاج الصبر إلى مواقف متتابعة، والشورى إلى عادة في اتخاذ القرار، والتوكل إلى مجاهدة كلما حضر السبب، والصدق إلى كلفة يدفعها الإنسان حين يكون الاعتراف مؤلمًا.

والتمحيص فعل من أفعال الله بعباده، أما انتفاع الإنسان بما كشفه الابتلاء، وظهور أثر ذلك في قلبه وسلوكه، فمرتبط بصدق استجابته. قد يفتح الله له باب المراجعة فيهرب إلى التبرير، وقد يريه موضع ضعفه فيتوب ويجاهد. والفضل أولًا وآخرًا لله، والعبد مسؤول عن اختياره وعمله.

تمحيص القلب وتمحيص الصف

يمحص القلب حين تضعف فيه الشائبة التي أظهرها الموقف، ويشهد العمل اللاحق بهذا التغير. فلا يكفي أن يعرف الإنسان أنه يغضب؛ وإنما يتعلم الكف والإنصاف والاعتذار. ولا يكفي أن يرى تعلقه بسبب؛ وإنما يعيد قلبه إلى الله، ثم يأخذ بالسبب من غير أن يمنحه ما لا يملك.

ويمحص الصف حين يعالج الخلل المشترك، فلا يحمل فردًا وحده خطأ أسهمت فيه طريقة كاملة، ولا يذيب مسؤولية الأفراد في عبارات عامة. يحدد ما وقع، ويقيم العدل، ويفتح باب النصيحة، ويغير السبب الذي أعاد الخطأ، ثم يحفظ لمن صدق في الرجوع حقه في أن يبدأ من جديد.

وقد يحتاج إصلاح الصف إلى قرار مؤلم: نقل مسؤولية، أو إيقاف عمل، أو إعادة حق، أو الاعتراف بأن طريقة طال الدفاع عنها لم تعد صالحة. والرحمة لا تعني إبقاء الناس في مواقع لا يحسنونها، كما أن المحاسبة لا تعني كسرهم أو التشفي منهم. يجتمع الحزم والرحمة حين يكون المقصود حفظ الأمانة وإصلاح الإنسان.

ولا تعني تنقية الصف أن يعلن فريق أنه «الصف الممحص»، ثم يجعل هذا الوصف شهادة بصواب كل آرائه. التمحيص يورث افتقارًا ومراجعة، ولا يمنح عصمة أو تزكية. ومن خرج من الشدة أكثر إعجابًا بنفسه، وأشد احتقارًا لغيره، فربما سقط منه وهم، ثم نبت في موضعه وهم أخطر.

كما لا يجوز أن تصبح كلمة التمحيص ستارًا للإقصاء أو الظلم. نحكم على الأقوال والأفعال بما ظهر، ونقيم الحقوق، ونحاسب بالعدل، ولا ندعي معرفة السرائر. وقد يزل الصادق ثم يعود، ويثبت إنسان في موقف ثم يضعف في آخر؛ ولا يزال الجميع محتاجين إلى الهداية والثبات.

ما لا يعنيه التمحيص

سمى الله أهل أُحد مؤمنين وهو يمحصهم، وعفا عنهم بعد أن ذكر خطأهم؛ فالمحنة لا تثبت رفض صاحبها، كما أن وقوعه فيها لا يشهد له بمنزلة خاصة أو كمال. والتمحيص نفسه يدل على الحاجة إلى التربية، لا على أن الإنسان تجاوز مواضع الضعف إلى الأبد.

ولا يجوز تعيين حكمة خفية لمصيبة بعينها بغير دليل. يراجع المؤمن نفسه؛ فإن وجد ذنبًا تاب، وإن ظهر تقصير أصلحه، وإن لم يظهر له سبب مخصوص بقي على الاستغفار والصبر وحسن الظن والأخذ بأسباب العلاج، من غير أن يفتش في كل خاطر ليصنع ذنبًا مجهولًا يفسر به ما وقع.

وهذا المنع في حق الآخرين أشد؛ فلا يقال لمريض أو مفجوع أو مظلوم: أراد الله بك كذا. نواسيه بما نعلم من رحمة الله وحكمته، وندله على ما شرع له من الصبر والدعاء والعلاج، ونكل الحكمة الخاصة إلى الله.

أثر يرجى

لا توجد علامة تمنح الإنسان شهادة بأنه خرج ممحصًا، لكن ترجى ثمرة التمحيص حين يصير أصدق في الاعتراف، وأسرع إلى رد الحقوق، وأهدأ عند النقد، وأشد إحكامًا للأسباب مع افتقار أكبر إلى الله.

ويظهر الأثر في موضع الاختبار نفسه: يواصل الخير إذا غاب اسمه، ويثبت في واجب كان يفر منه، ويرحم من زل من غير أن يهون الزلة، ويحاسب من أخطأ من غير تشفٍّ أو فضيحة.

ولا يلزم أن يزول الألم حتى يتحقق البناء. قد يبقى الحزن، ولا يعود المفقود، وتظل للخسارة آثارها، ومع ذلك ينشأ في القلب توكل أصدق، وفي العقل بصيرة، وفي السلوك عدل ورحمة. التمحيص لا يمحو الذاكرة، وإنما يمنع الجرح من أن ينفرد بقيادة الحاضر.

حين عادوا إلى الملف

في الاجتماع الثالث تغير السؤال. لم يبحثوا أولًا عمن يحملونه الخسارة، ولم يكتبوا تقريرًا لحماية أسمائهم. جمعوا الوقائع، وميزوا بين ما لم يملكوه وما كان من تقصيرهم، واعترف صاحب القرار بأنه رد اعتراضًا كان يجب أن يسمعه، وقال آخر إنه رأى الخلل وسكت خوفًا على علاقته بالمسؤول.

اعتذر من ظلم، ورد حق من هُمّش، وأعيد تنظيم الشورى حتى لا تبقى إجراءً شكليًّا. أوقفوا جزءًا من المشروع لم تعد مصلحته تساوي كلفته، واستمروا في الجزء النافع بخطوات أهدأ. لم يصبحوا كاملين، ولم تتحول الخسارة إلى نصر، لكن ما وقع لم يعد جرحًا يروونه ثم يكررونه.

سقط شيء من الغرور، وصح شيء من العمل، وعاد إلى الله شيء من القلب.

وهنا تظهر ثمرة التمحيص: لا أن يخرج الإنسان من البلاء قادرًا على تفسير كل ما جرى، وإنما أن يخرج وقد عرف عن ربه ما يثبته، وعن نفسه ما يصلحه، وعن واجبه ما يبدأ به.

فالتمحيص أن يكشف الله موضع الضعف، ثم يهدي عبده إلى ألا يحميه؛ وأن يمر البلاء بالقلب فلا يتركه كما وجده؛ وأن تتحول المعرفة إلى توبة، والتوبة إلى مجاهدة، والمجاهدة إلى عمل يشهد أن التجربة لم تذهب سدى.

وإذا كان التمحيص ينزع من القلب ما لا يصلح لحمل الأمانة، فإن التربية الإلهية لا تقف عند النزع؛ إنها تبني فيه كذلك ما يحتاج إليه من صبر ويقين وحلم وشجاعة. وهذا ما تكشفه مراحل الابتلاء في حياة الأنبياء.

فالرجال الذين يحملون الرسالات الكبرى لا تصنعهم لحظة واحدة؛ يربيهم الله بعبوديات متتابعة، حتى تصبح قلوبهم أهلًا لما يضعه في أيديهم.

الوحدة السابعة عشرة: كيف يصنع الله الرجال؟

خصال الأمانة في مدرسة الابتلاء

كان يظن أن القوة خصلة واحدة: أن يثبت حين يخاف. ثم جاءت مواقف متقاربة فكشفت له أن القلب يحتاج إلى ألوان من القوة. كُلِّف بما يخالف هواه، فثقل عليه التسليم. واحتاج إلى معين، فآلمه أن يظهر احتياجه. وخلا بباب فتنة لا يراه عنده أحد. ثم آذاه من كان يرجو نفعه، فتحركت في نفسه رغبة الانتصار.

لم تكن هذه المواقف وعدًا بمهمة أكبر؛ كانت أسئلة عن عبوديته الآن: هل يتم أمر الله إذا مست الطاعة محبوبه؟ هل يطلب العون من غير أن يحمي صورة الاستغناء؟ هل يستقيم حين تغيب العيون؟ وهل يبقى عادلًا رحيمًا إذا جرحه الناس؟

وقد مر ذكر ابتلاء الأنبياء في المحور الأول لبيان أن البلاء لا يناقض الاصطفاء والصلاح. ونعود إليهم هنا من جهة أخرى: كيف تولى الله رسله بعنايته، وما العبوديات التي ظهرت في مواطن ابتلائهم؛ من تمام التسليم، وصدق الافتقار، والعفة، والثبات، والرحمة؟

ولم تكن الشدائد هي التي أنشأت كمال الأنبياء من عدم؛ فقد اصطفاهم الله وهداهم وحفظهم. لكنها كانت مواطن ظهرت فيها عبوديتهم، وصارت قصصهم تعليمًا دائمًا لكل من يحمل شيئًا من أمانة الدين.

إبراهيم: أن يتم العبد ما بدأه لله

قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124].

ابتلاه الله بتكاليف، فكان الجواب الذي سجله القرآن: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾. لم تكن عظمة إبراهيم عليه السلام في كثرة ما بدأ، ولا في حرارة مشاعره عند أول الأمر؛ ظهرت في تمام الطاعة، حين استوفى ما كلفه الله به ولم يتراجع عند ارتفاع الكلفة.

ثم بلغ التسليم موضعًا يمس أعز ما في الفطرة: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: 102-103].

لم تكن محبة إبراهيم لابنه ناقصة، ولم تطلب منه الطاعة أن يصير بلا عاطفة. كان الامتحان في ترتيب المحبة حين جاء أمر الله: أيبقى العبد مسلمًا إذا مس التكليف أحب ما عنده، أم تظهر حدود خفية لطاعته لا يريد تجاوزها؟

يكشف الابتلاء هنا ما يعقده القلب من مساومات: أطيع ما دام مالي محفوظًا، أو منزلتي مستقرة، أو رأيي غالبًا، أو من أحبهم قريبين مني. وقد لا يقول الإنسان ذلك بلسانه، لكن اعتراضه أو تراجعه حين تمس الطاعة حظه يكشف الشرط الذي أخفاه عن نفسه.

وعبودية هذا المقام أن يتم العبد ما أمره الله به، من غير أن يخترع لنفسه مشقات لم تشرع، أو يتمنى البلاء ليثبت صدقه. يؤدي الواجب إذا ثقل، ويحفظ العهد إذا غابت الحماسة، ولا يترك عملًا صالحًا لمجرد أن بريق بدايته قد انطفأ.

ليست كل طاعة كبيرة في أعين الناس. قد يكون إتمامك لوعد صغير، أو وفاؤك بحق خفي، أو استمرارك في عمل لا يصفق له أحد، هو الموضع الذي يتبين فيه مقدار تسليمك.

لقد جمع القرآن مدرسة إبراهيم في كلمة واحدة: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

فأهل الأمانة لا يعرفون بكثرة ما فتحوا من الأبواب، وإنما بصدق ما أتموه لله.

موسى: قوة تعرف افتقارها

قص الله على موسى عليه السلام ما أحاط به من عناية منذ أن ألقته أمه في اليم، وما جرى له من خوف ونجاة وغربة، ثم قال: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: 40].

ثم قال: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: 40-41].

تولى الله موسى بعنايته، وأنجاه، وردّه إلى أمه، وأخرجه من الخوف، ثم جاء في الوقت الذي قدره الله، واختاره لحمل رسالته. ولا نملك أن نحدد لكل مرحلة وظيفة خفية لم يذكرها الوحي، لكن السياق يقرر يقينًا أن مسيرته لم تخرج لحظة عن علم الله ورعايته وتقديره.

وحين أمره الله أن يذهب إلى فرعون، لم يقدم موسى نفسه على أنه رجل لا يعرف الخوف ولا يحتاج إلى أحد. دعا ربه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَٰرُونَ أَخِى ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: 25-32].

القوة التي يبنيها الإيمان لا تحتاج إلى ادعاء الاستغناء. عرف موسى ثقل المهمة، وسأل شرح الصدر وتيسير الأمر ووضوح البيان، ثم طلب أخًا يشد أزره. لم ير مشاركة هارون نقصًا في مكانته؛ فالمقصود أن تبلغ الرسالة، لا أن يظهر صاحبها منفردًا بصورة البطل.

يكشف التكليف مقدار ما يخشاه الإنسان من اعترافه بحاجته. قد يفسد عملًا كاملًا لأنه لا يريد أن يقال إنه استعان بغيره، أو يخفي نقص علمه، أو يرفض شريكًا كفؤًا يخشى أن ينازعه التقدير. وفي العمق لا تكون المشكلة ضعف القدرة، وإنما عبودية الصورة.

ثم أمر الله موسى وهارون، وهما ذاهبان إلى أعتى طاغية:

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: 44].

لم تجعل مواجهة فرعون الغلظة فضيلة مطلقة. بقي الخطاب محكومًا بأمر الله، لا بما يستحقه الطاغية في شعور الداعية. فالرجل القوي لا يترك الخوف يمنعه من قول الحق، ولا يترك الغضب يختار له الطريقة التي يقول بها الحق.

وعبودية موسى تجمع أمورًا قد يفرقها الناس: شجاعة تقف أمام الباطل، وافتقار يسأل الله شرح الصدر، وصدق يعترف بالحاجة إلى المعين، وانضباط لا يسمح للعداوة أن تنقل صاحب الحق إلى أخلاق خصمه.

ليست القوة أن تقول: أستطيع وحدي.

القوة أن تعرف ما أمرك الله به، وما تحتاج إليه لأدائه، ثم تمضي مستعينًا به.

يوسف: قلب لا تغيره المواقع

سيأتي يوسف عليه السلام في وحدة البلاء قبل التمكين من جهة تتابع مراحل الإعداد. أما موضعه هنا فأضيق: كيف بقي قلبه محكومًا بالتقوى والإحسان، حين كان ضعيفًا أمام الفتنة، ومظلومًا في السجن، وقادرًا على من آذاه؟

في بيت العزيز أغلقت الأبواب، وحضرت دواعي الفتنة، فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 23].

ثم نسب القرآن الحفظ إلى الله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24].

صرف الله عنه السوء والفحشاء، واستعاذ يوسف بربه، واتجه إلى الباب هاربًا من موضع الفتنة. ففي العفة فضل من الله، وعبودية من الإنسان؛ لا يتكل العبد على صلاح سابق، ولا يختبر نفسه بالاقتراب من الحرام، وإنما يفتقر إلى الحفظ ويأخذ بأسباب النجاة.

يكشف الخلوة حقيقة لا تظهر أمام الناس: هل يحتاج الإنسان إلى أعينهم حتى يستقيم؟ وقد يكون المرء قويًّا في مواجهة خصومه، ثم يهزم أمام شهوة لا يراه فيها أحد. وحامل الأمانة الذي لا يملك نفسه في الخفاء قد يجعل سلطته وعلمه وذكاءه أدوات أوسع لهواه.

ثم دخل يوسف السجن مظلومًا، فرآه صاحباه على الصفة التي عبرا عنها بقولهما: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 36].

وبعد تغير المكان وامتلاك القدرة، قال إخوته له العبارة نفسها: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 78].

بقي الإحسان ظاهرًا في السجن وعند القدرة. فالخلق الذي يعيش ما دامت الظروف مريحة لم يستقر بعد، والإحسان الذي يسقط عند الظلم كان متعلقًا بحسن معاملة الناس، أكثر من تعلقه بعبودية الله.

ثم وقف إخوته بين يديه، وقد صار قادرًا على أن يذيقهم بعض ما أذاقوه، فقال:

> ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: 92].

لم يكن العفو إنكارًا لما وقع، ولا عجزًا عن أخذ الحق. كان قدرة على منع الجرح القديم من أن يقود القرار الحاضر. وقد يكون الإنسان صابرًا حين لا يملك، ثم تكشفه القدرة: هل يستعملها في العدل، أم يجعلها فرصة لتعويض سنوات الضعف بالانتقام؟

عبودية يوسف أن يطلب حفظ الله عند الفتنة، ويختار ألم الطاعة على لذة المعصية، ويحسن في المكان الذي لم يختره، ثم يملك غضبه حين يملك من ظلمه.

هنا تظهر قوة القلب: ألا تغلبه شهوته حين يختلي، ولا مرارته حين يظلم، ولا نزعة الانتقام حين يقدر.

محمد ﷺ: رحمة لا يفسدها الألم

سألت عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحد؟ فذكر ما لقيه حين عرض نفسه على أهل الطائف، وما أصابه من الهم بعد ردهم. ثم عرض عليه ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين، فقال ﷺ:

> «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا» رواه البخاري (3231)، ومسلم (1795).

لم يخف النبي ﷺ ما أصابه؛ أخبر أنه انطلق مهمومًا. فالرسالة لا تجعل صاحبها بلا مشاعر، والرحمة لا تعني أن الأذى لا يؤلم. لكن الألم، حين حضرت القدرة على العقوبة، لم يختصر القوم في اللحظة التي ردوه فيها، ولم يحول غاية الدعوة من هدايتهم إلى الانتقام منهم.

كان ﷺ يرى مستقبلًا لا تراه الجراح القريبة: ربما يخرج من أصلاب هؤلاء من يعبد الله. ضيقوا عليه الطريق، فلم يضيق الأذى أفق رحمته. رفضوه، فلم تتحول الرسالة في قلبه إلى معركة لإثبات ذاته، أو إلى رغبة في أن يرى من آذاه محطمًا.

وخاطبه ربه بما يجمع معرفة الألم وتوجيه العبودية: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: 97-99].

يعلم الله ضيق صدر نبيه ﷺ، ثم يرده إلى التسبيح والسجود والعبادة. لم يكن الطريق إنكار الحزن، ولا ترك القلب تحت سلطان أقوال الناس؛ كان أن يستعيد العبد موضعه بين يدي الله، حتى لا يعيد الألم تشكيل رسالته وأخلاقه.

يكشف الأذى ما يريده الداعية حقًّا. قد يبدأ طالبًا هداية الناس، ثم يطول صدهم له، فيصبح همه أن يهزمهم أو يثبت تفوقه عليهم. وقد يدافع عن الحق، ثم تختلط المعركة بجرحه الشخصي، فيستعمل الدين لتصفية حساب لم يعد يميز حدوده.

وعبودية هذا الموطن أن يبقى الحق حقًّا، والرحمة رحمة، والعدل عدلًا، مهما اشتد الأذى. يواجه الباطل حين يجب، ويحمي المؤمنين، ويقيم الحدود التي شرعها الله، لكنه لا يجعل الغضب الشخصي مصدر حكمه، ولا يمنح الألم حق تغيير غاية الرسالة.

بلغت القوة غايتها حين كان الجرح حاضرًا، والقدرة على العقوبة حاضرة، وبقي القلب يريد لهم عبادة الله.

ما تبنيه مواطن الابتلاء

تظهر في هذه النماذج سنة عامة من غير أن نحول تفاصيلها إلى تفسير لكل حادثة تقع لنا: يتولى الله أولياءه بالهداية والحفظ والتثبيت، ويبتليهم بما تظهر فيه عبوديتهم، ويفتح لهم في كل موطن بابًا من الطاعة يلائم ما يواجهونه.

ابتلى إبراهيم، فظهر تمام التسليم. وأحاط موسى بعنايته، ثم أرسله وهو مستعين بربه ومستظهر بأخيه. وصرف عن يوسف السوء، فثبتت عفته وإحسانه في اختلاف المواقع. وعلم ضيق صدر نبيه محمد ﷺ، فرده إلى العبادة، وحفظ رحمته من أن يغيرها الأذى.

وتكشف هذه المواطن القلب عند حدوده الحقيقية. ماذا يفعل حين تمس الطاعة محبوبه؟ كيف يتصرف حين يخاف؟ هل يطلب المساعدة أم يحمي صورته؟ ماذا يصنع حين تغيب أعين الناس؟ هل يبقى محسنًا إذا ظلم؟ وما الذي يخرج منه حين يقدر على من آذاه؟

أما العبودية فلا تنتظر كشف المستقبل. تتم ما أمرك الله به، وتسأله العون، وتطلب من أهل القدرة ما تحتاج إليه، وتفر من الفتنة، وتحسن في المكان الذي وضعت فيه، وتضبط غضبك عند القدرة، وترد قلبك إلى العبادة كلما ضاق بأذى الناس.

لا تقل عند كل تأخر: إن الله يصنعني لأمر عظيم. لا تعلم ما كتب لك، وقد يكون هذا الظن بابًا خفيًّا لتزكية النفس. قل بدلًا من ذلك: هذه الأمانة التي بين يدي معلومة، وهذه الصفة التي كشفها الموقف ظاهرة، وهذه الطاعة التي أطالب بها الآن أصدق من كل مستقبل أتخيله.

حين تجتمع خصال الطريق

عاد إلى المواقف التي كان يراها متفرقة، فرآها بميزان واحد. أتم واجبًا ثقل عليه، وطلب عونًا في عمل لا يحسنه، وأغلق بابًا عرف ضعفه عنده، ورد على أذى من غير أن يجعل جرحه مصدر حكمه.

لم يصبح بلا خوف أو ألم أو حاجة. لكن الخوف لم يلغ التكليف، والحاجة لم تدفعه إلى ادعاء الاستغناء، والخلوة لم تفصل سلوكه عن مراقبة الله، والأذى لم يغير غاية ما يحمل.

هكذا تتكون خصال أهل الأمانة: تسليم لا يتراجع حين تمس الطاعة المحبوب، وقوة تعرف افتقارها، وعفة تطلب حفظ الله، وإحسان لا تغيره المواقع، ورحمة لا تسمح للجراح أن تفسد غاية الرسالة.

ليست صناعة الرجال وعدًا بأن كل متألم سيصير قائدًا، وإنما تربية تجعل الإنسان أصدق مع الله، وأملك لنفسه، وأوفى بما كلف به، سواء اتسع عمله أم بقي خفيًّا.

وإذا كانت الأمانات تحتاج إلى نفوس تنضج فيها هذه الخصال، بقي سؤال يشتد كلما طال الطريق وكثر البذل:

لماذا يتأخر النصر؟

بعد ابتلاء النفوس يأتي ابتلاء الزمن.

الوحدة الثامنة عشرة: لماذا يتأخر النصر؟

عبودية الطريق حين لا تظهر الثمرة

كان يفتح الأخبار كل صباح، يبحث بين عناوينها عن علامة صغيرة تقول إن الموازين بدأت تتغير. مضت أعوام من الدعاء والعمل والبذل، وسقط رفاق، وتعطلت مشروعات، واتسع ظلم كانوا يظنون أنه يقترب من نهايته. ثم جاءت انتكاسة جديدة، كأن الطريق يعيدهم إلى بدايته.

أغلق هاتفه، وقال بصوت لم يقصد أن يسمعه أحد:

إلى متى؟

لم يكن ينكر قدرة الله، ولم يتخل عن الحق الذي عرفه. لكنه كان قد رسم للنصر موعدًا لم يشعر بأنه رسمه، وتخيل له طريقًا وأشخاصًا وصورة محددة. فلما لم تأت الأقدار وفق تصوره، اختلط في قلبه تأخر ما توقعه بتأخر وعد الله.

وفي زمن الانتظار لا يُختبر صبر الإنسان على الألم وحده؛ يُختبر تصوره عن الله، وصدق غايته، وحدود طاعته حين تغيب الثمرة.

حين يبلغ الطريق حد السؤال

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214].

وقد مرت هذه الآية من قبل عند تقرير أن طريق الإيمان لا يخلو من البأساء والضراء. ونعود إليها هنا من جهة أخص: ماذا يصنع طول انتظار النصر في القلب، وكيف تكون العبودية حين لا يملك المؤمن موعد الفرج؟

لم تتحدث الآية عن قوم ضعفت صلتهم بالله عند أول مشقة، وإنما عن رسول والذين آمنوا معه. مستهم البأساء والضراء، ثم بلغ بهم الاضطراب حدًّا سماه القرآن زلزالًا، ومن قلب تلك الشدة خرج السؤال: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾.

لم يعبهم الوحي لمجرد السؤال، ولم ينكر ما أصابهم. أثبت الألم والزلزال، ثم جاء الجواب الذي يمنع التعب من أن ينقلب يأسًا: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

تقرر الآية سنة الطريق: قد يطول البلاء بأهل الإيمان حتى يبلغوا غاية الشدة، ويبقى وعد الله ثابتًا لا تسقطه قسوة الواقع. لكنها لا تمنح أحدًا تاريخًا يحدد به ساعة النصر، ولا تجعل كل جماعة موعودة بأن تشهد هي الصورة التي تتمناها منه.

قرب النصر في الآية يقين يثبت القلب، وليس موعدًا يضعه البشر. فالله يعلم متى يأتي نصره، وكيف يأتي، ومن يشهده، وما الطريق الذي يقدمه. أما المؤمن فيعلم أن الوعد حق، وأن الله لم يغفل، وأن شدة الطريق لا تعني أن الأمر خرج عن حكمته.

الوعد الذي نضيف إليه من عندنا

قلما يكتفي الإنسان بالوعد كما جاء. يضيف إليه تصوراته: سينتصر الحق قريبًا، وعلى يد الأشخاص الذين يعرفهم، وبالوسيلة التي يعملون بها، وفي الزمن الذي تسمح لهم أعمارهم بإدراكه. ثم تذوب هذه الإضافات في قلبه حتى لا يعود يفرق بينها وبين الوعد الإلهي نفسه.

قد يكون ما يحمله الإنسان حقًّا، ولا تكون جميع خططه صائبة. وقد تكون الغاية مشروعة، ولا تكون الجماعة التي ينتمي إليها هي الصورة الوحيدة لنصرتها. وقد ينصر الله الدين، ويسقط في الطريق أسماء ووسائل ظن أصحابها أن الوعد متعلق ببقائها.

اليقين بالله أن تثق بما أخبر، لا أن تلزمه بما تخيلت. فإذا تغيرت الخطة، أو غاب قائد، أو انتهى مشروع، لم يسقط وعد الله؛ الذي سقط صورة بشرية كان ينبغي أن تبقى قابلة للفحص والمراجعة.

وقد يؤدي إنسان واجبه كاملًا، ثم يموت قبل أن يرى أثره الواسع. ليس هذا فشلًا؛ فالعبد يحاسب على صدق ما حمل، لا على إدراك كل ثمرة. ورب كلمة حفظت حقًّا في زمن غلب فيه الباطل، ثم صارت بعد صاحبها أصلًا يبني عليه آخرون.

المؤمن يريد النصر، ويدعو به، ويبذل له، لكنه لا يشترط على الله أن يجعله حاضرًا في المشهد الأخير، أو أن يكون اسمه في صدره.

ما نعلمه من أسباب وما لا نعلمه

لا يملك أحد تفسيرًا جامعًا لكل تأخر. فلا يصح أن يقال عن كل نصر أبطأ: إن أهله لم يصدقوا، أو إن فيهم ذنبًا مخصوصًا، أو إن الله يريد إعدادهم لمرحلة بعينها. هذه أحكام غيبية لا تثبت لمجرد أن النتيجة لم تظهر.

وفي الوحي أسباب معلومة ينبغي ألا نهرب منها إلى الحديث المجمل عن الحكمة. قال الله تعالى:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: 46].

ربطت الآية بين التنازع والفشل وذهاب القوة، وأمرت بالطاعة والصبر. فحين نجد تنازعًا، أو ظلمًا، أو إهمالًا للعلم، أو ضعفًا في الإعداد، لا يجوز أن نحمي التقصير بقولنا: للنصر موعد يعلمه الله. نعم، الموعد إلى الله، لكن الطاعة والإعداد والعدل واجبات علينا.

ومع ذلك لا نملك أن نجزم بأن خللًا معينًا هو السبب الغيبي الوحيد لتأخر نصر بعينه. قد نعلم أن التنازع يضعف الصف، فنعالجه؛ لكننا لا نقول: لو زال هذا الخلاف لجاء النصر في اليوم التالي. نعرف التكليف، ولا نعرف جميع أسرار التقدير.

والميزان أن نحاسب أنفسنا فيما ظهر، ولا نتكلف علم ما خفي. نصلح معصية ثبتت، ونرد حقًّا ضاع، ونغير وسيلة فشلت، ونستكمل سببًا أهملناه، ثم نبقى مفتقرين إلى الله؛ فلا نزعم أن صلاحنا يوجب عليه نتيجة في الزمن الذي نختاره.

لسنا مأمورين بتبرئة أنفسنا، ولا باتهامها بما لا نعلم.

ماذا يكشف طول الطريق؟

تكشف المواجهة مقدار الخوف، ويكشف الانتظار مقدار العجلة. قد يثبت الإنسان في موقف شديد، ثم يعجز عن أداء الواجب نفسه سنوات من غير نتيجة واضحة. فالحماس يحمل الأعمال أيامًا، أما الوفاء فيحملها حين تصبح الطريق متكررة، ثقيلة، قليلة التصفيق.

وقد يبدأ العمل لأن الحق يستحق أن يُخدم، ثم تتحول الثمرة إلى شرط خفي للاستمرار. يبذل صاحبه ما دام الأثر ظاهرًا، والناس مجتمعين، والأرقام تصعد. فإذا تأخر التغيير، شعر أن الطاعة فقدت معناها؛ كأن قيمة العمل لم تكن في كونه واجبًا، وإنما في إحساسه بأنه ينتصر.

ويكشف الانتظار تعلق الإنسان بدوره. قد يقول إنه يريد ظهور الحق، ثم يضيق إذا تقدم غيره، أو نجحت وسيلة لم يقترحها، أو بدا أن الثمرة ستأتي بعد أن يغيب. عندئذ يظهر السؤال الذي لم يكن يريد سماعه: هل يريد أن ينتصر الحق، أم يريد أن يكون هو وجه انتصاره؟

ويكشف كذلك شهوة التحكم. يريد أن يعرف كم بقي من الطريق، وما العلامة التي تسبق نهايته، وفي أي مرحلة يقف. يطمئن حين يملك خريطة كاملة، ويضطرب إذا طلب منه أن يطيع الله من غير أن يعرف متى تتغير النتائج.

وقد يلبس الاستعجال ثوب الغيرة على الدين، فيبرر تجاوزًا أو ظلمًا أو كذبًا؛ لأن الطريق المشروع في نظر صاحبه بطيء. يبدأ يريد نصرة الحق، ثم يضحي بشيء من الحق ليصل إليه سريعًا. وهنا يصير تأخر النتيجة كاشفًا لما كان يخفيه النجاح العاجل.

السؤال الأعمق في الانتظار ليس: كم بقي؟

السؤال: هل أبقى عبدًا لله إذا لم أعرف كم بقي؟

«ولكنكم تستعجلون»

شكا خباب بن الأرت رضي الله عنه وأصحابه إلى النبي ﷺ ما يلقونه، وسألوه أن يستنصر لهم ويدعو لهم. فذكر لهم ما أصاب المؤمنين قبلهم من عذاب، وأكد أن الله سيتم هذا الأمر، ثم قال:

> «ولكنكم تستعجلون» رواه البخاري (3612).

لم يكونوا متفرجين يطلبون ثمرة لم يدفعوا ثمنها؛ كانوا يعذبون في الله، ويثبتون على دينهم. ومع صدقهم وبذلهم بقي في النفس البشرية استعجال يحتاج إلى توجيه. فالصدق لا يلغي الضعف الإنساني، والتربية النبوية لا تحتقر الألم؛ تصحح المقياس الذي يحكمه.

وليس الاستعجال مجرد محبة زوال الظلم؛ فطلب النصر والعافية مشروع. يظهر الخلل حين يجعل الإنسان الزمن الذي يراه مناسبًا معيارًا لحكمة الله، أو حين يترك واجبه لأن النتيجة لم تأت بالسرعة التي توقعها.

وقد يدخل هذا المعنى في الدعاء. قال النبي ﷺ:

> «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي» رواه البخاري (6340)، ومسلم (2735).

وقد مر هذا الحديث عند الكلام على الدعاء في البلاء، وموضعه هنا أخص: أثر طول الانتظار في قلب الداعي، وخطر أن يحول تأخر ما طلبه رجاءه إلى استحسار وترك للدعاء.

لا ينهى الحديث عن تكرار الدعاء، ولا عن شدة الرغبة في الإجابة؛ ينهى عن استعجال يورث الاستحسار وترك الدعاء. فالمؤمن يدعو لأنه عبد، ويرجو لأن ربه كريم، ويعلم أن الإجابة ليست عقدًا يضع هو أجله ثم ينسحب إذا انقضى.

عبودية الزمن الذي لا نملكه

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: 123].

الغيب لله، والأمر كله إليه؛ وهذا حد ما لا يملكه الإنسان. ثم جاء التكليف: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾؛ وهذا ما يملكه ويحاسب عليه. وقد جاء الأمر بالعبادة والتوكل متفرعًا على رجوع الأمر كله إلى الله.

عبودية الانتظار أن تعمل من غير ضمان بشري للنتيجة، وتراجع من غير أن تتحول المراجعة إلى قنوط، وتدعو من غير أن تضع للإجابة أجلًا، وتثق بوعد الله من غير أن تقدس تفسيرك لكيفية تحققه.

وأن تثبت على حدود الشرع حين يعرض عليك اليأس طريقًا أقصر. فلا تكذب دفاعًا عن الحق، ولا تظلم طلبًا لرفع الظلم، ولا تخون عهدًا لتقوي صفك، ولا تحول الناس إلى أدوات في قضية تزعم أنها أكبر منهم. فالحق لا ينصر بإهدار الحق.

ومن العبودية أن تغير الوسيلة إذا ثبت ضعفها، من غير أن تسمي التردد حكمة أو الجمود ثباتًا. الثبات يكون على أمر الله، لا على كل خطة بشرية. قد تحافظ على الغاية وتترك طريقًا إليها، وتبقى وفيًّا للأمانة وأنت تتنحى عن موقع صار غيرك أصلح له.

وأن تبني عملًا يحتمل طول الطريق. فلا تستهلك الناس بوعود لا تملكها، ولا تجعل كل عام «العام الحاسم»، ولا تؤجل علاج الخلل انتظارًا لفتح يغطيه. تعمل لليوم، وتغرس لما بعدك، وتؤدي نصيبك من غير أن تحمل نفسك ما لم يكلفك الله به.

حين عاد إلى الاجتماع

عاد صاحبنا إلى رفاقه، ولم يحمل إليهم تفسيرًا غيبيًّا لتأخر النصر. لم يقل إن الله يعاقبهم بذنب محدد، ولا إنه يعدهم حتمًا لفتح قريب. قال إن في أيديهم أشياء يعلمونها، وأشياء استأثر الله بعلمها.

راجعوا خطتهم، فوجدوا جهدًا استنفد نفسه ويحتاج إلى التوقف، وعملًا نافعًا يحتاج إلى نفس أطول، وخلافات أخفاها استعجال الثمرة، وحقوقًا ضاعت لأنهم أقنعوا أنفسهم بأن المرحلة لا تحتمل التأخير. أصلحوا ما استطاعوا، من غير أن يزعموا أن إصلاحه يمنحهم موعد النصر.

ثم فصلوا بين وعد الله وصورتهم عنه. لم يعد قيام الحق مشروطًا بأن يقودوه هم، أو أن يدركوا تمامه، أو أن يأتي بالطريق الذي أحبوه. صار سؤالهم أقل إثارة، لكنه أكثر صدقًا:

ما الواجب الآن؟

لم يزل الظلم، ولم تأت النتيجة التي يرجونها، لكن الانتظار لم يعد فراغًا بين وعد ووفاء. صار ميدان عبودية: دعاء لا يستحسر، وعمل لا يعبد الثمرة، ومراجعة لا تدعي علم الغيب، وصبر لا يجمد الوسائل، وتوكل يرد الأمر إلى صاحبه.

فتأخر النصر في تقدير البشر لا يبيح لهم أن يفسروا سر الله، ولا أن يحددوا موعده، ولا أن يعطلوا واجبهم. يكشف طول الطريق هل عبدوا الله، أم عبدوا شعور التقدم؛ وهل أرادوا ظهور الحق، أم ظهور أسمائهم معه.

وهكذا يستقيم القلب في زمن التأخر: يوقن أن الله لم يغفل، ويرى في طول الطريق ما يكشف عجلته وتعلقه بالنتائج والأدوار، ثم يعود إلى ما يملكه: دعاء وعمل وتصحيح وتوكل. يترك لله زمن الثمرة وصورتها، ويحرس نفسه من أن يفسد الحق استعجالًا لنصره.

قد لا تعرف متى يأتي النصر، لكنك تعرف أين ينبغي أن يجدك إذا جاء:

على الطاعة، لا على حافة اليأس؛

وفي العمل، لا في أسر التوقع؛

ومتعلقًا بالله، لا بالموعد الذي وضعته له.

وحين تأتي القوة بعد طول انتظار، يبدأ ابتلاء آخر؛ فقد يصبر الإنسان وهو محروم، ثم تتغير نفسه حين يملك. ولهذا ننتقل من عبودية الزمن إلى أهلية ما بعده:

كيف يبني البلاء من يستطيع حمل التمكين من غير أن يفسده التمكين؟

فليس كل من صبر حتى وصل، يعرف كيف يبقى عبدًا بعد الوصول.

الوحدة التاسعة عشرة: البلاء قبل التمكين

حين تُبنى أهلية القوة

كان يعرف أخطاء مديره واحدًا واحدًا: يستأثر بالقرار، ويضيق بالنقد، وينسب النجاح إلى نفسه، ثم يوزع الفشل على من حوله. وكان يردد كلما خرج من مكتبه غاضبًا: لو صار الأمر بيدي، لعرف الناس كيف يكون العدل.

ثم وضعت في يده مسؤولية صغيرة: فريق محدود، وميزانية يسيرة، وقرار لا يكاد يتجاوز غرفة العمل. لم تمض أسابيع حتى بدأ يحجب بعض المعلومات ليبقى صاحب الكلمة، ويغضب ممن يخالفه، ويؤخر الاعتراف بخطئه؛ لأن الاعتراف يضعف الصورة التي يريد أن يراها الناس.

كان يظن أن ما ذاقه من الظلم جعله أهلًا للعدل. فلما امتلك مساحة صغيرة من القوة، اكتشف أن معرفة قبح الظلم لا تمنع الإنسان دائمًا من ممارسته.

فالقوة لا تبدل القلب لحظة وصولها؛ إنها توسع أثر ما استقر فيه. إن دخلها الإنسان بعلم وأمانة وعدل، اتسع نفعه. وإن دخلها بهوى لم يعالجه، صار هواه أقدر على إيذاء الآخرين.

يعرض القرآن نماذج جاء فيها التمكين بعد مراحل ظهرت خلالها خصال لازمة لحمله. لكنه لا يحول هذا التتابع إلى وعد عام بأن كل مبتلى سيملك، أو أن كل محروم يُعَد لمنصب. قد يمضي المؤمن إلى ربه من غير تمكين دنيوي، ويكون نجاحه الكامل أنه أدى أمانته حيث أقامه الله.

السؤال هنا ليس: هل يأتي التمكين بعد كل بلاء؟

السؤال: ماذا يحتاج الإنسان قبل أن تتسع قدرته على الفعل؟

يوسف: علم يحسن التدبير، وأمانة تحفظ الحقوق

سبق أن وقفنا عند يوسف عليه السلام من جهة عفته وإحسانه في اختلاف المواقع. ونعود إليه هنا من موضع أخص: ما الذي ظهر قبل أن توضع خزائن الأرض في يده؟

حين رأى الملك رؤياه، لم يكتف يوسف بتفسيرها، بل قدم خطة تمتد عبر سنوات الخصب والمجاعة:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: 47-48].

كان علمه متصلًا بحياة الناس؛ تحول من معرفة إلى تدبير، ومن تفسير للواقع إلى استعداد لما سيأتي. حدد مقدار الاستهلاك، وطريقة الحفظ، وزمن الادخار، فدل على عقل يرى العواقب ولا يستهلك الحاضر حتى يترك المستقبل للجوع.

ثم استدعاه الملك، فلم يخرج حتى تظهر براءته، فقال:

﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: 50].

لم يطلب يوسف تبرئة ساحته طلبًا لزينة الاسم، وإنما دخل إلى المسؤولية العامة والحق ظاهر، والثقة محفوظة. فالسلطة لا ينبغي أن تصبح غطاءً يخفي به صاحبها ملفًا يستطيع إيضاحه، ولا وسيلة يمحو بها الأسئلة المتعلقة بأمانته.

ثم قال الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 54-56].

وقد مرت هذه الآيات من قبل في سياق ما آل إليه ابتلاء يوسف من فرج وتمكين، ونعود إليها هنا من جهة أخص: الصفات التي ظهرت قبل أن تتسع مسؤوليته، وكيف اجتمع في حامل الخزائن الحفظ والعلم.

اجتمعت في الآيات ألفاظ الأهلية: أمين، وحفيظ، وعليم. ثم نسب الله التمكين إلى نفسه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾. فالموقع فضل من الله، والأهلية أمانة، والعمل بعد الوصول عبودية جديدة.

لم يطلب يوسف خزائن الأرض لأنه عانى أكثر من غيره، أو لأن السجن منحه حقًّا في التعويض. طلبها لعلمه بحاجات المرحلة، وقدرته على حفظ ما يوضع في يده. فحقوق الناس لا تمنح للإنسان جبرًا لخاطره، وإنما يحملها من يستطيع أداءها.

يكشف انتظار الموقع ما يريده الإنسان منه: هل يطلبه ليؤدي حقًّا يعرفه، أم ليعوض به سنوات شعر فيها بالهوان؟ وهل بنى علمًا يحسن به العمل، أم اكتفى بثقته في صلاح نيته؟

وعبودية هذا المقام أن يتعلم قبل أن يتقدم، وأن يعرف ما يستطيع حفظه، وألا يجعل المعاناة شهادة كفاءة. فالمنصب لا يكافئ صاحبه على ما تألم.

إنه تكليف جديد، وحقوق جديدة، وحساب أثقل.

موسى: الأمانة قبل اتساع المهمة

خرج موسى عليه السلام من مصر خائفًا، ووصل إلى مدين غريبًا لا يملك مالًا ولا نصيرًا. ورأى عند الماء امرأتين تحبسان غنمهما عن الزحام، فسقى لهما، ثم رجع إلى الظل يدعو ربه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24].

جمع الموقف قوة تبادر إلى نجدة الضعيف، وعفة لا تستغل الحاجة، وافتقارًا يعرف أن الخير كله من الله. ثم قالت إحداهما لأبيها: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: 26].

القوة تنجز، والأمانة تحفظ اتجاه الإنجاز. فإذا انفصلتا عجز الأمين عن حق لا يحسن أداءه، أو اتسع ضرر القادر الذي لا تؤمن خيانته. وأهلية المسؤولية تحتاج إليهما معًا: قدرة تناسب العمل، وخُلقٌ يمنع القدرة من أن تنحرف.

ثم عقد موسى على نفسه أن يعمل أعوامًا، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: 28].

وبعد ذلك سجل القرآن وفاءه بكلمات قليلة: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ [القصص: 29].

لا يخبرنا القرآن أن كل عام في مدين كان تدريبًا على شأن مخصوص من الرسالة، فلا نتكلف علاقة تفصيلية لم ينص عليها الوحي. لكنه يرينا قبل النداء عند الطور رجلًا يحفظ عقدًا، ويتم عملًا هادئًا، ويؤدي واجبًا لا يصاحبه سلطان ولا شهرة.

وهنا ينكشف القلب الذي يتطلع إلى الأعمال الكبرى: هل يحفظ الأمانة حين تكون محدودة وخفية؟ هل يتم الأجل إذا زالت حماسة البداية؟ هل يؤدي حق من استأجره، أم يرى العمل الصغير مرحلة عابرة لا تستحق كامل صدقه؟

وقد يكون الإنسان صالحًا في دينه، كريم القلب، ولا يكون أهلًا لولاية معينة؛ لأن الأهلية الخاصة تحتاج إلى قدرة قد لا يملكها. قال النبي ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه حين سأله الإمارة:

> «يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها» رواه مسلم (1825).

لم ينف النبي ﷺ فضل أبي ذر، وإنما فرق بين صلاح الرجل وأهليته لموقع مخصوص. فحسن القصد لا يجبر ضعف القدرة حين تتعلق بها حقوق الناس، والتقوى تحمل صاحبها على ترك ما لا يحسن كما تحمله على أداء ما يحسن.

عبودية ما قبل التمكين أن يحفظ الإنسان عهده، ويتم عمله الخفي، ويتعلم ما يحتاج إليه، ويعترف بحدود قدرته، ولا يجعل شوقه إلى الموقع أكبر من خوفه من تضييع حقوقه.

فالأمانة لا تسأل: كم تحب أن تتولى؟

تسأل: ماذا تستطيع أن تؤدي إذا توليت؟

طالوت: النهر قبل الميدان

طلب بنو إسرائيل من نبي لهم أن يبعث لهم ملكًا يقاتلون معه، ثم اعترضوا حين اختار الله طالوت، فجاءهم الميزان الذي لم ينظروا إليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: 247].

اختار الله للقيادة علمًا يوجه، وقوة تحمل. غير أن صلاح القائد لا يجعل الصف كله صالحًا للمواجهة؛ لذلك جاء الابتلاء قبل لقاء العدو: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: 249].

كان النهر قبل السيف، وضبط الرغبة قبل مواجهة الخطر. ولم يؤمروا بترك الماء كله؛ أبيحت لهم غرفة تسد الحاجة. فالامتحان لم يكن في تعذيب الجسد، وإنما في الوقوف عند الحد حين تكون الرغبة حاضرة والماء قريبًا.

تظهر الأهلية أحيانًا في موقف يبدو أصغر من المهمة الكبرى. يحمل الإنسان شعارًا عظيمًا، ثم لا يضبط نفسه عند منفعة عاجلة. يعد بالطاعة في ساعات الخطر، ثم يعجز عنها أمام رغبة يستطيع تأجيلها. ومن لا يملك نفسه عند النهر، قد لا يملكها حين تقع في يده غنائم النصر.

وبعد تجاوز النهر جاءت كثرة العدو اختبارًا آخر: ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 249].

لم تنكر الفئة المؤمنة حساب الأسباب، ولا ادعت أن القلة كثرة. رأت الواقع كما هو، ثم لم تجعل العدد مستقلًّا بصناعة النتيجة. ربطت الغلبة بإذن الله، واستندت إلى معيته للصابرين.

وحين برزوا للقتال قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 250-251].

طلبوا الصبر قبل النصر، والثبات قبل الغلبة؛ لأن الميدان لا يحمله من يريد النتيجة ولا يملك نفسه في الطريق إليها. وفعل النصر منهم ظاهر: ثبتوا وقاتلوا، وفاعله الأعلى هو الله: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾.

في هذا المشهد يختار الله طالوت، ويبتلي الصف بالنهر، ويكشف تفاوت الاستجابات، ثم يأتي النصر بإذنه. ويظهر عند النهر مقدار الطاعة، وعند رؤية الكثرة مقدار اليقين، ويكون واجب المؤمنين ضبط النفس، والصبر، والدعاء، وبذل السبب.

فالأمة لا تحتاج إلى كل من أعلن استعداده للسير.

تحتاج إلى من يبقى أمينًا حين يأتي النهر.

المعاناة لا تمنح شهادة الأهلية

تجمع النماذج الثلاثة معنى لا يجوز إغفاله: البلاء قد يكشف، ويهذب، ويفتح باب التعلم، لكنه لا يمنح صاحبه شهادة تلقائية بأنه أصبح أهلًا للقوة.

من ظُلم لا يصير عادلًا بمجرد ظلمه. ومن عاش الفقر لا يحسن إدارة الأموال ضرورة. ومن سُجن لا يصبح مؤهلًا للحكم لأنه خرج من السجن. ومن صبر على الأذى قد يبقى محتاجًا إلى علم وخبرة وخلق لا يغني عنها صدق معاناته.

يظهر الانتفاع بالبلاء فيما يتركه من أثر: هل علّم صاحبه معرفة حدوده، أم أورثه شعورًا بالاستحقاق؟ هل زاده حفظًا للحقوق، أم جعله يرى السلطة تعويضًا عما فقد؟ هل صارت تجربته باب رحمة وعدل، أم حجة يمنح بها نفسه ما يمنعه عن الآخرين؟

كما لا يصح أن يفسر كل باب مغلق بأنه إعداد لمنصب أكبر. ربما كان المنع حماية، أو صرفًا إلى عمل أصلح، أو نتيجة لتقصير ينبغي علاجه، أو قدرًا خفيت حكمته. وقد لا يفتح الباب في الدنيا أصلًا، ويبقى على العبد أن يؤدي ما بين يديه.

نحن نعلم من قصص يوسف وموسى وطالوت أن التمكين الذي ذكره القرآن سبقه ظهور علم وأمانة ووفاء وطاعة وصبر. ولا نعلم من ذلك أن كل من مر بمراحل تشبهها سينتهي إلى النتيجة نفسها.

السنن العامة تهدي العمل، ولا تمنح أحدًا نبوءة شخصية عن مستقبله.

الأهلية تبدأ من المساحة الصغيرة

عاد صاحبنا إلى ملفه المحدود، ولم يعد يراه أمرًا دون طموحه. أدرك أن المسؤولية الصغيرة لم تحرمه من إثبات أهليته؛ كشفت له مبكرًا ما كان يمكن أن يفسد مساحة أكبر.

جمع فريقه، واعترف بأنه حجب معلومات كان ينبغي أن يشاركهم بها، ورد فكرة نسب نجاحها إلى نفسه، وفتح قراراته للمراجعة. ثم تعلم ما كان يظن أن الحماسة تغنيه عنه، ووضع للعمل طريقة تستمر إذا غاب.

لم يقل: إن الله يعدني بهذا لمنصب أعظم؛ فهو لا يعلم أن منصبًا أعظم سيأتي. لكنه عرف واجبًا حاضرًا: أن يحمل ما في يده بعلم وأمانة، وألا يطلب اتساع سلطته قبل أن يتسع عدله.

وقد لا يصل إلى الموقع الذي تخيله. لكن نجاح التربية لا يقاس بوصوله؛ يقاس بأن يصبح أصلح في كل أمانة، وأقل خطرًا على حقوق الناس إذا اتسع أثره.

يبدأ الاستعداد قبل السلطة: في طريقة الاستماع إلى المخالف، وفي الاعتراف بالخطأ، وفي حفظ المال اليسير، وفي الوفاء بالعهد، وفي قبول المحاسبة، وفي القدرة على ترك الموقع حين يصبح غيرك أصلح له.

فالبلاء قبل التمكين لا يعني أن كل بلاء يعقبه ملك. معناه الذي يدل عليه القرآن في هذه النماذج أن القوة تحتاج إلى علم يحسن استعمالها، وأمانة تمنع خيانتها، وصبر يضبط النفس قبل أن تضبط الآخرين.

في يوسف ظهر الحفظ والعلم قبل خزائن الأرض. وفي موسى ظهرت القوة والأمانة والوفاء قبل المهمة الأوسع. وفي صف طالوت جاء النهر قبل الميدان، حتى لا يحمل السلاح من لا يحمل الطاعة.

وحين ينظر إلى الأمانة بهذا الميزان، لا يعود المنع وعدًا بمنصب، ولا تصبح المعاناة شهادة كفاءة. يرى اختيار الله وابتلاءه وتمكينه فضلًا وحكمة، ويرى في شوقه إلى القوة موضعًا لمحاسبة النفس، ثم يبني في مسؤوليته الحاضرة ما تحتاج إليه كل قوة: علمًا، وأمانة، وصبرًا.

فلا تسأل أولًا: متى يصبح القرار في يدي؟

اسأل: ماذا سيحدث لحقوق الناس إذا صار في يدي؟

خاتمة المحور الرابع: ما الذي يبنيه الابتلاء؟

بدأ هذا المحور من سؤال يتجاوز الألم: كيف يربي الله المؤمنين بما يمر بهم؟

في التمحيص رأينا أن الله يكشف الشائبة ويفتح باب العفو والرجوع، فلا يبقى الانكشاف خبرًا مؤلمًا، بل يصير توبة ومجاهدة وعملًا. وفي حياة الأنبياء ظهرت خصال أهل الرسالة: تسليم إبراهيم، وافتقار موسى، وعفة يوسف وإحسانه، ورحمة محمد ﷺ التي لم يغير الأذى غايتها.

وفي تأخر النصر ظهر ابتلاء الزمن؛ وعد الله حق، وموعده وصورته إليه، والعبودية عمل لا يعبد الثمرة ودعاء لا يستحسر. ثم ظهر أن التمكين يحتاج إلى علم وأمانة وقدرة وصبر؛ لأن القوة قد توسع العدل، وقد توسع الهوى.

تتجمع مراحل المحور في حركة واحدة: يكشف الله ما خفي، ويمحص ما خالط الإيمان، ويربي عبده في مواطن التكليف، ويختبره بطول الانتظار، ثم يريه أن ما يطلبه من قوة قد يكون باب ابتلاء جديد.

ويظهر القلب في هذه الطريق على حقيقته: يظهر ما فيه من غرور ومساومة، وما يخفيه من استعجال، وما يطلبه من ظهور، وما يحمله من شهوة إلى التحكم والتعويض. وتبقى العبودية واضحة: توبة بعد الانكشاف، ومجاهدة بعد التوبة، وصبر في الطريق، وعلم قبل القرار، وعدل حين تتسع القدرة.

ولا يعني هذا أن كل بلاء سيثمر في الدنيا منصبًا أو نصرًا أو عوضًا منظورًا. قد يبقى العبد في عمل خفي حتى يلقى الله، وتكون ثمرة البلاء قلبًا أصدق، وذنبًا تاب منه، وحقًّا حفظه، ودرجة لا يعلم مقدارها إلا الله.

فالتربية لا تقاس دائمًا بما تغير حول الإنسان.

ربما تكون أعظم ثمرتها ما تغير فيه.

ربما لم يعد المفقود، لكن القلب صار أقل تعلقًا بغير الله. ولم تنجح الخطة، لكن صاحبها صار أصدق وأعلم. ولم يأت الموقع، لكنه أصبح أحفظ لحقوق من تحت يده. ولم ينته الألم، لكنه لم يعد يقرر وحده كيف يرى ربه ونفسه والناس.

لهذا لا يكتمل سؤال الابتلاء بقولنا: ماذا أصابني؟ ولا بقولنا: ماذا كشف عني؟ يكتمل حين نسأل:

ماذا صار في قلبي وعملي بعد أن انكشف ما انكشف؟

إذا زادك البلاء معرفة بربك، وصدقًا مع نفسك، وعدلًا مع الناس، وبصيرة في العمل، فقد دخلت طريق التربية. أما إذا مضى الألم، وبقي الخلل محميًّا بأعذاره، فما زال من معنى الابتلاء ما لم تنتفع به.

إن الله يربي المؤمنين: يكشف لهم مواضع الخلل ليدعوهم إلى الصدق، ويمحصهم ليفتح لهم طريق التطهر، ويكلفهم فتظهر عبوديتهم، ويقدر زمن الفرج ليعبدوه في الطريق، ويمنحهم ليبلوهم فيما منح.

ولا يعني البناء أن القلب ينتقل من ضعف إلى قوة في خط مستقيم لا يعود فيه إلى شيء من عيوبه القديمة. قد يثبت الإنسان في موقف ثم يضعف في آخر، وقد يظن أن خلقًا قد زال ثم يراه يعود تحت ضغط جديد. ولا يبطل هذا كل ما سبق من تربية؛ وإنما يكشف أن مجاهدة القلب متجددة، وأن التوفيق لا يملك مرة واحدة ثم يستغني صاحبه.

ومن علامات البناء أن يعرف العبد موضع ضعفه أبكر، وأن تقصر مدة إصراره، ويسرع رجوعه، ويحسن إصلاح ما أفسد، ويخرج من كل عودة إلى الخلل أشد افتقارًا وأقل ثقة بنفسه. فالنضج ليس ادعاء السلامة من الزلل، وإنما صدق أعمق في رؤيته، ورجوع أسرع إلى الله، وعمل أصلح بعده.

وبهذا ينتهي محور البناء، ويفتح الكتاب بابه الخامس: سنن السقوط والثبات. فالقلب الذي تعلم من الابتلاء لا يستغني عن الحراسة؛ قد يبني ثم ينقض، ويثبت زمنًا ثم تزل قدمه حين تتغير الأحوال.

سننظر هناك في السنن التي يبدأ بها السقوط، والعلامات التي تسبقه، وما يحفظ الفرد والصف من الانهيار، وما يعيدهما إلى الثبات إذا زلت الأقدام.

فالابتلاء لا ينتهي دائمًا بزوال الشدة؛ قد تزول الشدة، ويبدأ امتحان الثبات على ما بنته فيك.

المحور الخامس: سنن السقوط والثبات

مقدمة المحور

قد يمر رجلان بالابتلاء نفسه، ويسمعان النصيحة نفسها، ويعرفان من الحق قدرًا متقاربًا، ثم يخرج أحدهما أثبت قلبًا، ويخرج الآخر وقد غلبه ما في نفسه أو ما حوله. ليست شدة الموقف وحدها هي التي تفسر الفرق؛ فالابتلاء لا يضغط على فراغ، وإنما يلاقي قلبًا له معرفة سابقة، وتعلقات خفية، وعادات، ومخاوف، وأعمال قديمة.

مرّ بنا أن الله يربي عباده بالبلاء؛ فيمتحن، ويمحص، ويكشف، ويبني. وينتقل النظر هنا إلى استجابة الإنسان لهذه التربية: لماذا ينتفع قلب بما يكشفه الله له، بينما يفر قلب آخر من الحقيقة؟ وكيف يصبح الامتحان نفسه طريقًا لزيادة الإيمان عند إنسان، وسببًا لاضطراب الموازين عند غيره؟

لا يملك أحد الثبات ملكًا ذاتيًا، ولا يحمل في داخله ضمانًا بأنه سيحسن التصرف حين تأتي الفتنة. قال الله تعالى:

> ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

هذا دعاء الراسخين في العلم؛ عرفوا الحق، ومع ذلك لم يأمنوا على قلوبهم بعد الهداية. رأوا أن بقاء القلب على طريقه رحمة توهب، لا منزلة يضمنها العلم أو الماضي الصالح. ومن هنا يجتمع في المؤمن أمران قد يبدو بينهما تباعد: يأخذ بأسباب الثبات كلها، ثم لا يعتمد على شيء منها اعتمادًا يغنيه عن الله.

وفي الجهة المقابلة، لا يكون كل ضعف عارض حكمًا نهائيًا على إيمان صاحبه، ولا يفسر كل سقوط بالنفاق أو فساد السريرة. قد يزل مؤمن ثم يصدق في التوبة، وقد يثبت في موقف ثم يضعف في غيره، وقد يكون التعثر نفسه بابًا لمعرفة النفس وشدة الافتقار إلى الله.

يبدأ هذا المحور بالنظر في أسباب الثبات، ثم يتتبع الطريق الذي يقع به السقوط ويتدرج، وينفذ بعد ذلك إلى الأمراض القلبية التي تغير قراءة الإنسان للبلاء، ثم ينظر في الجماعة حين يدخلها الخوف والشائعة والضغط. ولكل وحدة من هذه الوحدات موضعها: أسباب تحفظ، ومسار يحذّر، وجذور باطنة تفسد الميزان، وبيئة قد تعين أو تخذل.

ولا يراد بهذا كله صناعة قضاة على الناس، أو تحويل السنن القرآنية إلى أدوات لتصنيف الأفراد والحكم على سرائرهم. المقصود أن يعود الإنسان إلى قلبه: يعرف من أين يأتيه الثبات، وأين يمكن أن يدخل عليه الضعف، وكيف يعبد الله حين تتزاحم أمامه المخاوف والمصالح.

فالثبات ليس قصة الأقوياء الذين لا تهتز قلوبهم.

إنه قصة عباد عرفوا ضعفهم، فلجؤوا إلى من بيده القلوب.

الوحدة العشرون: لماذا يثبت بعض الناس؟

الثبات يبدأ من موضع الافتقار

وصلته الرسالة قبل انتهاء يوم العمل بقليل. طُلب منه أن يوقّع صباحًا تقريرًا يعرف أن بعض ما فيه غير صحيح. أخبره زميله أن الأمر قد حُسم، وأن رفضه لن يغير النتيجة، لكنه قد يحرمه منصبًا انتظره طويلًا، ويدخل أسرته في ضيق لا يعرف مداه.

قرأ التقرير مرة أخرى. لم يكن الحكم خافيًا عليه، ولم يكن يحتاج إلى موعظة جديدة في حرمة الكذب. غير أن الحق الذي كان واضحًا في هدوء الأيام صار الآن محاطًا بصور ثقيلة: غضب المسؤول، ونظرات الزملاء، والتزامات البيت، والمستقبل الذي قد يضطرب بتوقيع أو امتناع.

كان يعرف ما ينبغي فعله، لكنه اكتشف أن معرفة الحق لا تمنح القلب وحدها قوة حمل كلفته.

فمن أين يأتي الثبات حين يصبح الحق مكلفًا؟

الله هو المثبِّت

يجيب القرآن عن السؤال من أصله:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: 27].

أسندت الآية التثبيت إلى الله، وربطته بالإيمان والقول الثابت. فالعبد يؤمن، ويتمسك بالحق، ويتعاهد قلبه، والله هو الذي يمنحه في ساعة الاضطراب نورًا يرى به، وقوة يختار بها، ورباطًا يمنع الخوف من اقتلاع أصل موقفه.

ولا تعني نسبة التثبيت إلى الله أن يقعد الإنسان عن أسبابه؛ فالذي أمره بالدعاء أمره بالصبر والذكر والعمل، والذي وعده بالحفظ أمره أن يحفظ حدوده. لكنه يعمل وهو يعلم أن السبب نفسه هداية من الله، وأن الانتفاع به توفيق آخر، وأن القلب قد يضعف مع كثرة ما يملك من العلم والخبرة إذا وكله الله إلى نفسه.

وكان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلّب القلوب، ثبّت قلبي على دينك». رواه الترمذي (2140)، وقال: حديث حسن.

لم يكن هذا الدعاء صادرًا عن شك في الحق، وإنما عن كمال معرفة العبد بربه وبضعف القلب وتقلبه. وكلما ازداد المؤمن بصيرة قلّ اتكاله على ماضيه، فلم يقل: أعرف نفسي، أو يستحيل أن أقع فيما وقع فيه غيري.

الثقة بالله تبني الثبات، أما الثقة بالنفس فقد تحرم صاحبها أول أسبابه. من عرف أن قلبه بين يدي الله أكثر من سؤال الهداية، وخاف من مداخل نفسه، وأخذ بالأسباب من غير أن يعتمد عليها اعتمادًا يغنيه عن مسببها.

وهنا يكشف الابتلاء أول ما يكشف: إلى من يفزع القلب حين تضيق المسافة بين المعرفة والقرار؟ هل يستحضر الله، أم تمتلئ رؤيته بالمخلوق الذي يهدد، والمال الذي يخشى فقده، والمكانة التي لا يريد النزول عنها؟

حين يكبر الله في القلب

لا يثبت الإنسان لأنه لا يرى الخطر، بل لأنه لا يراه منفصلًا عن سلطان الله. قد يكون المسؤول قادرًا على فصله، والخصم قادرًا على إيذائه، والجماعة قادرة على تشويه صورته؛ لكن القدرة البشرية لا تتحول في قلب المؤمن إلى سلطان مطلق يملك رزقه وأجله وعاقبته.

قال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما:

> «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك». رواه الترمذي (2516)، وقال: حديث حسن صحيح.
>
> «احفظ الله يحفظك» ليست وعدًا بألا يفقد المؤمن مالًا أو عملًا، أو ألا يصيبه أذى؛ فقد وقع البلاء على الأنبياء والصالحين. لكن من أعظم الحفظ أن يحفظ الله عليه دينه، ويكون معه بهدايته ومعونته، فلا يسلمه إلى الخوف حتى يبيع ما لا يجوز بيعه.

ويثبت القلب حين يعرف حكمة ربه ورحمته وعدله وصدق وعده؛ فلا يجعل تأخر الفرج دليلًا على خطأ الطريق، ولا يفسر الألم بأنه هجر، ولا يظن أن حقًا ضاع من يده قد خرج من علم الله وحسابه.

عاد الرجل إلى التقرير، فوجد أن خوفه لا يأتي من الورقة وحدها. كان جزء منه متعلقًا بصورة المستقبل التي رسمها لنفسه، وبمكانة صار يخشى فقدها كأن رزقه قد حُبس فيها. لم يزل الخوف حين أدرك ذلك، لكنه صار خوفًا يمكن أن يراه ويحاكمه، بعد أن كان قوة خفية تفسر له كل شيء.

فالابتلاء لا يكشف مقدار شجاعتنا وحدها، وإنما يكشف صورة الله في قلوبنا، وصورة المخلوق، وما الذي نعتقد في أعماقنا أنه يملك النجاة والضرر.

كيف يثبت الله القلوب؟

يأتي تثبيت الله لعباده من أبواب كثيرة، ومن أعظمها الوحي. قال سبحانه:

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 102].

ينزل القرآن بالحق ليقيم الموازين حين تختلط، ويعيد للأشياء أسماءها: فيبقى الحرام حرامًا ولو اجتمع الناس على تبريره، ولا يصير الخوف حكمة لمجرد أنه مفهوم، ولا تصبح الخسارة الدنيوية هزيمة إذا حفظ العبد فيها دينه.

ويثبت القرآن القلب بقصص من مضوا؛ فيعلم المؤمن أن وحشة الطريق ليست دليلًا على فساده، وأن تأخر الثمرة لا يبطل صحة العمل. وقد مر معنا أثر قصص الأنبياء في التربية وبناء الرجال؛ وموضع العود هنا أخص: إنها تعيد بناء القلب وهو يواجه ما يشبه بعض طريقهم.

ومع أن آية واحدة قد توقظ قلبًا في لحظة الشدة، فإن صحبة الوحي لا تُؤجَّل إلى ساعة الانهيار. تبدأ قبل المحنة: تلاوةً تُفهم، ومعاني تستقر، وموازين يتعلم بها العبد أن يرى الدنيا والناس والخسارة والنجاة. فإذا جاءت الفتنة وجد في قلبه لغة الوحي، ولم يحتج إلى بناء ميزانه كله تحت ضغط الخوف.

ومن أبواب التثبيت أن يرد العبد اضطرابه إلى الصلاة والذكر. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45].

جاء الأمر بالذكر في موطن تقترب فيه الأخطار وتضطرب الحواس. فالذكر لا يخرج المؤمن من الواقع؛ يمنع الواقع من أن يغلق عليه أفقه. والصلاة من أصدق صور هذا الرجوع: يقف بين يدي الله قبل أن يقف بين يدي من يخافه، فتعود الأشياء إلى مواضعها؛ الرب رب، والعبد عبد، والرزق مكتوب، والواجب واجب.

ويصبّر الله من جاهد نفسه على الصبر. قال النبي ﷺ: «ومن يتصبّر يصبّره الله، وما أُعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر». رواه البخاري (1469)، ومسلم (1053).

في الحديث فعل من العبد: «يتصبّر»، وفعل من الله: «يصبّره». يحمل العبد نفسه على ما يجب، ويمنعها من الاندفاع، فيفتح الله له من الصبر ما لم يكن يملكه قبل المجاهدة. فلا يخلق الصبر مستقلًّا، ولا ينتظره بلا عمل.

الثبات يُعدّ له في أيام العافية

لا تبدأ صناعة الثبات لحظة وصول التهديد. قد تكون تلك اللحظة موعد ظهور ما بُني قبلها. قال النبي ﷺ: «بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم؛ يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا». رواه مسلم (118).

الحديث في فتن عظيمة يبلغ خطرها تبدل الدين، فلا يحمل على كل تردد أو معصية عارضة. لكنه يقرر أصلًا واضحًا: قد يأتي زمن يشتد فيه الالتباس وتضعف الإرادة، فيكون العمل السابق من أعظم ما أعد الله به القلب للثبات.

يتعلم المؤمن قبل الفتنة ما يصح به اعتقاده وعبادته، ويقيم الصلاة، ويعتاد الصدق والرجوع عند الخطأ، ويخفف التعلقات التي تجعل الناس قادرين على شراء قراره. فلا ينتظر الموقف الكبير، ثم يطالب قلبًا أهمله طويلًا ببطولة مفاجئة.

والعلم يحرس هذا الاستعداد؛ فيفرق بين الشجاعة والتهور، وبين الثبات والعناد، ويبين ما يجب التمسك به وما يسع الرجوع عنه. ويصحبه أخذ عملي بالأسباب: توثيق، واستشارة، وبحث عن البدائل، وتقليل للضرر بوسائل مشروعة.

وتعين الصحبة الصالحة الفرد حين يضيق نظره؛ فلا تهوّل الخطر حتى تشله، ولا تهوّن المعصية حتى تريحه، بل ترده إلى الله والدليل وتبصره بالبدائل. وسيأتي أثر الجماعة الأوسع في موضعه من هذا المحور.

الثبات الذي يريده الله

ليس كل إصرار ثباتًا؛ فقد يكون تمسكًا بالرأي، أو طلبًا لصورة الشجاع. الثبات المحمود وفاء لله، ولهذا قد يكون في المضي أو الرجوع، وفي الكلام أو الصمت. ولا يشترط له زوال الخوف؛ فقد تضطرب النفس ثم تختار ما يرضي الله، وإنما يفسده أن يصبح الخوف هو المرجع الذي يعيد تشكيل الحق.

ولا تقاس صحة الموقف بسرعة نتيجته، ولا يمنح الثبات في موطن عصمة في غيره. قد يبقى العمل أو يفقد، وقد يعجل الفرج أو يتأخر. يشكر المؤمن توفيق ربه، ولا يبني من موقفه صورة بطل يأمن بها على نفسه؛ فقد يخرج من خوف ظاهر، ثم يدخل إليه العجب من باب خفي.

حين عاد إلى التقرير

لم يحصل الرجل على وعد بأن عمله سيبقى، ولم تنكشف له العاقبة. توضأ وصلى، ثم قرأ التقرير بعين أهدأ. كتب مواضع الخطأ، وجمع ما يثبت اعتراضه، واتصل بمن يثق بعلمه وأمانته، وسأله عن الواجب والطريق المشروع الذي يؤديه بأقل ظلم واضطراب.

في الصباح قال لمسؤوله: لا أستطيع توقيع التقرير بهذه الصيغة، وأستطيع توقيع ما يطابق الوقائع. لم يتهم النيات، ولم يرفع صوته، ولم يدّع أنه لا يخاف. عرض تصحيحًا واضحًا، واتخذ ما يستطيع من أسباب الحماية، ثم قبل أن تبقى من العاقبة مساحة لا يملكها.

قد يبقى في موقعه، وقد يفقده؛ فليس لنا أن نكتب له نهاية لم يكتبها الوحي. الذي تغير أن الله هداه إلى الحق، ورد قلبه إلى سلطانه، وفتح له أبواب الدعاء والصلاة والمشورة والسبب الصحيح، وكشف له أن خوفه على المكانة كان أكبر مما ظن.

افتقر إلى الله، وحاكم خوفه إلى الوحي، وطلب العلم، وأخذ بالسبب، ثم أدى ما ظهر له أنه واجب من غير دعوى بطولة ولا ضمان لعاقبة دنيوية. هكذا يثبت بعض الناس: يثبتهم الله بفضله، ويوفقهم إلى إيمان ووحي وعبادة وصبر وأسباب مشروعة؛ وكلما ازدادوا ثباتًا ازدادوا علمًا بأنهم لا يملكونه.

فالعبد الثابت لا يقول: أنا أقوى من الفتنة.

يقول بقلبه وعمله: ربي أقوى منها، وأنا فقير إليه.

الوحدة الحادية والعشرون: لماذا يسقط آخرون؟

السقوط لا يبدأ حين يراه الناس

دخل الاجتماع وهو يعلم أن الاتهام الموجه إلى أحد زملائه لم يثبت. كان قد عزم أن يعترض إذا ذُكر الأمر، لكنه فوجئ بأن المطلوب منه أقل من ذلك: أن يظل صامتًا، ويترك الحديث يمضي كأن الجميع متفقون.

قال في نفسه: لن يغير اعتراضي النتيجة، وقد أستطيع التدخل إذا تجاوز الأمر حدّه. صمت دقائق، ثم انتهى الاجتماع. خرج من القاعة وهو يشعر أن شيئًا لم يستقم، لكنه هدّأ نفسه بأن الصمت لا يساوي الموافقة.

بعد أيام عُرض عليه بيان يحمل المعنى نفسه في عبارات محتملة. لم يرض عنه، ثم وقّعه؛ لأن توقيعه . كما قال لنفسه . لا يعني قبوله كل تفسير يمكن أن تحمله الكلمات. وحين اعترض آخرون على البيان، وجد نفسه يدافع عنه، فقد أصبح الاعتراف بالخطأ أشق من الاستمرار فيه.

لم ينتقل إلى هذا الموقف بقفزة واحدة. كانت كل خطوة صغيرة بما يكفي لتقبلها نفسه، لكنها نقلته في كل مرة إلى موضع يحتاج فيه إلى تنازل جديد يحمي التنازل السابق.

فكيف يبدأ السقوط، وكيف يتدرج، وأين يمكن قطع طريقه؟

والمقصود بالسقوط هنا ضعف الإنسان عن الحق في موقف من مواقف الابتلاء، أو دخوله في مسار من التنازل والمعصية. وليس المقصود الحكم على أصل إيمانه، أو سريرته، أو عاقبته؛ فقد يزل المؤمن ثم يصدق في الرجوع، وقد تكون زلته بابًا إلى توبة تجعله أشد بصيرة بنفسه.

بين الكسب والاستزلال والعفو

وقد مرّت آية أُحد في محور البناء من جهة ما كشفت عنه من عفو الله بعد الزلة؛ وموضعها هنا أخص: كيف يبدأ الاستزلال من كسب سابق. قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 155].

لم يصف القرآن ظاهر الفعل وحده؛ كشف استزلال الشيطان، وصلة ذلك ببعض الكسب السابق، ثم أعلن عفو الله عنهم وختم باسميه: الغفور الحليم.

تحمي الآية فهم السقوط من انحرافين: أن يعامل كحادثة لا مقدمات لها، أو أن يجعل حكمًا نهائيًّا على صاحبه. ولا تعين كل ما يدخل في قوله: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾؛ فلا ننسب زلة شخص إلى ذنب مخصوص بلا دليل، لكننا نعلم أن الكسب يترك أثرًا في القلب الذي يستقبل الامتحان.

ويأتي الابتلاء فيكشف أن معرفة الحق قد لا تكون تحولت إلى قوة على حمل كلفته، أو أن بابًا تُرك بلا علاج صار في ساعة الضغط مدخلًا واسعًا للشيطان.

ولا يسلب الامتحان العبد اختياره، لكنه يضغط على مواضع الضعف، ويستثير ما يحتاج في القلب إلى مجاهدة، ويكشف مقدار الاستعداد الذي دخل به الإنسان إلى الموقف؛ فيبصر موضع حاجته إلى التوبة والإصلاح.

القلب يتغير بما يقبل ويرفض

قال النبي ﷺ: «تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أُشربها نُكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نُكت فيه نكتة بيضاء». رواه مسلم (144).

الفتنة تُعرض، والقلب يستجيب؛ يشربها أو ينكرها، ويتغير بكل قبول أو رفض. لذلك قد لا تكون الخطوة الأولى عابرة، وإن بدت أهون من غيرها؛ فهي تحرك الحد الداخلي بين المقبول والمرفوض، وتهيئ القلب لما بعدها. فالحد الذي يتجاوزه الإنسان مرة يسهل عليه أن يقف بعده في المرة التالية، حتى يغدو ما كان يؤلمه مألوفًا يحتاج إلى خطأ أكبر كي يوقظه.

لم يشارك الرجل في الاتهام، لكنه أحس أن صمته أدى وظيفة لم يرضها. كان ذلك الألم موضع إنقاذ؛ بقي في قلبه إنكار يدعوه إلى الرجوع قبل أن يعتاد الخطأ.

ومن رحمة الله أن يوقظ في العبد ضيقًا أو ندمًا بعد الزلة. فإذا أسرع إلى التصحيح بقي الخطأ محدودًا، وإذا أخمد الإنكار بالتبرير انتقل الخطر من الفعل إلى القلب الذي يعيد تسميته. ولا يلزم من كل خطأ انهيار محتوم؛ فباب التوبة مفتوح منذ اللحظة الأولى.

التبرير يحرس الخطوة الأولى

بعد الخطأ يقف القلب بين الاعتراف والرجوع، وبين حماية صورته باسم مقبول. وهنا قد تتحول ملكة التفكير إلى محامٍ عن الاختيار الذي مالت إليه النفس.

يقول: لم أصمت خوفًا، وإنما تجنبت فتنة أكبر؛ لم أوافق على الباطل، وإنما حافظت على قدرتي على الإصلاح. وقد تصح هذه المعاني في مواضع، لكن صحة الألفاظ لا تضمن صحة تنزيلها.

يبدأ الخلل حين يقرر الإنسان تحت الضغط أن ما يريده هو المصلحة، ثم يرفض المراجعة. ومن علاماته أن يروي الواقعة بعد حذف ما يدينه، أو ينشغل بعيب الناصح عن صدق قوله، أو يبالغ في وصف الإكراه حتى يصور نفسه بلا اختيار.

التبرير لا يمحو الخطأ؛ يحجب صاحبه عن رؤيته. ولهذا يحتاج عند الاشتباه إلى عالم أو ناصح يعرف الواقعة ولا ينتفع بنتيجتها، ويعرض عليه ما يحرجه كما يعرض ما يؤيده.

التأجيل يحول الزلة إلى طريق

قد يعرف الإنسان خطأه، ثم يؤجل الرجوع حتى تتحسن الظروف. يريد توبة لا تخسره ما بناه، وتصحيحًا لا يعلن اعترافه. لكن الوقت لا يترك الخطأ على حاله؛ فالصمت الذي كان يحتاج إلى كلمة يصير توقيعًا يحتاج إلى سحب، ثم موقفًا يحتاج إلى اعتذار. وكل يوم يمضي لا يزيد الماضي زمنًا فقط؛ قد يضيف إليه حقًّا جديدًا، وشخصًا آخر تأثر به، وصورةً أشد التصاقًا بصاحبها.

وكلما تأخر، ازدادت كلفة الرجوع، فتحولت الكلفة نفسها إلى حجة على مزيد من التأجيل. ومن سنن الله المخيفة أن الإعراض المتعمد عن الحق قد يعاقب صاحبه بزيادة البعد عنه. قال سبحانه:

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: 5].

بدأ الزيغ منهم، ثم جاءت الإزاغة عقوبة على اختيارهم. وليست الآية وصفًا لكل زلة عارضة، ولا يجوز تنزيلها جزمًا على شخص بعينه؛ لكنها تقطع وهم أن الإنسان يستطيع الإعراض اليوم، ثم يستدعي الهداية غدًا متى شاء.

الهداية، والقدرة على التوبة، وتألم القلب من المعصية: كلها فضل من الله. فمن عرف ذلك لم يؤجل الرجوع اعتمادًا على أنه يملك قلب الغد.

التوبة تقطع المسار

مع هذا التحذير كله، جاءت الآية الحاكمة للوحدة بباب النجاة في داخلها: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾.

وقع التولي، وثبت الاستزلال، وذُكر أثر الكسب السابق، ثم عفا الله عن عباده.

ولا تقف سنة الله عند كشف الضعف والتحذير من عاقبة الإصرار؛ فقد فتح باب الرجوع، ووعد بالمغفرة، وعفا عن الذين تولوا يوم أُحد. فلا يتحول التحذير من التدرج إلى يأس، ولا يتحول الرجاء في العفو إلى استهانة.

أول الرجوع أن يقف الإنسان عن الحركة في الاتجاه الخطأ. لا يحتاج إلى فهم كل ما جرى في نفسه قبل أن يتوب؛ يكفي أن يتبين له الخطأ فيتركه، ويسميه باسمه، ويستغفر ربه، ثم يصلح ما ترتب عليه.

فإن تعلق به حق لإنسان رده أو طلب المسامحة، وإن انتشر منه قول باطل صححه في الدائرة التي بلغها. وقد يقتضي صدق التوبة قبول خسارة كان يؤجل الرجوع من أجلها؛ فلا يستطيع دائمًا الاحتفاظ بثمار الطريق الخطأ ثم إعلان تركه.

ولا يجعل زلته هوية تحكم بقية حياته. فالشيطان قد ينقله من التبرير إلى القنوط، وكلاهما يبقيه بعيدًا عن الله. يجمع المؤمن بين ألا يهون ما وقع، وألا ييأس من رحمة ربه؛ يرى في الزلة كشفًا لضعفه، وفي العفو بابًا لا يؤجله.

حين قطع الطريق

عاد الرجل إلى أول الاجتماع، لا إلى آخر الجدال. عرف أن الخطوة الحاسمة كانت حين أحس أن صمته يعين على ظلم، ثم أجّل مواجهة هذا الشعور.

كتب إلى الجهة التي أصدرت البيان أن الاتهام لم يثبت لديه، وأن موافقته على الصياغة السابقة كانت خطأ. واعتذر لزميله، وطلب تصحيح النسخة التي تحمل توقيعه. لم ينف الضغط، لكنه لم يجعله براءة كاملة من اختياره.

شق عليه أن يراه الناس متراجعًا بعد دفاعه، لكنه حين رجع انقطعت السلسلة؛ لم يعد محتاجًا إلى تنازل جديد يحمي القديم. وأبصر أن الامتحان كشف ضعفًا سابقًا، وأن التنازل الصغير لم يبق صغيرًا حين حرسه التبرير والتأجيل.

عاد إلى الله قبل أن يستحكم الطريق، وصحح ما أفسد، وقبل كلفة الاعتذار، خائفًا من قلبه، راجيًا عفو من قال في المتعثرين يوم أُحد: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

لا يهلك الإنسان لمجرد أنه تعثر.

إنما يشتد الخطر حين يجعل من تعثره طريقًا، ثم يسمي البقاء فيه ثباتًا.

ويبقى وراء هذا المسار سؤال أعمق: ما الذي يجعل القلب يرضى بالتنازل، أو يرفض الاعتراف، أو يقدم العاجل على الحق؟

ذلك موضع أمراض القلوب في الوحدة التالية.

الوحدة الثانية والعشرون: أخطر أمراض القلوب عند الابتلاء

من الذي يحكم القلب؟

وصلت إلى معلّم معروف مراجعةٌ من باحث أصغر منه سنًّا، نبّهه فيها إلى نقل غير محرر، واستدلال مبتور، وتعميم تعجل في نشره. كان في الرسالة شيء من الجفاء، لكن بعض ملاحظاتها أصاب مواضع يعرفها في قرارة نفسه.

قرأ اسم المرسل قبل أن يعيد قراءة حججه. قال: هذا لم يبلغ خبرتي، ولا يعرف ما قدمته للناس، ولو فتحنا الباب لمثل هذه الاعتراضات ضاعت هيبة العلم. ثم تذكر كثرة طلابه، ومكانته، وما قد يخسره إذا أعلن التصحيح، والخصوم الذين ينتظرون عثرته.

لم يعد السؤال: ما الحق في هذه المراجعة؟ صار السؤال: كيف أحمي صورتي وموقعي وما بنيته؟

لم تكن هذه المعاني وليدة الرسالة وحدها؛ لكنها أخرجتها من الخفاء إلى موضع القرار.

البلاء يكشف الحاكم الخفي

وقد مرت آية التمحيص في المحور السابق من جهة ما يصنعه الابتلاء في بناء المؤمنين. وموضع العود هنا أخص؛ فالآية تكشف أن الامتحان يُظهر ما يختبئ في الصدور والقلوب:

> ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 154].

الله يعلم خفايا النفوس قبل الامتحان، ثم يأتي البلاء فينقل الدعاوى إلى مواقف، ويُري العبد ما لم يكن يراه من نفسه: قد يظن أنه مخلص حتى تتعارض الحقيقة مع صورته، أو متوكل حتى تهتز أسبابه، أو صابر حتى تتأخر النتيجة عن توقيته.

وأمراض القلوب تعيد تفسير الموقف كله: يرى المتكبر النصيحة إهانة، والمعجب نجاحه ضمانًا، ومحب الدنيا الطاعة خسارة، والخائف المخلوق أكبر من قدره، ومتبع الهوى رغبته دليلًا، والمستعجل تأخر الثمرة حكمًا على الطريق. وهذه الستة من أخطر ما يمس جهات القرار: النفس، والدنيا والناس، والحق والزمن.

حين تكبر النفس

يفسد **الكبر** جهة تلقي الحق، ويفسد **العجب** جهة الاعتماد.

وقد مرّ حديث الكبر في محور الأحوال في سياق فتنة النعمة؛ وموضعه هنا أخص: أثر الكبر في رد الحق وقت الابتلاء. قال النبي ﷺ:

> «الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس». رواه مسلم (91).

المتكبر قد يرد الحق لأنه جاء ممن لا يريد الاعتراف له، أو لأن قبوله يعيده إلى منزلة المتعلم بعد أن اعتاد منزلة المعلم. وقد يكون الناقد سيئ القصد أو ظالم العبارة، ومع ذلك يحمل جزءًا من الحق لا يجوز رده بظلمه. وأشد ما يكشف الكبر أن يصبح الاعتراف بالصواب عند الأصغر أو المخالف أثقل على النفس من بقاء الخطأ نفسه.

فالعبودية هنا أن يخضع القلب لما صح، وألا يجعل مكانة القائل أو خطأه حجابًا عن قوله. أما العجب فينشأ حين يرى الإنسان علمه أو عمله، ثم تضعف في قلبه رؤية المنعم، فيتصرف كأن نجاحه السابق صار ضمانًا للمستقبل.

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: 25].

كانت الكثرة في حنين موجودة، لكنها لم تغن شيئًا. فالنصر الماضي لا يتحول إلى حق دائم، والسبب القوي لا يستقل بصناعة العاقبة. وحين ينسى القلب ذلك، تتحول التجربة من نعمة تهديه إلى حجاب يمنعه من المراجعة.

يقول العجب: نجحت من قبل فأنت أعرف، والتف الناس حولك فأنت أصوب. فتتحول النعمة من باعث على الشكر والافتقار إلى حجاب عن الضعف. ويعالج الكبر بقبول الحق، والعجب برؤية الفضل؛ يستعمل العبد خبرته، وينسب النعمة إلى الله، ولا يظنها مستقلة بأثرها.

حين تكبر الدنيا والمخلوق

يفسد **حب الدنيا** ميزان القيمة، ويفسد **الخوف** ميزان القدرة.

جاء القرآن يخاطب المؤمنين عند التثاقل عن النفير:

> ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: 38].

صوّر القرآن التعلق بالدنيا تثاقلًا إلى الأرض؛ يعرف الإنسان ما دُعي إليه، لكن الراحة أو المال أو الموقع الذي سيتركه صار أعظم في ميزانه مما يرجوه عند الله.

وقال النبي ﷺ:

«تَعِسَ عبدُ الدينارِ، وعبدُ الدرهمِ، وعبدُ الخميصةِ؛ إن أُعطي رضي، وإن لم يُعطَ سخط». رواه البخاري (2887).

ولم تكن عبودية الدينار في امتلاك المال، وإنما في أن يصير العطاء والمنع قائدين للرضا والسخط. وقد تكون الدنيا منصبًا أو قبولًا أو مشروعًا نافعًا؛ يبدأ لله، ثم يصبح الحفاظ على صورته أعز من تصحيح خطئه.

والزهد أن تبقى الدنيا في اليد، ولا تحصل على حق الحكم في القلب. يسعى العبد في حفظ مصالحه بوسائل مشروعة، ولا يشتري بقاءها بما يسخط الله.

وقد مرّت هذه الآية في محور الأحوال عند الكلام على الخوف من المخلوق؛ وموضعها هنا أخص: كيف يتحول الخوف نفسه إلى حاكم على القرار. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175].

ومع عظم الشيء في القلب يتسع الخوف من فقده. ولا تنفي الآية قدرة الأعداء على الإيذاء، ولا تدعو إلى اقتحام الخطر بلا إعداد؛ لكنها تعيد القدرة إلى ميزانها: للمخلوق أسباب محدودة، وفوقه رب يملكه ويملك أثره.

الخوف الطبيعي لا يذم، وإنما يبدأ المرض حين يصير مرجعًا يحدد الواجب، ويسمي التنازل حكمة، ويجعل معصية الله ثمنًا للسلامة. ويقابله خوف متعبد: تقدير للخطر وأخذ بالأسباب، مع بقاء الخشية العليا لله.

حين يحكم الهوى والتوقيت

يفسد **الهوى** ميزان الحكم، ويفسد **الاستعجال** ميزان الزمن.

وقد مرّت هذه الآية في محور الأحوال عند الكلام على عدل المتمكن؛ وموضعها هنا أخص: عدل الفرد على نفسه وهواه. قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ [النساء: 135].

لا تظهر قوة العدل حين يوافق الحق رغبة الإنسان؛ تظهر حين تقوم الشهادة لله على نفسه. فالهوى قد يختار من الأدلة ما يخدم الرغبة، ويضخم خطأ الخصم، ويختصر خطأ صاحبه، ثم يسمي النتيجة بحثًا محايدًا.

وقد يستعمل ألفاظ الشرع: المصلحة، والضرورة، والحكمة، والمآلات. وهذه أصول معتبرة، لكن اعتبارها لا يكون بتسخيرها للرغبة. ومن صدق العدل أن يسأل: هل أقبل هذا الدليل لو استعمله خصمي؟ وهل يبقى حكمي إذا انتقلت المصلحة إلى الجهة الأخرى؟

والعبودية المضادة للهوى هي القيام بالقسط لله؛ يعرض الإنسان الواقعة كاملة، ويكشف للمستشار ما يحرجه كما يكشف ما يؤيده، ويمنح الحقيقة حقها في تغيير قراره.

قال سبحانه: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾ [الأحقاف: 35].

الاستعجال يمنح الزمن سلطة الحكم على الحق. يعمل الإنسان ويدعو مدة يحددها في نفسه، فإذا تأخرت الثمرة شك في الطريق، أو طلب وسيلة أسرع ولو تجاوزت حدود الله.

وقد سبق هذا الحديث في موضعين من الكتاب؛ وموضعه هنا أخص: أثر الاستعجال في تفسير تأخر الاستجابة نفسها، لا تأخر النصر. وقال النبي ﷺ:

> «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يُستجب لي». رواه البخاري (6340)، ومسلم (2735).

ولا يمنع الصبر من مراجعة الخطة أو تصحيح الوسيلة، لكنه يمنع جعل التأخر دليلًا على بطلان الواجب، أو استعمال الحرام لأن المأذون بدا بطيئًا. قد يريد نصرة الحق فيكذب له، أو إنهاء الظلم فيظلم؛ لأن النتيجة صارت في قلبه أعظم من الطريق الذي أمره الله به.

الهوى يقول: أريد هذه النتيجة، والاستعجال يضيف: أريدها الآن. فإذا اجتمعا ازدُريت الوسائل الصحيحة البطيئة، وقُبلت الوسائل السريعة ولو أفسدت من الحق أكثر مما أصلحت.

الأمراض لا تدخل بأسمائها

لا يدخل مرض القلب معلنًا اسمه؛ قد يسمى الكبر حفظًا للهيبة، والعجب ثقةً بالنفس، وحب الدنيا مصلحة، والخوف حكمة، والهوى اجتهادًا، والاستعجال غيرةً على الحق. وليست كل هيبة أو ثقة أو مصلحة مرضًا؛ الفاصل حكم الوحي وصدق العدل.

ويبدأ التشخيص من النفس؛ فلا يشق الإنسان عن قلوب مخالفيه، وإنما يسأل قلبه: ما الحق الذي يصعب عليّ قبوله بسبب قائله؟ وما النعمة التي أعتمد عليها أكثر مما أشكرها؟ وما الشيء الذي تتغير مبادئي إذا خفت فقده؟ وهل أبحث عن حكم الله أم عن صياغة تبيح ما أردته؟

وقد لا يحسن الإجابة وحده؛ لأن المرض نفسه قد يصوغ جوابه. يحتاج إلى الوحي الذي يعيد للأشياء أسماءها، وإلى ناصح لا يخاف غضبه ولا يطلب رضاه. وإذا كشف الله له خللًا، تعبد بضده: قبول الحق، وشكر الفضل، والزهد، وخشية الله، والعدل، والصبر.

حين عاد إلى المراجعة

عاد المعلّم إلى الرسالة والتسجيل الذي نُقد. بقي في المراجعة جفاء لا يصح، لكنه فصل هذه المرة بين ظلم العبارة وحق المعنى، وقرأ الحجج بدل أن يقف عند سن المرسل ومكانته.

رأى أن غضبه دافع عن صورته، وأن كثرة الطلاب والنجاحات السابقة أوهمته أن تقديره لا يحتاج إلى مراجعة. وخاف على مكانته حتى كاد يجعل بقاءها معيارًا لصحة قوله، وانتقى من الأدلة ما يؤيده، واستعجل الرد قبل أن يهدأ وينظر.

لم يحكم على قلبه بأنه امتلأ بهذه الأمراض، ولم يتوهم أنه تخلص منها بمجرد معرفتها. عرض المسألة على عالمين لا يجاملانه، ثم نشر تصحيحًا واضحًا للنقل والاستدلال، وبيّن ما بقي عنده من صواب من غير أن يدافع عن الخطأ.

قرأ ما وقع على ضوء الوحي، فعرف أن البلاء قد يكشف ما استتر من ميزان القلب، وأن إصلاح القرار يبدأ بإعادة النفس والدنيا والمخلوق والرغبة والتوقيت إلى أقدارها تحت حكم الله.

فالابتلاء يتجاوز سؤال: كم نستطيع أن نتحمل؟

إنه يكشف سؤالًا أخطر: من الذي صار له حق الحكم في القلب؟

ويبقى أن الإنسان لا يدخل هذه المواطن منفردًا؛ حوله جماعة قد تعيد إليه ميزانه، وقد تضخم خوفه وهوى نفسه. وذلك موضوع الوحدة التالية.

الوحدة الثالثة والعشرون: الجماعة حين تمتحن

حين صار الخوف خبرًا

وصلت إلى مجموعة العمل رسالة مقتضبة: «صدرت قرارات سرية، وبعض المسؤولين انسحبوا، وقد تبدأ الإجراءات صباحًا». لم يذكر مرسلها مصدرًا، لكنه عُرف بقربه من بعض أصحاب القرار.

سأل أحد الأعضاء: هل ثبت الخبر؟ فجاءه الجواب: لا وقت للتردد، والتحذير المبكر خير من الصمت. توالت التعليقات، وأضاف كل واحد ما سمعه أو توقعه، ثم نُقلت الرسالة إلى مجموعات أخرى بعد أن تحولت كلمة «قد» إلى خبر جازم.

كان أحدهم يشعر أن الأمر غير منضبط، لكنه خشي أن يبدو باردًا أمام قلق الجميع. لم يكتب تعليقًا، غير أنه أعاد إرسال الرسالة إلى صديق «للاحتياط». وبعد ساعات لم تعد الجماعة تتعامل مع احتمال؛ صارت تتخذ قراراتها على أساس واقع صنعه تداولها هي.

خرج الخوف من أفراد متفرقين، ثم عاد إليهم في صورة صوت جماعي بدا أقوى من أن يُراجع.

حين يقرأ الصف الحدث

قال الله تعالى في يوم الأحزاب: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 11-12].

ثم قال في المؤمنين: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22].

كان الخطر واحدًا، والأحزاب أمام الجميع، والزلزال شديدًا على الصف كله. لكن الحدث لم يفرض تفسيرًا واحدًا؛ نطق كل فريق بما في قلبه، ثم أصبحت كلماته جزءًا من الامتحان الذي يعيشه الآخرون.

رأى أهل المرض في شدة الخطر تكذيبًا للوعد، ورأى المؤمنون فيها تحققًا لما أخبرهم الله أنهم سيلقونه. ولم ينكر المؤمنون كثرة العدو ولا ضيق الحال؛ وضعوا ما يرونه داخل معنى أكبر يحكمه صدق الله ورسوله.

ولا يجوز نقل أوصاف النفاق أو مرض القلب إلى أشخاص أو جماعات معاصرة لمجرد ضعفهم أو خوفهم. الشاهد هو السنة التي يكشفها القرآن: حين تمتحن الجماعة، لا يتداول أفرادها الوقائع وحدها، بل يتداولون تفسيرها أيضًا. وقد تنتقل كلمة الخوف أو اليأس أو الثقة، حتى تصبح مناخًا يرى الناس الحدث من داخله.

لهذا يتضاعف أثر الكلام في أزمنة الفتنة. قد يخرج الإنسان خوفه الشخصي في صورة حكم عام، أو يقدم ظنه كأنه قراءة يقينية للمستقبل، ثم تكتسب عبارته قوتها من كثرة من يرددونها، لا من مقدار ما فيها من علم.

وفي الجهة الأخرى قد تكون كلمة واحدة صادقة سببًا في إعادة الصف إلى ميزانه: تذكر بوعد الله من غير تهوين للخطر، وتصف الواقع من غير أن تمنحه حق الحكم على الوحي، وتفتح باب العمل بدل أن تزيد الناس شللًا أو غرورًا.

كيف تنتقل الشائعة؟

جعل الله حادثة الإفك تعليمًا دائمًا للأمة في أخلاق الجماعة حين يدخلها الخبر المفسد. قال سبحانه:

> ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 11].

بدأ الإفك من عصبة، لكن المسؤولية لم تبق محصورة فيمن أنشأه أو تولى كبره. قال الله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾. فالجماعة لا تمحو الفرد، وكثرة الناقلين لا تجعل القول بلا صاحب، ولا يعفي المرء أن غيره بدأ وأنه لم يزد إلا كلمة أو إعادة إرسال.

ووصف الله حركة الشائعة بقوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: 15].

تلقٍّ بالألسنة، كأن الخبر لم يمر على عقل يتحقق، ولا على قلب يستشعر حرمته. ثم قول بلا علم، ثم تهوين للفعل لأن اللسان لم يشعر بثقل الأثر الذي يحمله.

ليست كل معلومة غير مكتملة إفكًا، ولا كل خطأ في النقل قذفًا، ولكل واقعة حكمها. غير أن الآية تحكم أصل السلوك: لا يجوز للإنسان أن يجعل سرعة الانتشار دليلًا على الصحة، ولا أن يستبدل العلم بما يسمعه من أصوات متكاثرة.

وكان المنهج الذي أراده الله للمؤمنين عند أول السماع:

> ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: 12].

ثم قال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 16].

لم ينتظر القرآن من الجماعة أن تحسن إدارة الشائعة بعد أن تتسع؛ أراد منها أن تقطعها عند أول السماع. حسن ظن يحفظ عرض المسلم، وطلب للبينة، وامتناع صريح عن حمل ما لا يجوز حمله.

وإذا تعلق الخبر بخطر عام أو حق يحتاج إلى حماية، فلا يكون التثبت ذريعة إلى الإهمال. يرفع الأمر إلى من يملك التحقيق والمعالجة، وتفصل المعلومة الثابتة عن الظن والتفسير، ويحصر التداول فيمن يحتاج إليه. أما نشر الخوف إلى جمهور لا يملك علمًا ولا قدرة على التصرف، فقد يزيد الفتنة باسم التحذير منها.

وقد جمع الله أصل هذا المنهج في قوله:

> ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: 6].

التثبت ليس رفاهًا ذهنيًّا، وإنما حماية من فعل قد يصيب الناس بجهالة، ثم لا يبقى بعد ظهوره إلا الندم. ولهذا كلما عظمت آثار الخبر، ازدادت الحاجة إلى بيان مصدره ودرجة ثبوته، لا إلى تسريع نشره.

ضغط الجماعة ومسؤولية الفرد

قد يرى الفرد الخلل، ثم يخشى ثمن مخالفته للمزاج العام. يخاف أن يوصف بالجبن أو السذاجة، أو أن يُفهم تريثه دفاعًا عن الباطل، فيشارك بعبارة لا يقتنع بها أو يصمت حين يلزمه البيان.

لكن قول الله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ يعيد المسؤولية إلى موضعها. ضغط الجماعة يفسر بعض الضعف، لكنه لا يحول اللسان إلى آلة بلا إرادة، ولا يجعل اتفاق الحاضرين حجة قائمة بنفسها.

ولا تكون النجاة في مخالفة الناس لمجرد المخالفة؛ فقد يكون الحق مع الجماعة، ويكون الشذوذ عنها انحرافًا. إنما المطلوب ألا يسلّم الإنسان عقله ودينه لصوت الجمهور، وألا يجعل كثرة الموافقين بديلًا عن الدليل.

تحتاج الجماعات عند الفتنة إلى من يبطئ انتقال الظن قبل أن يصير حكمًا، ويفرق بين الخبر وتفسيره، وبين الثابت والمتوقع، وبين الحذر المشروع وإشاعة الفزع. وقد تكون أشجع عبارة في مجلس مضطرب إعلان الجهل بما لم يثبت، والتمييز الصريح بين ما ثبت وما بقي ظنًّا.

والجماعة التي تسخر من المتثبت، أو تتهم السائل عن الدليل، تربي أفرادها على اتباع النبرة الواثقة لا الحجة الصحيحة. أما البيئة التي تسمح بالتصحيح، فلا ترى الرجوع فضيحة، ولا تجعل الولاء للصف موافقة عمياء لكل ما يصدر عنه.

البيئة التي تتواصى

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: 3].

لم تجعل السورة النجاة عملًا فرديًّا خالصًا؛ أضافت عبادة متبادلة، يرد بها المؤمنون بعضهم بعضًا إلى الحق، ويعين بعضهم بعضًا على كلفته. فالجماعة الصالحة لا تكتفي بأن تعرف الحق؛ تبني مناخًا يمكن فيه قوله واحتماله.

وتُنشأ هذه البيئة قبل الفتنة: حين يكون للسؤال مكان، وللخبر طريق إلى التحقق، وللنصيحة حرمة، وللخطأ باب إلى التصحيح. فإذا وقعت الأزمة لم تبدأ الجماعة من فراغ؛ عادت إلى أخلاق عاشت بها، ونظم اعتادتها، وأشخاص تعلمت أن تثق بصدقهم لا بانفعالهم.

وقال النبي ﷺ:

> «مَثَلُ الجليسِ الصالحِ والجليسِ السوءِ كحاملِ المسكِ ونافخِ الكيرِ». رواه البخاري (5534)، ومسلم (2628).

يصل أثر الصحبة إلى القلب كما تصل الرائحة والدخان، ولو لم يصدر أمر مباشر. قد يعتاد الإنسان في بيئته تهوين أعراض الناس، أو السخرية من المتأنين، أو المبالغة في وصف الخطر، حتى تصبح هذه الأخلاق هي لغته الطبيعية عند الامتحان.

وقد تكون الصحبة سببًا في إنقاذه بكلمة لا تعجبه: تمنعه من النشر، أو تطلب منه البينة، أو ترد إليه جزءًا من القصة أخفاه انفعاله. فالجليس الصالح لا يثبت صاحبه بالموافقة الدائمة؛ يثبته بأن يعيد قلبه إلى ميزان الله.

ولا تلغي البيئة مسؤولية الفرد، ولا تضمن له العصمة. قد يثبت إنسان في وسط ضاغط، وقد يضعف آخر في جماعة صالحة. لكنها تهيئ المألوف الذي يرجع إليه القلب عند الاضطراب، وتزيد بعض الطرق سهولة وبعضها مشقة.

حين عاد الخبر إلى حجمه

كتب الرجل في المجموعة: «لم يثبت صدور القرارات المذكورة. أصل الرسالة غير موثق، والأسماء والتفاصيل التي أضيفت إليها لا نعرف مصادرها. أرجو وقف النشر حتى يتم التحقق».

اعترض بعضهم، واتهمه آخرون بالتهوين. لم يقل إن الخطر مستحيل، ولم يحاكم نيات من خافوا. فصل بين ما يعلم وما يتوقع، وأرسل المعلومة إلى الجهة القادرة على التثبت بدل أن يزيد جمهور المتلقين.

ثم عاد إلى صديقه الذي أرسل إليه الرسالة، وطلب منه ألا ينقلها. لم يحتمِ بقول: الجميع فعلوا ذلك. أدرك أن للجماعة فعلًا عامًا، لكن لكل امرئ نصيبه مما اكتسب.

ظهر بعد ذلك أن أصل الخبر متعلق بإجراء محدود، وأن أكثر ما أخاف الناس نشأ في الطريق بين ناقل وآخر. لم تنته المشكلات، لكن الجماعة رأت كيف تحول الظن بالتكرار إلى يقين، وكيف صنع الخوف بيئة دفعت أفرادًا عقلاء إلى التصرف قبل العلم.

في مثل هذا الابتلاء يكشف الله أخلاق الصف: كيف يسمع؟ وكيف يتكلم؟ وهل يزن الخبر بميزان العلم، أم يمنح الكثرة والانفعال سلطة الحقيقة؟ ويكشف للفرد مقدار ما يحتفظ به من مسؤوليته حين يرتفع صوت الجماعة من حوله.

وتكون النجاة في عبادة مشتركة لا تذيب الفرد ولا تعزله: سمع يتحرى، ولسان يتوقف عند حد العلم، وقلب يحسن الظن من غير غفلة، وبيئة تتواصى بالحق والصبر، وصحبة تعين على الرجوع حين يندفع الجميع.

قد تكون الجماعة عند الفتنة جدارًا يرد عن القلب الخوف والباطل.

وقد تكون صدى يعيدهما إليه أضعافًا.

خاتمة المحور الخامس: القلب حين يُمتحن

لا يدخل الإنسان الابتلاء بقلب محايد. يدخل بما عرفه من ربه، وما بناه في أيام العافية، وما أخفاه من ضعف، وما اعتاده من طاعة أو تساهل، وبمن يحيطون به حين يضطرب.

لهذا لم يكن الفرق بين الثبات والسقوط فرقًا بسيطًا بين قوي وضعيف. الثابت نفسه فقير إلى تثبيت الله، وقد يزل في موطن آخر. والمتعثر لا يُختم عليه بزلة؛ فقد يفتح الله له من صدق التوبة ما يخرجه أبصر بنفسه وأشد افتقارًا إلى ربه.

رأينا أن الله يثبت من شاء بفضله، ويهدي عبده إلى أسباب الحفظ، ويكشف بالامتحان ما استتر من القلب. وقد يكون ألم الزلة تنبيهًا يعيد الإنسان إلى نفسه، ويفتح الله له باب الرجوع، فيرى ما كان يحكم قلبه من كبر أو عجب أو دنيا أو خوف أو هوى أو استعجال.

ورأينا أن الفتنة لا تقف عند حدود الفرد. تخرج الكلمات من القلوب، ثم تصنع بيئة تعود فتؤثر فيها. قد يحمل الصف بعضه إلى اليقين والتثبت، وقد يضاعف خوف أفراده، حتى يصبح القول المتكرر أقوى من الدليل.

فلم يعد السؤال بعد هذا المحور: لماذا ثبت فلان وسقط فلان؟

السؤال الذي يخص كل قارئ: بأي قلب سأدخل امتحاني، وإلى من سألجأ حين يظهر ضعفي، ومن الذين أسمح لأصواتهم أن تشارك في تشكيل قراري؟

ونعود في ختام المحور إلى الدعاء الذي افتتحناه به؛ فقد أسّس هناك معنى الافتقار قبل النظر في سنن الثبات والسقوط، ويأتي هنا ثمرةً لما كشفته الرحلة من سرعة تقلب القلب وحاجته الدائمة إلى رحمة الله:

> ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

هذا دعاء من عرف أن العلم لا يملك القلب، وأن الماضي الصالح لا يضمن المستقبل، وأن البيئة الصالحة لا تغني عن رحمة الله. يأخذ بالأسباب، ثم يعلم أن بقاءه على الطريق هبة متجددة من ربه.

ولا ينتهي أثر الابتلاء عند النجاة من السقوط. فقد يكون ما كشفه الله ونقّاه وثبته بداية إعداد جديد؛ قلبًا أصبح أعرف بربه، ونفسًا أبصر بمداخلها، وصفًّا أنضجته المحنة، وهيأته لحمل أمانة لم يكن مستعدًّا لها قبلها.

ومن هنا ينتقل الكتاب إلى المحور السادس: من البلاء إلى التمكين.

المحور السادس: من البلاء إلى التمكين

مقدمة المحور

حين يفتح القرآن باب الرجاء

انتهى المحور السابق إلى الإنسان وهو يخرج من الامتحان وقد عرف عن نفسه ما لم يكن يعرفه قبل أن يدخل. رأى مواضع ضعفه، ومداخل الخوف والهوى والاستعجال إلى قلبه، وعرف أن الثبات ليس وصفًا يملكه بمجرد الدعوى، وأن الجماعات كما يمتحن أفرادها تمتحن هي أيضًا بالشائعات والضغط والمصالح والاختلاف. وما يكشفه البلاء وينقيه ويثبته قد يكون بداية إعداد جديد لقلب أو إنسان أو جماعة لم تكن قبل المحنة مهيأة لحمل ما سيأتي بعدها.

لكن القرآن لا يترك المؤمن واقفًا طويلًا أمام ما انكشف من ضعفه حتى تتحول معرفة النفس إلى يأس. فالكتاب الذي يحدث عن الخوف والجوع والنقص والهزيمة والزلزلة هو نفسه الذي يفتح أبواب الوعد واليسر والفرج والهداية والعاقبة. وبذلك يتعلم القلب أن الشدة التي تحيط به ليست هي التي تملك مستقبله، وأن ما يراه الآن ليس كل ما في علم الله، وأن امتداد البلاء لا يمنح البلاء حق الكلمة الأخيرة.

غير أن الرجاء الذي يبنيه الوحي أدق من الكلمات التي نقولها للمبتلى لنخفف عنه ألمه. فالقرآن لا يعد كل مريض بالشفاء في الدنيا، ولا كل فاقد بعوض يماثل ما فقد، ولا كل مظلوم بأن يشهد بعينيه سقوط من ظلمه، ولا كل عامل للحق بأن يرى النصر في حياته، ولا كل جماعة مؤمنة بسلطان دنيوي قريب. ولو علقنا الرجاء بهذه النتائج لأصبح يقين الإنسان مهددًا كلما تأخرت نتيجة لم يعده الله بها أصلًا.

الرجاء القرآني يبدأ من معرفة الله: من صدقه الذي لا يتطرق إليه خلف، وعلمه الذي أحاط بما كان وما يكون، وقدرته التي لا يعجزها شيء، وحكمته التي لا تجري أفعاله معها عبثًا. ومن هذه الأصول ينطلق المؤمن، فيصدق ما وعد الله به كما جاء، ولا يضيف إلى الوعد موعدًا لم يحدده الوحي، ولا صورة اختارتها نفسه، ولا تطبيقًا جازمًا على فرد أو جماعة لم يقم عليه دليل.

وقد مر في هذا الكتاب أن البلاء يكشف القلب، وأن الهزيمة قد تظهر مواضع الخلل، وأن طول الطريق قد يربي في المؤمن من الصبر والبصيرة ما لم يكن فيه. والذي يعنينا في هذا المحور خطوة أخرى: ماذا يفعل القلب بعد أن عرف حقيقة الابتلاء؟ كيف يفتح له الوحي باب الرجاء من غير أن يخدعه بوعود عاطفية؟ وكيف ينتظر فضل الله وهو يعمل، ويدعو وهو يراجع، ويرجو وهو لا يدعي علم الغيب؟

فالفرج الذي يرجوه المؤمن لا يحصر رحمة الله في صورة واحدة. يسأل المريض الشفاء، ويسعى المظلوم في رفع الظلم، ويرجو العامل للحق ظهور الحق، ويأخذ كل واحد منهم بالأسباب التي شرعها الله؛ لكنهم يعلمون أن فضل الله أوسع من الصورة التي استطاعت عقولهم أن ترسمها. وقد يحفظ الله

على العبد دينه في شدة لم تزل، أو يفتح له باب توبة وهداية، أو يدخر له من الأجر ما لا يظهر تمامه في الدنيا.

ولا يعني هذا أن نسمي كل ألم نعمة، أو أن نزعم معرفة الحكمة الخاصة في كل حادثة. فقد دعا الأنبياء بكشف الضر، وسأل النبي صلى الله عليه وسلم ربه العافية، وأخذ بالأسباب، وعالج المرض، ودفع العدوان، وأعد القوة. فالعبد لا يتعبد لله بحب الألم لذاته، وإنما يتعبد له بالصبر والطاعة والافتقار وهو يسعى في رفعه.

ومن هنا لا تنفصل وعود القرآن عن سياقاتها وشروطها. ليس كل وعد لكل فرد بعينه، ولا كل وعد للأمة يقع في كل جيل وبالصورة نفسها، ولا يصح أن تتحول ألفاظ النصر والفتح والتمكين والهداية والثواب إلى معنى واحد هو النجاح الدنيوي العاجل. الذي يحكم هذه المعاني هو الوحي، لا مقدار حاجتنا النفسية إلى نتيجة بعينها.

والرجاء الذي يصنعه القرآن لا يريح صاحبه من التكليف. قال الله تعالى:

> ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

جاء الوعد بالهداية في سياق المجاهدة، كما جاءت وعود أخرى مرتبطة بالإيمان والعمل والتقوى والصبر. ولذلك يدفع الرجاء الصحيح إلى التوبة والإصلاح واستكمال النقص والأخذ بالأسباب، ولا يتحول إلى انتظار ساكن يطلب من الواقع أن يتبدل بينما يترك الإنسان ما يستطيع تغييره.

وسيمضي هذا المحور من أصل الوعد إلى الطريق الذي يسلكه المنتظر للفرج، ثم إلى الخير الذي قد يفتحه الله للعبد في أثناء البلاء أو بعده، حتى نصل إلى حقيقة قد يغفل عنها من طال انتظاره للقوة: أن التمكين نفسه ليس نهاية الامتحان، وإنما انتقال إلى ميدان جديد من الشكر والعمل والافتقار وحمل الأمانة.

وهكذا يبدأ المحور من سؤال لا يستقيم الرجاء من غير تحريره:

كيف يوقن المؤمن بوعد الله يقينًا كاملًا، من غير أن ينسب إلى الله صورة أو موعدًا لم يعده به؟

الوحدة الرابعة والعشرون: وعد الله لا يتخلف

كيف يوقن المؤمن بوعد الله، من غير أن ينسب إلى الوعد صورة أو موعدًا لم يحددهما الله؟

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يريدون البيت الحرام معتمرين، وساقوا الهدي ليعلم الناس أنهم لم يخرجوا لقتال. وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين، ورؤيا الأنبياء وحي. مضوا وفي قلوبهم خبر صادق، ثم انتهى بهم الطريق إلى الحديبية، فمنعتهم قريش من مكة، وطال التفاوض، وعاد المسلمون في ذلك العام من غير أن يطوفوا بالبيت.

كان الوعد حقًا، وكان الواقع أمام أعينهم يبدو في اللحظة نفسها بعيدًا عما انتظروه.

قال عمر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم: «أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟» فقال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟» قال: لا. قال: «فإنك آتيه ومطوف به». وقال صلى الله عليه وسلم في ذلك الموقف: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري» رواه البخاري (2731، 2732).

في هذا الحوار القصير يظهر موضع دقيق من مواضع اضطراب القلب. لم يكن الخطأ في تصديق خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدخول البيت، وإنما دخل التقدير البشري في شيء لم يحدده الوحي: العام الذي سيقع فيه الدخول. فصحح النبي صلى الله عليه وسلم الإضافة، ولم ينف أصل الوعد.

ثم جاء القرآن فقرر الحقيقة من داخل الواقعة نفسها:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 27].

صدق الله رسوله في الرؤيا، وبقي الوعد حقًا، أما الطريق إليه فلم يكن محكومًا بعلم المنتظرين. ولهذا جاءت الكلمة الفاصلة: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾. وفي هذه الجملة حد بين مقام الرب ومقام العبد؛ علم الله محيط سابق، وعلم الإنسان محدود بما يراه ويقدره.

ولا تعطينا الحديبية حقًا في أن نسمي كل تأخر في حياتنا «حديبية جديدة»، أو أن نجزم بأن كل باب يغلق سيعقبه فتح دنيوي أعظم. هذه واقعة مخصوصة دل الوحي على معناها. الذي نتعلمه منها أصل أبقى: أن قصور علم الإنسان لا يصبح حجة على صدق وعد الله، وأن الطريق المخالف لتوقعنا لا يساوي في نفسه تخلف الوعد.

وإذا كانت الحديبية قد كشفت قصور الإنسان في تعيين "ميقات الوعد"، فإن قصة يوسف عليه السلام تكشف قصوره في إدراك "محطاته"؛ فقد رأى وهو غلام صغير: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: 4]. لم تكن هذه رؤيا عابرة؛ كانت خبرًا صادقًا عن مآل بعيد، لكن بين الرؤيا وتحققها وقع ظُلم الإخوة، وظلمة الجب، وذل العبودية، وفتنة القصر، وسنوات السجن الظالم. لم يكن يوسف يملك أن يعرف متى تتحقق الرؤيا ولا كيف؛ كان يعلم فقط أنها صدق. وحين اجتمع الشمل أخيرًا، ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: 100]. فالوعد الصادق لا يُبطله طول الطريق، ولو امتد عمرًا كاملًا، ولو كانت المحطات التي بينه وبين تحققه أشد ما يمكن أن يمر به إنسان.

الوعد ثابت لأن الذي وعد هو الله

قال الله تعالى:

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 6].

جاءت الآية في خبر غلبة الروم بعد هزيمتهم في بضع سنين، ثم قررت أصلًا يتجاوز الواقعة: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾. فالطمأنينة إلى الوعد لا تبدأ من تقدير الظروف، وإنما من معرفة من تكلم به.

وقال سبحانه:

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122].

فاليقين لا يحتاج إلى أن يرى العبد الطريق كاملًا حتى يثبت؛ مصدره صدق المخبر سبحانه. أما الطريق والوقت والصورة فقد تبقى محجوبة عن الإنسان، ولا ينقص ذلك من صدق الخبر شيئًا.

المخلوق قد يعد ثم يخلف لأنه كذب، أو لأنه ظن نفسه قادرًا فعجز، أو ظهر له من المعلومات ما لم يكن يعلمه، أو حال بينه وبين مراده من هو أقوى منه. وهذه المعاني كلها ممتنعة في حق الله سبحانه؛ فعلمه سابق محيط، وخبره صدق، وقدرته كاملة.

ولهذا قال:

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: 47].

فالوعد الإلهي لا ينتظر أن تصبح الظروف مناسبة لله حتى ينفذ، ولا توجد قوة مستقلة عن ملكه تستطيع أن تمنع ما أراد. لكن كمال القدرة لا يعني أن الإنسان يملك أن يحدد لله وقت الفعل وصورته؛ فالذي يملك القدرة هو نفسه العليم الحكيم.

ولهذا فالسؤال الذي يحتاجه المؤمن عند طول الانتظار ليس: هل يستطيع الله أن يفي بوعده؟ وإنما: هل ما أنتظره فعلًا هو عين ما وعد الله به، أم أنني أضفت إلى كلامه شيئًا من تقديري ثم نسيت موضع الإضافة؟

حيث ينتهي النص ويبدأ تفسير الإنسان

قد مر في هذا الكتاب التفريق بين اليقين والتمني، وموضع النظر هنا أخص: كيف يقرأ المؤمن الوعد نفسه؟

تبدأ المشكلة أحيانًا بإضافة صغيرة. يقرر النص معنى، ثم يضع الإنسان إلى جانبه وقتًا أو صورة أو شخصًا أو طريقًا لم يعينه الوحي. ومع مرور الزمن تذوب الإضافة في أصل المعنى، فيتعامل القلب مع الاثنين كأنهما خبر واحد من الله.

قد يعيش الإنسان هذا الخلط من غير أن ينتبه إليه. تدعو أم سنوات أن يصلح الله ولدها، ثم ترسم في قلبها طريقًا بعينه لرجوعه ووقتًا قريبًا تنتظره؛ فإذا سلك الولد طريقًا أطول أو بقيت حاله كما هي، لم يعد الألم عندها ألم الانتظار وحده، بل بدأ يقينها نفسه يضطرب. الدعاء مشروع، والرجاء في هداية الله عظيم، لكن الموعد والطريق اللذين رسمتهما النفس لم يصبحا بذلك وعدًا من الله. وحين تفصل بين الأمرين تستطيع أن تواصل الدعاء بقلب أصدق: توقن بقدرة الله ورحمته، من غير أن تنسب إليه موعدًا لم يخبرك به.

وعد الله أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بدخول المسجد الحرام، فأضاف التوقع البشري: في هذا العام. ويقرأ الإنسان وعدًا بالعاقبة لأهل التقوى، فيضيف: وعاقبة خطتي الحالية لا بد أن تكون النجاح الذي أراه. ويقرأ وعدًا بالنصر لأهل الحق، ثم ينتقل مباشرة إلى الجزم بأن جماعته هي التي استوفت الشروط، وأن وسيلتها هي الطريق، وأن زمنه هو زمن تحقق الوعد.

الوقوف عند حدود الوحي يحمي اليقين ولا يضعفه. فما أخبر الله به نصدقه، وما لم يحدد صورته لا نجعله خبرًا قاطعًا، وما لم يعين وقته لا نحول توقعنا إلى موعد، وما علقه بأوصاف وشروط لا نزكي أنفسنا بأننا استوفيناها بلا مراجعة.

الوعد لا ينفصل عن أهله وشروطه

قال الله تعالى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: 55].

الآية تبني الرجاء، وتبني معه المحاسبة. ذكرت الإيمان والعمل الصالح والعبادة والتوحيد، فلا يصح أن نأخذ النتيجة ونمر على أوصاف أهلها سريعًا. وليس لمجرد أن جماعة تنتسب إلى الإسلام أو تحمل قضية عادلة أن نجزم بأنها استوفت كل شروط الوعد أو أن جميع قراراتها ووسائلها داخلة في رضى الله.

هذا الفهم يحفظ الإنسان من مرض خفي: أن يحول وعد الله إلى شهادة يمنحها لنفسه. بدل أن يسأل: هل أنا من أهل هذه الأوصاف؟ يقرر ابتداءً أنه من أهل الوعد، ثم يستخدم الوعد لحماية نفسه من المراجعة.

وقد يكون الوعد متعلقًا بأمة يمتد عمرها بعد أعمار أفرادها. يعمل جيل في حفظ أصل، ويبني آخر فوقه، ثم تظهر ثمرة بعدهما. فلا يملك الفرد أن يجعل مدة حياته هي المدة التي يجب أن يكتمل فيها كل وعد متعلق بمسيرة الأمة، ولا تملك جماعة أن تجعل بقاءها شرطًا لبقاء الحق.

الحق أوسع من أسمائنا، ووعد الله لا يتوقف على أن نكون نحن أبطال المشهد الأخير.

لا تختزل الوعود في صورة واحدة

من مواضع الخلل أن تصهر المعاني القرآنية المختلفة في نتيجة دنيوية واحدة. فالنصر والفتح والتمكين والهداية والثواب وحسن العاقبة ألفاظ تأتي في سياقات متعددة، وقد تتداخل بعض معانيها، لكنها لا تختصر كلها في صورة واحدة هي الغلبة الظاهرة التي يريدها الإنسان الآن.

المريض مأمور أن يطلب الشفاء ويأخذ بالعلاج، لكن حفظ إيمانه في المرض هداية عظيمة. والمظلوم مأمور أن يسعى في رفع الظلم، ولا يجوز أن يستخدم الصبر لإسكاته عن حقه، لكن بقاءه على العدل ورفضه أن يتحول إلى ظالم خير يحفظه الله عليه داخل المحنة.

وقد يعمل قوم للحق فلا يشهدون في حياتهم الغلبة التي يرجونها، ويبقى من علمهم أو تربيتهم أو مواقفهم ما يقوم عليه خير بعدهم. لا نسمي كل تعثر نصرًا، ولا كل استمرار للبلاء فرجًا؛ وإنما نرفض أن نجعل معيار صدق كل وعد هو حصول الفرد على النتيجة الدنيوية التي رسمها لنفسه.

ماذا يكشف الوعد في القلب؟

الوعد لا يختبر مقدار تصديق الإنسان فحسب؛ قد يكشف الطريقة التي يرى بها نفسه.

يقرأ أوصاف أهل الوعد، ثم يدخل نفسه وجماعته فيها من غير خوف من التقصير. لا يسأل عن المظالم التي وقعت، أو ضعف الإعداد، أو أخطاء الوسائل، لأن حكمًا سابقًا استقر في نفسه: نحن أهل الوعد.

وهنا تتسلل تزكية النفس إلى باب الرجاء. فالانتماء إلى الحق لا يجعل كل فعل صادر عنا حقًا، وصحة الغاية لا تصحح كل وسيلة، والثبات على أصل شرعي لا يمنح العصمة في تنزيله. وقد يكون من تمام الإيمان بالوعد أن يخاف الإنسان من فوات شرطه، بدل أن يستعمل الوعد ستارًا يحجبه عن رؤية عيوبه.

ويكشف طول الانتظار شعورًا آخر: الاستحقاق. يدعو الإنسان ويصبر ويبذل، ثم ينشأ في أعماقه أن هذه الأعمال صارت ثمنًا يلزم أن يقابله عطاء دنيوي بعينه. فإذا لم يقع، انتقل السؤال من الافتقار إلى المطالبة.

الله لا يضيع عمل العاملين، ووعده بالثواب حق، لكن العبد لا يملك أن يحول طاعته إلى عقد يحدد به لله نوع العطاء الدنيوي وموعده.

وقد يكشف الانتظار تعلقًا أشد خفاء؛ يريد الإنسان ظهور الحق، لكنه يريد أن يكون حاضرًا في لحظة ظهوره، وأن يقع الخير على يده. فإذا جاء الخير من طريق آخر أو على يد غيره شعر بشيء من الفقد. حينها يحتاج أن يسأل نفسه: هل كان قصدي أن يتحقق الحق، أم أن أكون أنا جزءًا ظاهرًا من صورة تحققه؟

حين لا ترى ما انتظرته

قد تدعو أم أعوامًا لصلاح ولدها ولا ترى ما ترجو، وقد يطالب مظلوم بحقه ويطول عليه الطريق. وفي هذه المواضع ينبغي أن يكون خطاب الوحي أصدق من رغبتنا في تقديم جواب سريع.

لا نملك أن نقول للأم إن ولدها سيصلح حتمًا في الوقت الذي تريد، ولا للمظلوم إنه سيرى بعينيه نهاية من ظلمه. هذه تفاصيل لم نعط وعدًا خاصًا بها.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي» رواه البخاري (6340)، ومسلم (2735). وقد مر هذا الحديث في الكتاب، وموضع العودة إليه هنا أخص: أن تأخر الصورة التي ينتظرها العبد لا يبيح له أن يجعل الموعد الذي وضعه لنفسه معيارًا للحكم على وعد الله أو على عبادة الدعاء.

فالعبد يدعو ويعمل ويراجع، من غير أن يجعل عبوديته متوقفة على النتيجة التي يرجوها. وتأخر النتيجة لا يثبت بطلان الطريق بمجرده، كما أن النجاح لا يثبت سلامة كل وسيلة استعملت للوصول إليه.

ميزان الانتظار

حين تقرأ وعدًا في القرآن، ابدأ بالنص قبل أن تبدأ بواقعك. انظر في المخاطبين، والسياق، والأوصاف، والشروط، ونوع الوعد. ثم انتقل إلى نفسك بقلب يرجو ولا يزكي: ما الذي جاء به النص فعلًا، وما الذي أضفته أنا من فهم وتقدير؟

بعد ذلك قم بحقك الحاضر. إن ظهر خطأ في الخطة فصححه، وإن وقعت مظلمة فارفعها، وإن ثبت تحريم وسيلة فاتركها. وعد الله لا يحتاج إلى معصيته حتى يتحقق، والنتيجة الصحيحة لا تجعل الطريق المحرم صحيحًا.

ثم ادع الله واعمل واستعن به، مع بقاء الفرق واضحًا بين الوحي واجتهادك. تستطيع أن تقول: هذا ما وعد الله به، وأنا أرجو أن أكون من أهله، وأظن أن هذه الوسيلة أنفع. الأولى خبر عن الله، والثانية رجاء ومحاسبة، والثالثة اجتهاد بشري يقبل الخطأ والتصحيح.

بهذا يستطيع المؤمن أن يكون صادقًا مع الواقع وموقنًا بربه في الوقت نفسه. يعترف بالضعف، ويعالج الخطأ، ويراجع الوسيلة، ثم لا يجعل شيئًا من ذلك حجة على صدق الوعد.

وإذا سأله قلبه: متى؟ ولم يجد في الوحي موعدًا، لم يخترع موعدًا ليطمئن. وإذا سأله: كيف؟ ولم يعرف الطريق، لم يجعل جهله بالطريق دليلًا على غياب قدرة الله.

يكفيه أن يعرف من الذي وعد:

> ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾.

وحين يستقر هذا الأصل، ينتقل السؤال من صدق الوعد إلى عبودية الطريق: ما الذي شرعه الله لعبده حين يضيق عليه المخرج، وهو لا يعرف متى يأتي الفرج ولا من أي باب؟

الوحدة الخامسة والعشرون: سنن الفرج

حين يطول الكرب ولا يظهر المخرج، ماذا يطلب الله من عبده أن يفعل، من غير أن يحول الأسباب الشرعية إلى معادلة يفرض بها على القدر نتيجة معينة؟

قد يبلغ الضيق بالإنسان مرحلة لا يعود فيها يسأل متى تنتهي المشكلة، وإنما من أين يمكن أن تنتهي أصلًا. جرب ما يعرفه، وانتظر ما يرجوه، وطرق الباب الذي حسب أن الخلاص وراءه، ثم مضى الزمن وبقيت الشدة. ومع طول الانتظار قد ينتقل القلب من وصف حاله إلى حكم على الغيب: ما دمت لا أرى مخرجًا، فربما لا يوجد مخرج.

وفي هذا الموضع يأتي القرآن بسياق يجمع أصول العبودية في زمن الضيق:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: 2-3].

في هاتين الآيتين يبدأ الطريق بالتقوى، ثم يذكر الله المخرج، ويفتح أفقًا يتجاوز ما يحتسبه العبد، ويرد القلب إلى التوكل، ثم يقرر أن أمره بالغ، وأن لكل شيء قدرًا. وهذه المعاني لا تقدم وصفة يتحكم بها الإنسان في وقت الفرج وصورته؛ إنها عبوديات وأسباب شرعية يسلكها المؤمن في الشدة، ويقف فيها عند حدود ما وعد الله به.

المخرج يبدأ من التقوى

جاء قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ في سياق أحكام الطلاق والعدة وحدود الله. وهذا السياق جزء من المعنى؛ فالطلاق موضع قد تشتد فيه الخصومة والخوف على الأسرة والمال والمستقبل، وتصبح الحاجة إلى الخروج من الأزمة نفسها امتحانًا للطريقة التي يطلب بها الإنسان مخرجه.

فالضيق قد يعرض على صاحبه حلولًا تبدو سريعة: كذبة تحفظ مصلحته، أو مالًا حرامًا يسد حاجته، أو ظلمًا يرد به ظلمًا، أو خيانة يظن أنها تنقذ عملًا أو قضية. وحينئذ يصبح السؤال أعمق من: كيف أخرج؟ يصبح: بأي قلب ودين سأخرج؟

الآية تربط المخرج بالتقوى قبل أن تكشف صورته. والذي أمرك أن تحفظ حدوده في ساعة الضغط هو نفسه الذي قال: ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾. ولذلك لا يحتاج المؤمن إلى أن يعصي الله حتى يفتح لنفسه بابًا؛ فهو يعلم أن الأبواب كلها في ملك من أطاعه.

ولا يعني هذا أن كل متق سيأخذ في الدنيا عين النتيجة التي تمناها وفي الوقت الذي اختاره. الوعد حق كما جاء، لكن العبد لا يحوله إلى صفقة تفصيلية من عنده. وظيفته أن يحفظ التقوى وهو يسعى، لا أن يجعل طاعته وسيلة لمطالبة الله بصورة محددة.

ما لا تحتسبه ليس خارج ملك الله

قال تعالى:

> ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

الإنسان يحتسب ويحسب ويخطط؛ لأنه مأمور بالأخذ بالأسباب ولأن علمه محدود. لكنه يخطئ حين تتحول دائرة حسابه إلى دائرة يظن أن قدرة الله لا تعمل خارجها.

قد يتعلق القلب بوظيفة بعينها حتى تصبح عنده مرادفة للرزق، أو بخطة واحدة حتى يرى فشلها نهاية للطريق. وعندها يكون السبب قد تجاوز حجمه؛ لم يعد مجرد طريق يسعى فيه الإنسان، بل صار في شعوره حدًا لما يمكن أن يأتيه من الله.

قول الله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ لا يمنع التخطيط، وإنما يمنع عبادة التخطيط. ولا يعد كل فاقد بتعويض دنيوي أكبر، لكنه يمنع الإنسان من أن يجعل ما لا يعرفه غير موجود في ملك الله.

ولهذا فرق كبير بين أن تقول: لا أرى الآن مخرجًا، وأن تحكم: لا مخرج. الأولى اعتراف بحدود علمك، والثانية دعوى فيما وراء علمك.

التوكل يعيد السبب إلى حجمه

ثم قال الله:

> ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾.

في زمن السعة يسهل الكلام عن أن الأسباب لا تستقل بالنتائج. أما حين يتعطل السبب الذي علق الإنسان عليه أمله، فهناك يظهر موضع اعتماد القلب.

الطبيب سبب للعلاج، لكنه لا يخلق الشفاء. والوظيفة باب رزق، وليست خزائن الله كلها. والخطة قد تكون محكمة، ثم يظهر في الواقع ما لم يدخل في حساب واضعها. والتوكل لا يلغي هذه الأسباب ولا يقلل من شأن الإتقان فيها، وإنما يمنعها من أن تستولي على مقام لا يكون إلا لله.

وهنا يعود حديث سبق استعماله في الكتاب، لكن موضعه هنا أخص. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز» رواه مسلم (2664).

جمع الحديث حركة الجوارح وجهة القلب: حرص على النافع، واستعانة بالله، ورفض للعجز. فانتظار الفرج لا يعني أن يتوقف الإنسان عن فعل ما ينفعه، والأخذ بالأسباب لا يعني أن يستقل بها عن ربه.

اليسر لا يلغي العمل

قال الله تعالى:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: 5-8].

وفي السورة نفسها التي قررت معية اليسر للعسر جاء توجيه العبد إلى النصب والرغبة إلى ربه. فالوحي يجمع بين الرجاء والعمل، وبين الحركة والافتقار.

وقد يخطئ الإنسان لأنه ينتظر الحل الكامل قبل أن يبدأ الخطوة الممكنة. يريد إصلاح أسرته كلها، فيهمل حوارًا يستطيع أن يبدأه. يريد الخروج من دين كبير، فلا يراجع نفقة يقدر على خفضها. يريد علاجًا حاسمًا، فيترك استشارة أو متابعة جديدة.

والمؤمن لا يكلف بأن تكون قدرته مساوية لحجم الكرب؛ قال الله تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286].

فالمطلوب أن يؤدي ما وسعه الله فيه اليوم. فإن كان أمامه سبب مشروع نافع أخذه، وإن ظهر ضعفه راجعه، وإن وجد وسيلة أصلح انتقل إليها. وقد سبق في الكتاب تفصيل الفرق بين الثبات على المقصد والجمود على الوسيلة؛ والقدر الذي يعنينا هنا أن انتظار الفرج لا يعفي الإنسان من الخطوة التي يقدر عليها.

حين يكون في النفس ما يحتاج إلى إصلاح

ومن العبوديات التي تدخل في طريق الفرج مراجعة الإنسان لما بينه وبين الله، لكن هذا الباب يحتاج إلى ضبط حتى لا يظلم المبتلى.

فليس كل بلاء عقوبة على ذنب معين، ولا يملك أحد أن يخبر مريضًا أو فاقدًا أو مظلومًا بالحكمة الخاصة فيما أصابه من غير دليل. لقد ابتلي الأنبياء والصالحون، وقد يكون البلاء رفعًا للدرجات أو تكفيرًا أو امتحانًا أو لحكمة لا نعلمها.

لكن الإنسان قد يعرف من نفسه خطأ لا يحتاج إلى كشف الغيب: حقًا منعه، أو ظلمًا أصر عليه، أو مالًا محرمًا بقي في يده. في هذه الحال لا يحتاج إلى أن يجزم بأن هذا الذنب هو السبب الغيبي لبلائه؛ يكفيه أن يعرف أن الذنب ذنب، وأن الله أمره بالتوبة منه.

فإن كان حقًا رده، وإن كان ظلمًا رفعه، وإن كان فسادًا في عمله أصلح ما يستطيع. وقد سبق تفصيل التوبة في موضعها، ووظيفتها هنا محددة: لا تنشغل بطلب أن يغير الله كل ما حولك وأنت تعرف أن في يدك شيئًا أمرك بتغييره ثم تؤجله.

والتوبة نفسها لا تتحول إلى صفقة؛ يتوب العبد لأنه عبد، لا لأنه ضمن أن تنتهي مشكلته في اليوم التالي.

حين تنتهي الأسباب التي تعرفها

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن ثلاثة رجال آووا إلى غار، فانحدرت صخرة فسدت عليهم بابه، فانقطعت عنهم أسباب الخروج التي يعرفونها. فتوجهوا إلى الله، وذكر كل واحد منهم عملًا صالحًا أخلصه لله: ذكر الأول بره بوالديه حتى قدم حقهما على أهله وولده، وذكر الثاني عفته عن الحرام حين قدر عليه ثم تركه خوفًا من الله، وذكر الثالث أمانته في مال أجير حتى نماه له ثم دفعه إليه كاملًا. وكلما دعا واحد منهم انفرجت الصخرة شيئًا، حتى خرجوا يمشون. رواه البخاري (2272)، ومسلم (2743).

القصة لا تعطينا معادلة تقول إن كل من دعا بصالح عمله انكشف كربه بالطريقة نفسها، لكنها تربي في القلب معنى مركزيًا: انتهاء الأسباب التي يعرفها العبد لا يعني انتهاء قدرة الله، والعبودية التي عاشها في أيام السعة لا تضيع عند ربه.

وفي قلب هذا المعنى يقول الله تعالى:

> ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: 62].

فالدعاء ليس خطة احتياطية تبدأ حين تفشل الوسائل، وإنما عبودية تصحب العبد وهو يأخذ بالأسباب، وتبقى معه إذا انقطعت الأسباب التي يعرفها.

حين تتحول السنن إلى صفقة

يسمع الإنسان أن التقوى سبب للمخرج، وأن الدعاء مشروع، وأن الصبر مطلوب، وأن الأخذ بالأسباب مأمور به، ثم قد يجمع هذه المعاني في معادلة من عند نفسه: اتقيت ودعوت وصبرت، إذن يجب أن تزول المشكلة الآن.

وهنا يتحول طريق العبودية إلى مطالبة بعقد لم يكتبه الله.

فالضابط الذي يحكم معنى سنن الفرج في هذه الوحدة أن التقوى والدعاء والتوكل والعمل والتوبة عبادات وأسباب شرعية دل الوحي عليها، ورتب الله على بعضها وعودًا عامة، لكنها لا تمنح العبد سلطة على صورة المقدور ووقته.

المؤمن يفعل ما أمره الله به لأنه عبد، ويرجو ما وعده الله به كما وعد، ثم يترك ما لم يخبره الله به لعلمه وحكمته.

ماذا يكشف طول الطريق؟

قد يكشف طول الشدة أن القلب كان متعلقًا بالله ومعه بفكرة الفرج القريب. كان يدعو ما دام يظن أن الإجابة على بعد أيام، فلما امتدت الشهور فتر. وكان يصبر ما دام يرى الثمرة قريبة، فلما طال الطريق بدأ يسأل عن جدوى الاستقامة نفسها.

هذا الكشف يعيد العبادة إلى أصلها. المؤمن يطلب الفرج ويكرر الدعاء ويبكي من الحاجة، لكنه لا يجعل استمرار طاعته مشروطًا بموعد وضعه هو.

ولهذا ختمت آيات المخرج بقوله تعالى:

> ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾.

الله بالغ أمره، فلا شيء يعجزه، ومع ذلك جعل لكل شيء قدرًا. وبين القدرة الكاملة والتقدير المحكم يعيش المؤمن رجاء لا ييأس، وتسليمًا لا يدعي الغيب.

ميزانك حين تضيق المخارج

حين يطول عليك الكرب، ابدأ بما أنزله الله لك اليوم، لا بمحاولة معرفة ما سيفعله غدًا.

احفظ حدود الله في الطريق، وخذ ما تستطيع من الأسباب المشروعة، وراجع ما ظهر ضعفه، وتب مما تعرفه من ذنب من غير أن تدعي أنه التفسير الغيبي لما أصابك. وراقب قلبك وهو يأخذ بالأسباب: هل يستعملها أم صار يعتمد عليها؟

وادع الله في أول الطريق ووسطه وآخره. اسأله حاجتك بعينها، وألح عليه، مع بقاء قلبك عبدًا لا يملك أن يحدد لله زمن الإجابة وصورتها. ثم اصبر على المسافة التي لا تعرف طولها؛ فالصبر يحفظ دينك وعقلك وعملك من أن تفسدها الشدة قبل أن يأتي الفرج.

بهذا يعرف المؤمن ما عليه، وإن بقي لا يعرف متى ينتهي البلاء: يتقي الله، ويأخذ بالسبب، ويستعين بربه، ولا يحصر المخرج فيما يحتسب، ويعلم أن الله بالغ أمره وأن لكل شيء قدرًا.

وقد يأتي الفرج من الباب الذي ظل يرجوه، أو يفتح الله له طريقًا آخر. وقد ينتهي بعض البلاء، ثم يكتشف الإنسان أن أعظم ما خرج به لم يكن مجرد عودة الحياة إلى صورتها السابقة.

فمتى يصح أن نقول إن البلاء صار بابًا إلى نعمة، من غير أن نجعل الألم محبوبًا لذاته، أو نعد كل مبتلى بتعويض دنيوي أكبر مما فقد؟

الوحدة السادسة والعشرون: حين يتحول البلاء إلى نعمة

هل يمكن أن يكون في البلاء خير حقيقي، من غير أن نسمي الألم نعمة، أو نزعم أن كل خسارة ستتحول في الدنيا إلى مكسب أكبر؟

قد يمر الإنسان بمحنة لا يتمنى عودتها أبدًا، ثم ينظر إلى نفسه بعد سنوات فيجد أن شيئًا عميقًا تغير فيه. صار أعرف بربه، وأصدق مع نفسه، وأبصر بتعلقه بالدنيا، أو عاد عن ذنب طال مقامه فيه. وربما بقي مع ذلك يقول بصدق: كانت أيامًا مؤلمة، وما زلت أتمنى لو لم يقع بعض ما وقع.

فهل يلزم حتى نحمد الله على خير خرج من البلاء أن نسمي البلاء نفسه خيرًا من كل وجه، أو أن نتوقف عن الحزن على ما فقدناه؟

يضع النبي صلى الله عليه وسلم الميزان في قوله: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له» رواه مسلم (2999).

أبقى الحديث الحالين على اسميهما: سراء وضراء. ثم بين أن الخير يتولد في حياة المؤمن من عبوديته لله فيهما؛ يشكر عند السعة، ويصبر عند الضر. فالضراء لم تصبح سراء بمجرد وقوعها، لكن المؤمن يستطيع أن يخرج منها بخير إذا وفق لعبودية ربه فيها.

ومن هنا يبدأ المعنى الذي تحكمه هذه الوحدة: قد يكون البلاء مكروهًا مؤلمًا في نفسه، ثم يفتح الله للعبد فيه أو بسببه أبوابًا من الصبر والتوبة والهداية والأجر وحفظ الدين، فيكون ما حصله المؤمن من هذه الأبواب نعمة تستحق الشكر، من غير أن نزعم أن كل ما وقع له صار محبوبًا من كل وجه.

الضر يبقى ضرًا

قال الله تعالى في خبر أيوب عليه السلام:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۖ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: 83-84].

سمى أيوب عليه السلام ما أصابه ضرًا، ودعا ربه بكشفه، ثم سمى الله ما آتاه بعد ذلك رحمة. هذا الميزان القرآني يمنعنا من خطاب يتكلف تزيين الألم للمبتلى حتى يثبت إيمانه. للمريض أن يطلب الشفاء، وللمظلوم أن يسعى في رفع الظلم، وللفاقد أن يحزن، وليس صدق العبودية في إنكار ما يؤلم الإنسان.

وفي الوقت نفسه لم يكن الضر هو كل ما في قصة أيوب. كان هناك عبد يعرف إلى من يتوجه، ورب وصفه في دعائه بأنه أرحم الراحمين، ثم استجابة وكشف ورحمة. فالقرآن لا ينكر الألم ليبني الرجاء، ولا يجعل الاعتراف بالألم حاجزًا عن رؤية رحمة الله.

وهذا هو أول الضوابط في فهم تحول البلاء إلى نعمة: لا نحتاج إلى تغيير أسماء الأشياء. الظلم ظلم ولو تعلم المظلوم منه، والمرض ضر ولو ازداد المريض قربًا من الله، والفقد موجع ولو أعقبه نضج وإيمان. الخير الذي نحمد الله عليه هو ما فتحه سبحانه للعبد في الطريق أو بعده، لا مجرد الألم من حيث هو ألم.

أين يقع الخير؟

حديث «عجبًا لأمر المؤمن» لا يقول إن كل ضراء تقع بالإنسان تصبح خيرًا له آليًا، وإنما ربط النبي صلى الله عليه وسلم الخير باستجابة المؤمن: «إن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له».

ومن أعظم ما وعد الله به أهل هذه العبادة قوله تعالى:

> ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

فإذا صبر المؤمن لله، لم يعد ما مر به مجرد ألم ضاع من عمره؛ صار له عند الله أجر. وهذا خير حقيقي وإن لم يعقبه في الدنيا تعويض يماثل ما فقد.

وقد يفتح البلاء باب عبودية لم يكن ليظهر في حياة الإنسان بالصورة نفسها في زمن السعة: يفتقر بعدما كان يرى نفسه مستغنيًا، ويتوكل حين تتراجع الأسباب، ويصبر حين لا يملك استعجال النهاية.

وقد يفتح أيضًا باب رجوع. قال الله في خبر يونس عليه السلام:

> ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: 87-88].

ولا يصح أن ننقل هذا المعنى إلى كل مبتلى فنقول إن شدته دليل على ذنب فعله. لكن إذا عرف الإنسان من نفسه خطأ ثابتًا ثم ردته الشدة إلى التوبة منه، فإن التوبة نفسها نعمة يحمد الله عليها، من غير أن يدعي أنه عرف السر الغيبي الكامل لما أصابه.

فهذه المعاني لا تعطينا حق الجزم بأن الله أنزل بفلان مرضه ليعلمه التوكل، أو أخذ منه شيئًا ليرده إليه. الحكمة الخاصة لا تنسب إلى الله بغير دليل. لكننا نعلم أن الله شرع للمبتلى عبادات، وأن من وفق إليها خرج بخير حقيقي دل عليه الوحي.

النعمة ليست دائمًا تعويضًا يشبه الخسارة

من أكثر التصورات التي تحتاج إلى تصحيح أن يربط الإنسان الخير بعد البلاء بتعويض دنيوي يمكن قياسه. فقد مالًا فينتظر مالًا أكثر، أو خسر موقعًا فينتظر موقعًا أعلى؛ فإذا لم تقع هذه المقابلة ظن أنه لم يخرج من المحنة بشيء.

ميزان الوحي أوسع من ذلك. الأجر نعمة، وحفظ الدين نعمة، والتوبة نعمة، والهداية نعمة، والقلب الذي صار أقل اغترارًا بنفسه نعمة. وهذه الخيرات لا تصبح صغيرة لأنها لا تظهر في حساب مصرفي أو منصب أو صحة أو نصر يراه الناس.

قد يبقى المرض في جسد إنسان سنوات، ويظل يأخذ علاجه ويسأل الله العافية، ثم يعرف في نفسه أنه خرج من تلك السنوات بقلب لم يعد كما كان. كان يؤخر الصلاة، فصارت موعدًا ينتظره، وكان يعتمد على قوته، فعرف مقدار فقره، وكان يمر بآلام الآخرين من بعيد، فأصبح أرحم بهم لأنه ذاق شيئًا من ضعفهم. لا يقول لهذا إن المرض محبوب، ولا يتوقف عن طلب الشفاء؛ لكنه لا يجحد ما فتح الله له من خير لأن جسده لم يشف بعد. لقد بقي الضر ضرًّا، ووجد إلى جواره نعمة حقيقية من جنس آخر.

وقد يفقد آخر مالًا أو موقعًا كان قلبه متعلقًا به تعلقًا شديدًا، ويبقى الفقد خسارة في ميزان الدنيا، ثم يكتشف بعد زمن أن الشيء الذي كان يظن أن قيمته كلها معلقة به لم يعد يملكه كما كان. لم يستبدل الله له بالضرورة مالًا أكثر ولا موقعًا أعلى، لكن قلبه صار أحرر من عبودية شيء كان يظنه مجرد نعمة. وهذه ثمرة لا تلغي الخسارة، لكنها تمنع الخسارة من أن تكون وحدها كل ما خرج به من التجربة.

ولا تستخدم هذه المعاني لتسكين المظلوم أو منع المريض من العلاج. قد يحفظ الله على المظلوم دينه وهو مأمور في الوقت نفسه بالسعي إلى حقه، وقد يزداد المريض قربًا من ربه وهو مأمور بالتداوي.

يمكن للقلب أن يحمل الحزن والشكر معًا؛ يحزن على ما فقده، ويحمد الله على ما حفظه. يطلب زوال الضر، ويشكر على خير وجده في الطريق. وهذه نظرة أوسع من اختزال الحياة في خسارة واحدة أو مكسب واحد.

حين ينكشف بعض اللطف

وقد مر يوسف عليه السلام في هذا الكتاب من جهة ثباته في اختلاف المواقع، ثم من جهة ما ظهر فيه من أهلية قبل التمكين. وموضعه هنا أخص: كيف قرأ ما انكشف له من مسار حياته بعد أن جمع الله شمله بأهله؟

قال يوسف عليه السلام:

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 100].

رأى يوسف الإحسان بعد أن انكشف له من المسار ما لم يكن يراه في الجب والسجن، ثم ختم نظره باسمين يحفظان المؤمن من الادعاء: ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾. الله يعلم القصة كاملة حين لا يعرف العبد إلا الصفحة التي يعيشها، وحكمته أوسع من الجزء الذي استطاع الإنسان فهمه بعد سنوات.

قد ينظر المرء إلى ماضيه فيرى أن بابًا أغلق فصرفه إلى طريق أصلح، أو أن خسارة كشفت له حقيقة علاقة أو قرار. له أن يحمد الله على الخير الذي ظهر له، لكن لا يحتاج إلى تحويل ما فهمه إلى تفسير شامل لكل القدر.

معرفة بعض اللطف لا تعني الإحاطة بكل الحكمة. وما بقي غائبًا عن العبد يرد علمه إلى العليم الحكيم.

لا تكره المبتلى على رؤية نعمة لم يرها

من الأخطاء التي قد تقع باسم الإيمان بالخير أن نضغط على المبتلى ليعلن سريعًا أن ما وقع له كان أفضل شيء في حياته، أو نقول لمن فقد شيئًا عظيمًا: لا بد أن الله سيعوضك في الدنيا بأفضل منه.

نحن لا نملك هذه الوعود.

قد يظهر للإنسان في حياته خير واسع خرج من محنته، وقد يرى بعضه، وقد لا يرى إلا الألم ويبقى ما ادخره الله له من الأجر أعظم مما أدركه. ولذلك لا يحتاج الإيمان إلى اختراع مكسب دنيوي لكل خسارة.

الذي دل عليه الوحي يكفينا: المؤمن الصابر أمره له خير، وأجر الصابرين لا يضيع، والرجوع إلى الله نعمة، وحفظ الدين نعمة، وعلم الله وحكمته أوسع من إدراكنا.

فأعن صاحب الجرح على دفع البلاء إن استطعت، وعلى أداء حقه، وعلى الصبر والطاعة، ودعه يحمد الله على ما يظهر له من خير حين يظهر.

ما الذي يستحق أن يبقى؟

قد يعرف الإنسان في المرض معنى الافتقار، فإذا شفي عاد إلى الغفلة. ويعرف قيمة أهله حين يخاف فقدهم، فإذا استقرت حياته عاد إلى إهمالهم. ويتوب حين تضيق الأسباب، فإذا اتسعت عاد إلى الذنب نفسه. عندها يكون البلاء قد فتح بابًا للخير، لكن الإنسان لم يحفظ ما فتح له.

وقد سبق في محور التمحيص الحديث عن تنقية القلب بعد أن ينكشف ما فيه، فلا يعاد هنا. المقصود أخص: إذا رأيت نعمة خرجت لك من الألم، فهل تحفظها بعد زوال السبب الذي أيقظك إليها؟

فإن كانت المحنة قد عرفتك قيمة الصلاة، فلا تجعل الصلاة ذكرى من أيام الأزمة. وإن أصلحت علاقتك بأهلك خوفًا من الفقد، فلا تعد إلى الغفلة حين يأتي الأمن. وإن أظهرت لك ضعفك، فلا تجعل العافية تعيد إلى قلبك وهم الاستغناء.

هنا يصبح الخير الذي خرج من البلاء نعمة محفوظة بالشكر، لا مجرد قصة مؤثرة ترويها عن مرحلة صعبة.

فالميزان الذي بدأ به النبي صلى الله عليه وسلم يبقى حاكمًا إلى النهاية: في الضراء صبر، وفي السراء شكر. وما بينهما قلب يرى فضل الله من غير أن يكذب على ألمه، ويطلب العافية من غير أن يجحد ما تعلمه، ويحمد ربه على ما ظهر له من لطف، ويسلم فيما خفي لعلمه وحكمته.

وقد يكون هذا من أعظم ما يخرج به الإنسان من البلاء: أن يعود إلى حياته بقلب أصلح، أو بتوبة أصدق، أو بدين حفظه الله عليه، أو بأجر يرجوه عنده.

لكن الامتحان لا ينتهي حين ينتهي الضعف. فإذا جاء بعد العجز قدرة، وبعد الخوف أمن، وبعد الحاجة سعة، انتقل القلب إلى ميدان جديد.

الوحدة السابعة والعشرون: التمكين ابتلاء جديد

حين يعطيك الله شيئًا مما ظللت تسأله وتعمل له، ما الذي يبدأ في تلك اللحظة، لا ما الذي ينتهي؟

يرى الإنسان الابتلاء بوضوح حين يمنع؛ يعرف أنه محتاج إلى الصبر والدعاء والثبات، ويشعر بثقل الطريق كلما ابتعدت النتيجة. أما حين تفتح الأبواب، وتتسع القدرة، ويصبح ما كان بعيدًا واقعًا بين يديه، فقد يتسلل إليه شعور بأن زمن الامتحان قد انتهى.

لكن القرآن يضع التمكين نفسه داخل ميدان الابتلاء، قال الله تعالى:

> ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 14].

جاء الاستخلاف، ثم جاء الامتحان في العمل. فالانتقال إلى موضع أوسع من القدرة لا يخرج الإنسان من الاختبار، وإنما يغير مادته. كان السؤال قبل القدرة: كيف تصبر وتعمل وأنت لا تملك؟ وصار بعدها: كيف تعمل بما صار في يدك؟

وقد سبق في أول هذا الكتاب أن مثل قوله تعالى: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ لا يعني أن الله يكتسب بالوقائع علمًا لم يكن عنده؛ فعلمه سبحانه سابق محيط بكل شيء. وإنما يقع العمل من العباد في واقع اختيارهم، وتقوم به الحجة.

وبهذا يصبح التمكين انتقالًا من اختبار إلى اختبار، لا خروجًا من ميدان الابتلاء.

ما جاءك أمانة قبل أن يكون ثمرة

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون» رواه مسلم (2742).

يلتقي الحديث مع آية يونس في معنى الاستخلاف والنظر في العمل. فما يوضع في يد الإنسان من قدرة ومال ومكانة وفرصة ليس ملكًا منفصلًا عن العبودية، بل مساحة جديدة يظهر فيها كيف يتصرف.

وقد يكون التمكين كبيرًا ظاهرًا، كسلطة أو ثروة أو تأثير واسع، وقد يكون في دائرة أصغر؛ علمًا صار الإنسان قادرًا على التعليم به، أو مالًا يمكنه أن ينفع به، أو كلمة يسمعها الناس منه، أو مشروعًا صار قراره نافذًا فيه. المشترك أن قدرته اتسعت، فاتسع معها ما يستطيع أن يطيع الله فيه أو يقصر.

وقد يظهر تغير الامتحان في صورة بسيطة. يقضي رجل سنوات يطلب فرصة ليقود عملًا نافعًا، ويشكو من قرارات من سبقه ومن أن صوته لا يسمع. ثم تأتيه المسؤولية التي تمناها، فيكتشف أن السؤال لم يعد: هل سأحصل على فرصة لأصلح؟ بل: ماذا سأفعل حين تتعارض مصلحة العمل مع راحتي، وحين ينتقدني من كنت أتمنى أن يسمع المسؤولون نقده، وحين أستطيع أن أقدم من أحب أو أؤخر من أخالف؟ لم تتغير الأمانة فقط؛ تغيرت المواضع التي تستطيع النفس أن تظهر فيها. وما كان بالأمس أمنية صار اليوم موضع سؤال.

وهذا يحول طريقة النظر إلى النجاح. فما ظللت سنوات تسعى إليه لا يصبح بعد الوصول حقًا خالصًا لك تفعل به ما تشاء؛ فقد يكون الوصول نفسه بداية المرحلة التي سيظهر فيها ماذا صنعت بما أعطيت.

الشكر عمل

قال الله تعالى:

> ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13].

جاء الأمر بالشكر في صورة عمل: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾. فالنعمة لا يؤدى حقها بمجرد أن يشعر صاحبها بالفرح أو يردد الحمد بلسانه، مع عظمة الحمد؛ يظهر الشكر أيضًا في الطريقة التي تستعمل بها النعمة.

من شكر العلم أن يعمل صاحبه به ويعلمه بصدق، ومن شكر المال أن يؤدي حق الله وحقوق الخلق فيه، ومن شكر التأثير أن يستخدم في الخير ولا يصبح صاحبه أسيرًا لإعجاب الجمهور، ومن شكر القدرة أن تتحول إلى نفع وأمانة.

ولهذا فالسؤال بعد التمكين لا يقتصر على: هل قلت الحمد لله؟ يمتد إلى: ماذا فعلت بما حمدت الله عليه؟

وقد يكون الإنسان كثير الحديث عن فضل الله عليه، ثم لا يظهر أثر هذا الاعتراف في عمله. فالشكر الحقيقي يحفظ النعمة داخل العبودية.

حين يأتي النصر، ماذا يأمرك الوحي؟

في لحظة من أعظم لحظات ظهور ثمرة الرسالة، نزل قول الله تعالى:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: 1-3].

المشهد كله مشهد نجاح ظاهر: نصر وفتح ودخول للناس أفواجًا. ومع ذلك وجه القرآن القلب إلى التسبيح والحمد والاستغفار.

التسبيح يرد الكمال إلى الله، فلا يتضخم صاحب الإنجاز حتى يظن أن النتيجة شهادة بكماله. والحمد يرد الفضل إلى الله الذي فتح وأعان. والاستغفار يبقي القلب واعيًا بنقصه؛ فالنجاح لا يثبت أن كل ما سبق كان كاملًا، ولا يجعل صاحبه مستغنيًا عن مراجعة نفسه.

وهذا من أعمق الفروق بين من يرى التمكين نهاية الامتحان ومن يراه بدايته الجديدة. فإذا ظهرت ثمرة عملك، لا تجعلها برهانًا على عصمة الطريق كله، وإذا فتح الله لك، فلا تنس أن الذي أقدرك على الوصول هو الذي ستقف بين يديه لتسأل عما صنعت بعده.

يتغير نوع الخطر بعد الوصول

في زمن الضعف يخاف الإنسان من اليأس والاستعجال وترك الطريق لقلة النتائج. وبعد التمكين تظهر أخطار أخرى: الاعتياد على النعمة، والشعور بأن ما تحقق سيبقى تلقائيًا، وتحول الوسيلة إلى غاية، وانشغال الإنسان بحفظ موقعه أكثر من حفظ الأمانة التي جاء الموقع لخدمتها.

وقد سبق في الكتاب تفصيل ما تكشفه القوة من العدل والهوى، فلا يعاد ذلك هنا. الذي يخص هذه المرحلة أن النجاح نفسه يستطيع أن يغير تعريف المهمة في قلب صاحبها.

بدأ مشروعًا ليخدم غاية نافعة، ثم كبر المشروع، فأصبح همه الأول بقاء المشروع نفسه ولو ضعفت الغاية. طلب موقعًا لأنه يراه وسيلة للإصلاح، ثم صار بقاء الموقع جزءًا من نجاحه الشخصي. وهكذا يمكن للإنسان أن يصل إلى الوسيلة التي سعى إليها، ثم ينسى لماذا سعى إليها أصلًا.

التمكين الصادق يحفظ الغاية فوق الوسيلة، والحق فوق الموقع، والأمانة فوق رغبة البقاء.

بعد الوصول يبدأ عمل لم يكن ممكنًا قبله

قبل أن تتسع القدرة، توجد أعمال لا يستطيع الإنسان القيام بها. فإذا اتسعت، دخل جزء مما كان خارج استطاعته في دائرة مسؤوليته.

من لم يكن يملك موردًا واسعًا تختلف مسؤوليته عمن اتسع ماله، ومن لم يكن لكلمته أثر كبير تختلف تبعة خطابه عمن صار مسموعًا. وهذا لا يعني أن كل ممكن يصبح واجبًا شرعًا، وإنما أن القدرة الجديدة تفتح أبوابًا جديدة للتكليف والاختيار، ويحتاج صاحبها إلى فقه يميز ما يجب وما يستحب وما يقدم.

الإنسان الذي دعا أعوامًا أن يفتح الله له بابًا للخير يحتاج بعد أن يفتح الباب إلى عبودية أخرى: أن يدخل منه ويحسن العمل.

ومن تمام شكر التمكين ألا يرتبط الخير كله بشخص صاحبه. فمن صدق في خدمة الحق يعلم من بعده، ويهيئ من يحمل الأمانة، ويفرح ببقاء الخير ولو تغير موقعه أو غاب اسمه. وليس المقصود أن يترك صاحب الكفاءة موضعه قبل وقته، وإنما ألا يبني خيرًا لا يستطيع البقاء إلا ببقائه هو.

النجاح لا يغنيك عن الافتقار

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15].

لم تتغير هذه الحقيقة حين تغيرت ظروفك. كنت فقيرًا إلى الله وأنت لا تملك، وأنت فقير إليه بعدما ملكت. كنت تحتاج إلى توفيقه لتصل، وتحتاج إلى توفيقه لتحسن حمل ما وصلت إليه.

لكن الافتقار يشعر به الإنسان بسهولة في زمن العجز؛ فالحاجة أمام عينيه. أما حين تتجمع لديه الخبرة والمال والعلاقات والأدوات، فقد تختفي الحاجة من شعوره مع أنها لم تختف من الحقيقة.

وهنا يصبح دوام الافتقار عبادة دقيقة: تستشير مع أنك خبير، وتدعو مع أنك تملك الأسباب، وتقبل التصحيح مع أن نجاحاتك كثيرة، وتسأل الله الثبات مع أن الناس يظنون أنك تجاوزت مرحلة الخوف على نفسك.

من أعظم علامات سلامة التمكين أن تزيدك الأدوات عملًا، ولا تنقص من افتقارك شيئًا.

ميزان المرحلة الجديدة

حين يتسع لك باب كنت تنتظره، لا تجعل أول مراجعتك لحجم ما كسبت، بل لحجم ما تغير من تكليفك. انظر إلى الشيء الذي صار في يدك واسأل: ما حق الله فيه؟ وما الحق الذي صار للناس متعلقًا بي بسببه؟ وما الخير الذي لم أكن أستطيعه بالأمس وأصبحت أقدر عليه اليوم؟

ثم راقب الغاية التي بدأت من أجلها. هل ما زالت هي التي تقود القرار، أم أصبحت المحافظة على المكانة والمؤسسة والصورة هي الغاية الجديدة؟

وراجع علاقتك بالنجاح. افرح به واشكر الله عليه، لكن لا تسمح له أن يغلق باب الاعتراف بالخطأ. سورة النصر لم تجعل الفتح نهاية الاستغفار، وإنما جعلت الاستغفار من عبودية لحظته.

ثم عد إلى قلبك واسأله عن افتقاره. هل ما زلت تدعو كما كنت حين كانت الأبواب مغلقة، أم أصبحت الأسباب الكثيرة تحجبك عن مسببها؟

هذه الأسئلة لا تحول النجاح إلى خوف دائم، ولا تمنع المؤمن من الفرح بالنعمة. إنها تحفظ الفرح داخل العبودية، حتى لا يصبح الوصول هو اللحظة التي يضيع فيها ما تعلمه الإنسان في الطريق.

فالتمكين نعمة تسأل عنها، وفرج يفتح باب تكليف، وثمرة عمل سابق تبدأ معها أعمال لم تكن ممكنة قبلها. والسؤال الذي يبقى بعد كل وصول ليس فقط: هل حصلت على ما أردت؟

بل: ماذا فعلت لله بما أعطاك؟

خاتمة المحور السادس: من الرجاء إلى الأمانة

بدأ هذا المحور عند موضع شديد الحساسية في قلب المبتلى: اللحظة التي يطول فيها الطريق حتى يبدأ يسأل عن وعد الله. فأعاده القرآن إلى الأصل: الوعد حق لأن الذي وعد هو الله، والخلل قد يقع حين تختلط كلمات الوحي بالصورة والموعد اللذين أضافهما الإنسان من عند نفسه.

ومن هنا صار الرجاء أكثر صدقًا وأقل ادعاء. يستطيع المؤمن أن يوقن بما قال الله، وأن يعترف في الوقت نفسه بأنه لا يعرف متى تأتي الثمرة ولا كل الطرق التي ستأتي منها. فلا يحتاج إلى اختراع الغيب حتى يثبت قلبه، ولا إلى إنكار الواقع حتى يحمي يقينه.

ثم انتقل الطريق إلى سنن الفرج، فرأينا أن انتظار المخرج عبودية عاملة. يحفظ المؤمن التقوى فلا يطلب النجاة بمعصية، ويأخذ بالأسباب من غير أن يجعل رجاءه معلقًا بها، ويراجع ما يستطيع إصلاحه، ويدعو ربه في أول الطريق وآخره. ويبقى يعلم أن هذه العبوديات لا تتحول إلى معادلة يفرض بها على الله موعدًا وصورة للمقدور.

وبعد ذلك ظهر معنى أدق: قد يبقى الضر ضرًا، ثم يخرج المؤمن منه بخير لم يكن عنده قبله. يصبر فيكتب له الأجر، أو يفتح الله له توبة، أو يحفظ عليه دينه، أو يرى من لطفه بعد زمن ما لم يكن يراه داخل المحنة. وحينئذ يحمد الله على الخير من غير أن يكذب على ألمه، ويترك ما خفي من الحكمة في علم العليم الحكيم.

ثم وصل الطريق إلى التمكين، فإذا باللحظة التي ظنها الإنسان نهاية الامتحان بداية لسؤال جديد. قال الله تعالى:

> ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 14].

فبعد أن كان الإنسان يسأل الله أن يفتح له، صار مسؤولًا عما سيفعل بما فتح. وبعد أن كان يحتاج إلى الصبر حتى يصل، احتاج إلى الشكر والعمل والافتقار حتى لا يفسده الوصول.

وهكذا لا يسير المؤمن من الابتلاء إلى منطقة تنتهي فيها العبودية. تتغير صور الامتحان، ويبقى القلب في مقامه أمام ربه. في المنع يحتاج إلى الصبر، وفي انتظار الفرج إلى التقوى والعمل، وفي انكشاف الخير إلى الشكر، وفي اتساع القدرة إلى أداء الأمانة.

وهذا هو الرجاء الذي أراد هذا المحور بناءه: رجاء لا يعد الإنسان بما لم يعده الله، ولا يجعله ساكنًا، ولا يخدره عن ظلم يجب دفعه أو خطأ يجب إصلاحه. رجاء يعرف أن الله لا يخلف وعده، ثم يرد العبد إلى تكليفه في اللحظة التي يعيشها.

ولعل من أعظم ما يتغير في قلب من فهم هذه السنن أن سؤاله نفسه يتغير. كان يسأل: متى تنتهي الشدة؟ فيضيف: ما حق الله علي وأنا فيها؟ وكان يسأل: متى يأتي الفرج؟ فيضيف: كيف يجدني إذا جاء؟ وكان يطلب التمكين، ثم يتعلم أن يسأل قبل وصوله: هل أستطيع أن أبقى عبدًا إذا وصلت؟

بهذا يصبح البلاء جزءًا من رحلة العبودية، لا حادثة منفصلة عنها. وقد لا يعرف الإنسان الحكمة الخاصة في كل ما مر به، ولا يحتاج إلى أن يخترعها. يكفيه أن يعرف ربه، وأن يتعلم من الوحي ما يلزمه في الحال التي هو فيها، وأن يرى ما كشفه الموقف من قلبه، ثم يؤدي ما كلفه الله به.

فإذا جاء المنع لم يظن أن الله تركه، وإذا جاء العطاء لم يظن أن الله زكاه، وإذا طال الطريق لم يجعل الزمن قاضيًا على الوعد، وإذا فتح له لم يجعل النجاح نهاية المحاسبة.

فالابتلاء لم يكن سؤالًا عن مقدار ما تستطيع احتماله فحسب، والتمكين لم يكن جائزة تنتهي بها الرحلة؛ كلاهما ميدان تظهر فيه العبودية. والذي كان ربك حين أغلقت الأبواب هو ربك حين فتحت، والذي افتقرت إليه في الضعف لا تستغني عنه في القوة؛ فما دام العبد بين منع وعطاء، وضعف وقدرة، وخوف وأمن، فإن حاجته إلى ربه لا تنتهي حتى تنتهي رحلته في الدنيا.

وهنا يكتمل معنى هذا المحور: من وعد الله الذي يثبت القلب، إلى فرجه الذي يرجى، إلى الخير الذي قد يفتح داخل البلاء، ثم إلى الأمانة التي تبدأ حين يأتي التمكين.

ليس المقصود أن تصل إلى مرحلة لا تُمتحن فيها، وإنما أن تعرف كيف تبقى لله في كل مرحلة.

المحور السابع: كيف تعيش هذه السنن؟

مقدمة المحور

حين تصبح السنن طريقة حياة

وصلت رحلة هذا الكتاب إلى موضع تتغير فيه طبيعة السؤال. فقد عرف القارئ أن الحياة ميدان ابتلاء، ورأى كيف تكشف المحن ما في القلوب، وكيف يربي الله عباده، ولماذا يثبت أناس ويتعثر آخرون، وكيف يفتح الرجاء أبوابه من غير أن يتحول إلى أوهام، وكيف يكون الفرج نعمة، ثم يصبح ما يأتي بعده من قدرة وتمكين امتحانًا جديدًا.

لكن معرفة السنن لا تبلغ غايتها ما دامت معرفة تستحضر عند قراءة الكتاب ثم تغيب عند اصطدام الإنسان بحياته. فالحياة لا تأتي مرتبة تحت عناوين؛ قد ينجح لك أمر في الوقت الذي يتعثر فيه آخر، وتدخل نعمة إلى بيتك ومعها مسؤولية لم تكن تحملها، ويمرض جسدك بينما تنفتح لك أبواب من الخير، ويتأخر عنك شيء تحبه وأنت ترى غيرك يناله. وفي كل ذلك يحتاج القلب إلى ميزان يقرأ به ما يحدث، قبل أن تفسره له مشاعره أو خوفه أو فرحه.

قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35].

فالامتحان لا يأتي في صورة الألم وحده؛ قد يأتي فيما تحب كما يأتي فيما تكره. والعطاء كما يحتاج إلى شكر قد يكشف كبرًا أو غفلة، والمنع كما يؤلم قد يكشف تعلقًا أو سوء ظن أو استعجالًا. ومن هنا لا يكون السؤال فقط: ماذا حدث لي؟ بل: كيف أقرأ ما حدث في ضوء الوحي؟ وما حق الله عليّ في هذه الحال؟

وجمع النبي صلى الله عليه وسلم هذا الميزان في قوله: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له» رواه مسلم (2999). فالخير لا يستفاد من مجرد صورة الحدث؛ السراء تفتح باب الشكر، والضراء تفتح باب الصبر، والعبد ممتحن في استجابته في الحالين.

وهذا لا يعني أن المؤمن يمتلك تفسيرًا خفيًا لكل قدر. فالكتاب والسنة لا يعلمان الإنسان أن ينسب إلى الله حكمة خاصة في كل حادثة بلا دليل، ولا أن يجعل النجاح شهادة رضا، أو الفشل علامة هوان، أو المرض عقوبة مخصوصة، أو الرخاء برهان أمان. إنما يعلمان العبد أن يعرف قدر ما علمه الله، وأن يقف بأدب عند ما لم يعلمه، ثم ينظر فيما كلفه الله به فيما بين يديه.

ولهذا ينتقل هذا المحور من معرفة السنن إلى العيش بها. ستتعلم كيف تقرأ أحداث حياتك من غير أن تدعي علم الغيب، وكيف تبني في أيام العافية ما تحتاج إليه في أيام الشدة، وكيف تحفظ بعد انكشاف البلاء ما فتحه الله لك فيه من خير، ثم كيف تظل عبدًا لله وأنت تنتقل بين هذه الأحوال كلها حتى تلقاه.

فالغاية ليست أن تخرج من هذا الكتاب قادرًا على تفسير كل ما يقع لك، وإنما أن تصبح أقدر على الوقوف الصحيح أمام ما يقع: تعرف متى تراجع السبب، ومتى تراجع قلبك، ومتى تتوب، ومتى تشكر، ومتى تصبر، ومتى تقف عند حدود علمك، ويبقى الوحي هو الذي يصحح قراءتك حين تحاول المشاعر أو النتائج أو الناس أن يفسروا لك حياتك بعيدًا عنه.

ومن هنا يبدأ المحور الأخير بسؤال يمس كل يوم من أيام الإنسان:

كيف تقرأ أحداث حياتك بعين الوحي؟

الوحدة الثامنة والعشرون: كيف تقرأ أحداث حياتك؟

حين تنجح أو تفشل، ويتقدم إليك ما تحب أو يتأخر، وتمرض أو تعافى، وتربح أو تخسر؛ كيف تقرأ ما يحدث من غير أن تجعل ظنك خبرًا عن الله؟

يمر الحدث بالإنسان مرة واحدة، لكنه قد يصنع في داخله قصصًا كثيرة. ينجح مشروعه، فلا يكتفي بالفرح، بل يضيف إلى النجاح حكمًا بأن طريقه كله صحيح. ويتأخر عنه أمر يرجوه، فلا يقف عند ألم الانتظار، بل ينتقل إلى سؤال عن منزلته عند الله. ويمرض، فيبدأ يفتش عن ذنب بعينه يفسر به مرضه، أو يصلح ولده فيرى في صلاحه شهادة بكمال تربيته.

في كل هذه الصور وقع شيء في الخارج، ثم أضاف القلب إليه تفسيرًا من عنده. ولهذا يضع القرآن في أول طريق القراءة كلمة فاصلة:

> ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا﴾ [الفجر: 15-17].

بدأت الحالتان بالكلمة نفسها: ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ﴾. ثم قرأ الإنسان النعمة كرامة مطلقة، وقرأ التضييق إهانة مطلقة، فجاء الرد: ﴿كَلَّا﴾. ليست الحياة بهذه المعادلة السريعة؛ فما تحبه لا يصبح وحده دليل قرب،

وما تكرهه لا يصبح وحده دليل هوان. السعة قد تكون ميدان شكر أو باب طغيان، والتضييق قد يكون موضع صبر أو موضع سخط.

فالآيات لا تمنعك من الفرح بالعطاء ولا من الحزن عند المنع، وإنما تمنعك من أن تجعل شعورك تفسيرًا لربك.

بين ما تعلمه وما لا تعلمه

حين يقع لك حدث، فهناك دائرة علم فتحها الله لك، ودائرة أسباب تستطيع فحصها، ودائرة غيب لم يجعل لك إليها سبيلًا. والخلط بين هذه الدوائر هو الذي يجعل الإنسان ينتقل من المراجعة المشروعة إلى القول على الله بلا علم.

تعرف من الوحي ما شرعه الله في الحال؛ فإن كانت نعمة فباب الشكر مفتوح، وإن كان ذنبًا تعرفه فباب التوبة، وإن كان حقًا للخلق فأداؤه، وإن كان مرضًا فالصبر والتداوي والدعاء، وإن كانت تجارة فالصدق والحلال والبيان. هذه أحكام لا تحتاج إلى اختراع حكمة خفية حتى تعمل بها.

وتستطيع كذلك أن تبحث في الأسباب الظاهرة. خسرت تجارتك؟ راجع السوق والإدارة والقرار. تعثرت علاقة؟ راجع أسلوبك وما وقع منك. مرضت؟ اطلب التشخيص والعلاج. أخفق مشروع؟ افحص الخطة والتنفيذ. هذه أسباب جعلها الله في عالم الشهادة، والنظر فيها جزء من المسؤولية لا اعتراض على القدر.

أما لماذا وقعت هذه الواقعة لك أنت، في هذا الوقت، وبهذه الصورة، وما الحكمة الخاصة الكاملة وراءها، فلا تنسب فيها إلى الله شيئًا لم يخبرك به. قد تعرف أنك أهملت علاجًا، لكنك لا تملك أن تقول: أعلم أن الله أمرضني عقوبة على الذنب الفلاني. وقد تعرف أنك اتخذت قرارًا تجاريًا ضعيفًا، لكنك لا تملك أن تجعل فشل التجارة خبرًا يقينيًا بأن الله لا يريد لك هذا المجال. وقد ترى خيرًا خرج من محنتك فتحمد الله عليه، لكن رؤيتك لبعض الثمرة لا تجعلك محيطًا بكل الحكمة.

وهذا من أدب الإيمان، لا من نقصه. المؤمن لا يحتاج إلى أن يفهم سر كل قدر حتى يعرف كيف يعبد الله فيه.

وفي هذا المعنى يرسم النبي صلى الله عليه وسلم طريقًا عمليًا شديد الدقة، فيقول: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل» رواه مسلم (2664).

فالحديث يجمع ما قد يفرقه الناس: قبل الحدث حرص على النافع، واستعانة بالله، ونهي عن العجز؛ وبعد وقوع ما لا يمكن رده تسليم للقدر من غير اجترار يفتح عمل الشيطان. فلا القدر حجة على ترك الأسباب، ولا الأسباب تبيح للإنسان أن يتوهم أنه يملك النتائج.

النتيجة لا تقرأ نفسها

سبق في هذا الكتاب بيان فتنة النعمة وخطر تحويل النتائج إلى شهادة على صحة الإنسان وطريقه، وموضع النظر هنا أخص: كيف تقرأ النتيجة حين تقع؟

ينجح مشروع عملت له سنوات، فتفرح وتحمد الله وتشكر من أعانك، وتدرس الأسباب التي نفعتك. كل ذلك قراءة صحيحة. لكن النجاح لا يخبرك وحده أن كل وسيلة استعملتها كانت مشروعة، ولا أن كل قرار كان صائبًا، ولا أن النجاح القادم مضمون. النتيجة تخبرك أن شيئًا نجح؛ أما الحكم على الطريق فيحتاج إلى ميزان الشرع والعدل والصدق.

وكذلك الفشل؛ قد يكشف خللًا في التخطيط أو ضعفًا في التنفيذ، وقد يدعوك إلى تغيير وسيلة، لكنه لا يملك وحده أن يحكم بأن المقصد الصحيح صار باطلًا. وقد وقع للمؤمنين يوم أُحد ما وقع، وكشف الله في تلك الواقعة سببًا من أسباب المصيبة فقال:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 165].

نحن نعلم هذا السبب لأن الوحي أخبرنا به. أما في وقائعنا فلا نملك وحيًا خاصًا، لكننا نتعلم أن نسأل عما في أيدينا من أسباب قبل أن نخترع تفسيرًا لما غاب عنا. فالنجاح لا يعفي من المراجعة، والفشل لا يعفي منها، وفي الحالين يبقى الحدث معلومة تحتاج إلى ميزان، لا ميزانًا نهائيًا في نفسه.

حين يتأخر عنك ما تحب

من أكثر الأحداث التصاقًا بقلب الإنسان ما يتعلق بالزواج والأسرة؛ لأنها تمس حاجات عميقة إلى السكن والمحبة والانتماء. قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21].

فالزواج نعمة وآية، لكنه حين يأتي لا يلغي التكليف؛ تبدأ معه حقوق وأمانات تحتاج إلى عمل. ومن تأخر عنه الزواج فله أن يتألم ويدعو ويسعى بالأسباب المشروعة، لكن التأخر لا يعطيه حق الحكم على قيمته أو منزلته عند الله.

قد ترى امرأة صديقاتها يتزوجن واحدة بعد أخرى، فيصبح كل خبر جديد سؤالًا موجعًا عن نفسها: ماذا ينقصني؟ ثم ينتقل السؤال من النفس إلى علاقتها بربها: لماذا لا يكرمني الله كما أكرمهن؟ هنا ينبغي أن تفرق بين رغبتك المشروعة في النعمة، وبين تحويل توقيت حصولك عليها إلى مقياس لكرامتك عند الله.

ما أُعطي غيرك ليس شهادة نهائية بقيمته، وما تأخر عنك ليس حكمًا نهائيًا بقيمتك. تعرف ما عليك من دعاء وسعي وعفة ورضا بما قدر الله بعد الأخذ بالأسباب، ولا تدعي تفسير الغيب.

حين يمرض الجسد

المرض يضغط على الإنسان من جهتين: ألم الجسد، والسؤال الذي يحاول القلب أن يجيب عنه: لماذا أنا؟ وقد يكون في الإنسان ذنب يعرفه، فباب التوبة مفتوح في المرض والعافية، لكن التوبة العامة شيء، والجزم بأن مرضًا معينًا نزل عقوبة على ذنب معين شيء آخر.

الذي نملكه هو ما أخبرنا به النبي صلى الله عليه وسلم: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه» رواه البخاري (5641)، ومسلم (2573).

هذا خبر نستطيع أن نبني عليه رجاءنا. نعرف أن ما يصيب المسلم من الألم قد يكون سببًا لتكفير خطاياه، وأن للمريض أن يتداوى ويسأل الله العافية، وأن الصبر عبادة. أما لماذا جاء هذا المرض بعينه في هذا اليوم بعينه، فلا تحتاج إلى أن تخترع له جوابًا.

يمكن للمريض أن يراجع عاداته، ويصلح ما ثبت ضرره، ويأخذ بالعلاج، ويتوب من ذنوبه، ويرجو الأجر. هذه كلها أبواب معلومة. وما وراء ذلك يرده إلى علم الله. وهذه القراءة أرحم من أن يعيش المريض تحت اتهام دائم لذنب مجهول، وأصدق من أن يخترع لنفسه حكمة جميلة لا يعلم أن الله أرادها.

حين يدخل المال ويخرج

يملك المال قدرة خاصة على إقناع الإنسان بأن الأرقام تفسر كل شيء. يربح التاجر فيسمي الربح وحده بركة، ويخسر آخر فيظن أن الخسارة وحدها دليل حرمان. لكن السنة تنقل النظر من مقدار المال إلى الطريق الذي جاء منه.

قال النبي صلى الله عليه وسلم في المتبايعين: «فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما» رواه البخاري (2079)، ومسلم (1532).

قد تتم الصفقة ويدخل المال ثم تمحق البركة بسبب الكذب والكتمان، فالرقم الذي دخل الحساب لا يستطيع وحده أن يخبرك عن البركة. إذا ربحت فاحمد الله، ثم انظر في الحلال والصدق والحقوق والوسائل. وإذا خسرت فاصبر وراجع الأسباب، لكن لا تجعل الخسارة وحدها حكمًا على علاقتك بربك.

وقد تكون سنوات الربح أخطر على التاجر من سنة الخسارة؛ لأن الخسارة تجبره على مراجعة أرقامه، أما الربح فقد يسمح لبعض الأخطاء أن تكبر وهو يظن أن النتيجة تزكي الطريق. عين الوحي لا تحتقر الأرقام، لكنها لا تجعلها حكمًا مستقلًا على الحق والباطل.

حين تنظر إلى أولادك

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [التغابن: 15].

وقد سبق بيان أن الأولاد من مواضع امتحان النعمة، وموضع النظر هنا مختلف: كيف تقرأ ما تراه في ولدك من صلاح أو تعثر؟

قد يرى الأب ولده مستقيمًا ناجحًا، فيحمد الله أول الأمر، ثم يبدأ مع الزمن ينسب النتيجة إلى نفسه كأن صلاح الولد شهادة بكمال تربيته. وربما نظر إلى والد ابتلي بتعثر ولده كأن الفرق كله بينهما كان في جودة الأبوة. وقد يقع العكس، فيتعثر الولد، فيحمل الوالدان أنفسهما مسؤولية كل اختيار صدر منه حتى يظنا أنهما يملكان من قلبه ما لا يملكان.

الوالد مأمور بالتربية والقدوة والدعاء والمتابعة والإصلاح، ومسؤول عن تقصيره فيما كلفه الله به، لكنه لا يخلق الهداية في قلب أحد. قال الله تعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: 56].

فإذا رأيت صلاحًا فاحمد الله واستمر في الرعاية، ولا تجعل صلاح ولدك شهادة بكمالك. وإذا رأيت تعثرًا فراجع ما تستطيع إصلاحه، واعتذر عن خطأ ثبت لك، وغيّر وسيلة ظهر ضعفها، وابق على الدعاء والحكمة، لكن لا تجعل نفسك مالكًا لهداية قلب لم يجعلها الله في يدك.

بهذا تحمل مسؤوليتك كاملة، من غير أن تدعي لنفسك سلطانًا على النتيجة.

ميزان قراءة الحدث

حين يقع في حياتك أمر يهزك، لا تتعجل تحويله إلى قصة كاملة عن الله وعن نفسك ومستقبلك. ابدأ بما ثبت لك من الوحي: ما الحكم الشرعي في هذه الحال؟ وما العبودية التي أمرك الله بها؟ ثم افصل عما لا تعلمه، فلا تنسب إلى الله حكمة خاصة بلا دليل، ولا تحول ظنك إلى خبر عن الغيب.

بعد ذلك انظر إلى الأسباب التي وضعها الله في دائرة قدرتك؛ ما الذي يمكن فحصه وتصحيحه؟ هل تحتاج إلى علاج، أو مشورة، أو تعلم، أو مراجعة قرار، أو رد حق، أو إصلاح علاقة؟ ثم انظر إلى قلبك: ماذا كشف الحدث من تعلق أو خوف أو كبر أو استعجال؟ لا لتصدر حكمًا نهائيًا على نفسك، بل لتعرف موضع العمل.

وعندها يبقى السؤال الذي يصلح مهما غابت عنك أسرار القدر:

ما حق الله عليّ في هذا الحال؟

هذه القراءة لا تكشف لك كل ما خفي، لكنها تمنعك من أن تعيش أسير تفسير صنعته بنفسك. بها تفرح من غير غرور، وتحزن من غير سوء ظن، وتراجع نفسك من غير جلد، وتأخذ بالأسباب من غير أن تجعلها أربابًا للنتائج، وتعيش النعمة من غير أن تأمن فتنتها، وتعيش الشدة من غير أن تجعلها تفسيرًا نهائيًا لعلاقتك بربك.

وحين تتعلم أن ترى حياتك بهذه العين، يتغير سؤال الصباح. لا يعود همك الأول: ماذا ستفعل الحياة بي اليوم؟ وإنما: كيف أعبد الله فيما يأتي به هذا اليوم؟

لكن القلب الذي سيقرأ الأحداث بهذه البصيرة وقت الشدة لا يبنى كله في لحظة نزولها. كثير مما تحتاج إليه غدًا ينبغي أن تبنيه اليوم.

فكيف تستعد لما لم يأت بعد؟

الوحدة التاسعة والعشرون: كيف تستعد لما لم يأت بعد؟

أنت لا تعرف ما الابتلاء الذي سيأتيك غدًا، لكنك تستطيع أن تبني اليوم القلب الذي سيستقبله.

لا يعرف الإنسان ما الذي ينتظره في الطريق. قد يبدأ صباحه في عافية ثم يسمع مساء خبرًا يعيد ترتيب أشياء كثيرة في حياته، وقد يدخل عامًا وهو يظن أن أعظم همومه أمر معين، ثم تأتيه من جهة لم يحسب لها حسابًا محنة تجعل ذلك الهم القديم صغيرًا. هذه من طبيعة الابتلاء: أنك لا تملك معرفة صورته وموعده قبل أن يأتي.

ولهذا لا تستطيع أن تعد لكل ابتلاء خطة خاصة قبل أن تعرفه، لكن السنة تعلمك أن هناك عملًا يمكن أن يسبق الفتنة، وزادًا يمكن أن يبنى قبل الحاجة إليه. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم» رواه مسلم (118).

في كلمة «بادروا» معنى حاكم لهذه الوحدة: لا تنتظر حتى تحيط بك الفتنة لتبدأ بناء كل ما ستحتاج إليه داخلها. هناك علاقة بالله ينبغي أن يكون لها أصل، وعبادات ينبغي أن تصبح مألوفة، وعلم ينبغي أن يضيء شيئًا من الطريق، وطاعة ينبغي أن يتدرب عليها القلب قبل أن ترتفع كلفتها. فالابتلاء قد يأتي فجأة، أما بناء القلب فلا يلزم أن يبدأ فجأة.

وهنا تختلف هذه الوحدة عما سبق من الحديث عن الثبات؛ لم يعد السؤال ماذا تفعل حين تنزل بك الشدة، وإنما:

ماذا ينبغي أن يكون موجودًا فيك قبل أن تنزل؟

احفظ الله قبل أن تحتاج إلى الثبات

كان ابن عباس رضي الله عنهما غلامًا حين أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم وصية لا ترتبط بنوع واحد من البلاء، بل تبني أصلًا يحمله الإنسان إلى ما لا يعرفه من مستقبل أيامه:

«يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه الترمذي (2516)، وقال: حديث حسن صحيح.

لم يبدأ النبي صلى الله عليه وسلم بتفصيل الأخطار التي ستواجه ابن عباس في حياته؛ بدأ بما يحتاجه في أخطار كثيرة: أن يحفظ أمر الله ونهيه، ويقيم فرائضه، ويعرف باب السؤال والاستعانة به. فإذا تغيرت الأيام لم يكن يبدأ علاقته بالله من الصفر، بل وجد أصلًا سابقًا يرجع إليه حين تهتز أشياء كان يظنها ثابتة.

فالذي يأتيه الخوف وله طريق يعرفه إلى الصلاة والدعاء ليس كمن يبدأ البحث عن هذا الطريق في أشد لحظات اضطرابه. ولا يعني هذا أن من حفظ الله في الرخاء لن يخاف أو يحزن أو يبكي؛ فقد عرف الأنبياء ذلك كله. الفرق أن القلب حين يضطرب يجد جهة يعرفها، ولا يحتاج إلى أن يؤسس صلته بربه كلها في اللحظة التي تهتز فيها حياته.

ومن أعظم الاستعداد للبلاء أن يكون بينك وبين الله قبل البلاء ما تجد أثره حين يأتي.

ما تكرره اليوم سيظهر معك غدًا

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: 19-23].

تصف الآيات الإنسان حين يمسه الحدث: الشر يكشف الجزع، والخير يكشف المنع. ثم يستثني القرآن صنفًا له بناء مختلف: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾، ولم يصفهم بأنهم الذين يصلون إذا مسهم الشر، وإنما قال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾. كان هناك دوام سبق المساس، وعبادة مستقرة قبل أن يأتي الموقف.

فالصلاة التي تحافظ عليها في يوم عادي، حين لا يوجد خبر مخيف ولا أزمة طارئة، ليست منفصلة عن ابتلاءاتك القادمة. إنها تبني فيك طريقًا للعودة إلى الله ستحتاج إليه حين تضيق الطرق الأخرى. وهذا المعنى لا يقتصر على الصلاة؛ فالصدق الذي تحفظه حين لا تكلفك الحقيقة كثيرًا، والأمانة التي تؤديها مع قدرتك على الخيانة، والحرام الذي تتركه مع سهولة الوصول إليه، كلها تبني شيئًا من استجابتك للغد.

هذه الأعمال لا تجعل ثباتك مضمونًا؛ فالعبد لا يملك قلبه ولا يستغني عن توفيق ربه. لكنها تجعل للطاعة في حياته أصلًا سابقًا، بدل أن يطلب من نفسه تحت أشد الضغط شيئًا لم تتعلمه في أيام السعة.

ولذلك ليست الأيام العادية فراغًا بين الابتلاءات؛ ففيها يتكون كثير من الإنسان الذي سيظهر حين يأتي الابتلاء.

اعرف ربك قبل أن ترتجف الأشياء حولك

قد تأتي لحظة لا تمنحك وقتًا طويلًا لإعادة بناء تصوراتك: تقرير طبي لم تكن تنتظره، أو خسارة مفاجئة، أو خبر يتعلق بولدك، أو قرار يضعك بين مصلحتك وما تعتقد أنه الحق. في هذه المواطن تضيق النفس، وقد يصعب عليها استحضار أشياء كانت تبدو واضحة في أوقات الهدوء.

ولهذا كان من أعظم زاد ما قبل الابتلاء أن تعرف ربك قبل أن تضطرب مشاعرك؛ أن تعلم أنه يعلم ما لا تعلم، وأنه قادر حين تعجز، وأن حكمته لا تتوقف على أن تدركها، وأن رحمته لا تقاس بمجرد حصولك على الصورة التي تحبها، وأن الخلق مهما عظمت قوتهم لا يخرجون عن ملكه.

وهذا ما تبنيه وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس حين رد قلبه إلى السؤال والاستعانة بالله ثم إلى حقيقة القدر. وليس معنى ذلك ترك الطبيب أو المستشار أو التخطيط؛ فقد سبق أن الأخذ بالأسباب من هدي الشرع، وإنما المقصود أن يعرف القلب قبل الأزمة أين مقام الخالق وأين مقام السبب.

فالطبيب سبب للعلاج لكنه لا يخلق الشفاء، والمال يدفع بعض الضر لكنه لا يشتري الأمان من كل قدر، والناس قد يقفون إلى جوارك لكن قدرتهم وبقاءهم ليسا بأيديهم. فإذا استقر هذا الميزان قبل الشدة، أمكنك أن تستخدم الأسباب من غير أن تعطيها في قلبك مقامًا لا يكون إلا لله.

لا تنتظر الكلفة الكبيرة حتى تتعلم الطاعة

يتخيل الإنسان أحيانًا نفسه في امتحان كبير، فيرسم لنفسه صورة جميلة: لو خيرت بين المال والحق لاخترت الحق، ولو هددت في ديني لثبت، ولو عرض علي حرام عظيم لرفضته. ثم تمر به كل يوم اختبارات أصغر؛ مجاملة بكلمة غير صادقة تحفظ صورته، أو سكوت عن حق خوفًا من خسارة يسيرة، أو خيانة يظن أن أحدًا لن يكتشفها.

وهنا يجري جزء من الاستعداد الذي لا يراه. فالطاعة حين تكون كلفتها صغيرة تربي القلب على تقديم أمر الله حين ترتفع الكلفة، والمعصية التي يعتادها الإنسان في المساحات الصغيرة قد تجعل التراجع عنها أصعب حين تجتمع عليها المصلحة والخوف والضغط.

وقد مرت من قبل قصة أصحاب الغار من جهة انقطاع الأسباب ولجوئهم إلى الله، وموضعها هنا أخص. أولئك الرجال لم يبدأوا بناء زادهم بعدما أغلقت الصخرة باب الغار؛ دخلوا ومع أحدهم بر سابق بوالديه، ومع الثاني عفة عن الحرام مع القدرة عليه، ومع الثالث أمانة حفظ بها مال الأجير حتى أداه إليه. لقد دخلوا الأزمة ومعهم تاريخ سابق من العبودية.

ولا يعني هذا أن الأعمال الصالحة تشتري للإنسان ضمانًا دنيويًا بكشف كل شدة؛ فهذا معنى سبق ضبطه. وإنما تكشف القصة أن لحظة الأزمة ليست كل القصة. فمن أراد صدقًا عند ارتفاع الثمن فليحفظ الصدق حين يكون الثمن قليلًا، ومن أراد عفة عند اشتداد الفتنة فلا يرب قلبه على مقدماتها في أيام الأمن، ومن أراد الأمانة حين تكبر الأموال فليحفظ ما في يده اليوم.

أنت لا تعرف في أي موضع سيطلب منك غدًا أن تقدم أمر الله على شيء تحبه، لكنك تستطيع أن تدرب قلبك اليوم على ألا تكون طاعة الله غريبة عليه.

لا تجعل كل أمانك معلقًا بما يمكن أن يزول

قال الله تعالى:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: 22-23].

لا تلغي هذه الآيات الحزن؛ فقد حزن الأنبياء والصالحون. وإنما تضع الفقد والعطاء داخل علم الله وقدره، حتى لا يصبح ما يفوت الإنسان نهاية علاقته بالحياة، ولا يصبح ما يؤتاه سببًا للاختيال. ومن الاستعداد للابتلاء أن تراجع من الآن مواضع الأمان في قلبك قبل أن يأتي يوم تختبر فيه قوة تعلقك بها.

أحب أهلك وأكرم صحبتهم، ولا تعش متخيلًا فقدهم، لكن اعلم أن بقاء كل نعمة ليس في يدك. واجتهد في عملك وابن خبرتك، لكن لا تجعل منصبًا واحدًا تعريفًا كاملًا لنفسك. واجمع المال من حله وانتفع به، لكن لا تجعل طمأنينتك كلها متوقفة على رقم لا ينقص.

حين تعرف أن النعمة فضل من الله تشكره ما دامت، وأن رب النعمة باق وإن تغيرت النعمة، فإنك لا تصبح أقل حبًا لها، بل أقل عبودية لها. وسيؤلمك الفقد إذا وقع، لكن الألم لا يجد قلبًا يظن أن كل ما يملكه في الوجود قد انتهى.

اعرف قبل الشدة إلى من ترجع

بعض الابتلاءات لا تأتي في صورة مرض أو خسارة مال؛ قد تأتي في صورة شبهة لا تعرف جوابها، أو قرار شرعي تتعارض فيه المصالح، أو فتنة يختلط فيها الحق بالباطل. وفي هذه المواطن لا يكون الاستعداد بأن تعرف جواب كل مسألة قبل وقوعها؛ فهذا لا يقدر عليه أكثر الناس.

لكنك تستطيع أن تعرف أصول دينك، وأن تتعلم ما تحتاج إليه في عبادتك وعملك، وأن تعرف إلى من ترجع إذا جهلت. قال الله تعالى:

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43].

وتحتاج كذلك إلى صحبة إذا ضعفت لم تزين لك الضعف، وإذا اشتبه عليك الطريق لم تضاعف عليك الضجيج، وإذا خفت على دنياك لم تدفعك إلى بيع دينك من أجلها. وقد سبق في محور الجماعة بيان أثر الصحبة والبيئة عند الامتحان، وموضع الاستعداد هنا أخص: لا تنتظر أكثر أيامك اضطرابًا حتى تبدأ البحث عن عالم تثق بعلمه أو صاحب تستطيع أن تقول له الحقيقة.

فالعاقل لا يحمل معه في الطريق جواب كل سؤال، لكنه يعرف إلى من يرجع إذا التبس عليه الجواب.

لا تدخل الشدة محملًا بما كان يمكنك إصلاحه

من الناس من يعيش سنوات وفي حياته أبواب مؤجلة يعلم أنها تحتاج إلى معالجة: حق لم يرده، أو مظلمة يستطيع رفعها، أو خصومة يمكن أن يبدأ إصلاحها، أو ذنب يعرفه ويؤجل التوبة منه، أو علاقة في بيته تتآكل بينما ينتظر أن يصلحها الزمن. ثم تأتي شدة جديدة، فيحتاج قلبه إلى قوته كلها، فإذا به يحمل مع البلاء الجديد أثقالًا قديمة كان يستطيع تخفيفها.

لا يعني هذا أن التوبة ورد الحقوق يمنعان نزول البلاء، ولا أن من أصلح حياته اشترى لنفسه حصانة من المصائب. المعنى أن ما أمرك الله أن تصلحه اليوم لا ينبغي أن تؤجله انتظارًا لظروف مثالية قد لا تأتي؛ فقد تحتاج غدًا إلى صفاء قلبك وأنت ما زلت مشغولًا بذنب تصر عليه أو بحق تعرف أنك حبسته.

ومن الاستعداد لما لا تعرفه أن تصلح ما تعرفه.

الاستعداد لا يعني أن تعيش منتظرًا الكارثة

قد تنحرف فكرة الاستعداد نفسها، فيصبح الإنسان يراقب جسده بحثًا عن المرض، ويخاف على أولاده حتى يضيق عليهم حياتهم، ويجمع المال لأنه يرى الفقر خلف كل باب، ويستعرض عشرات الكوارث الممكنة ثم يسمي ذلك حكمة. وهذا ليس هو الاستعداد الذي يبنيه الوحي.

فالوصية التي بدأت بـ«احفظ الله يحفظك» انتهت بتعليق القلب بقدر الله، لا بتعليقه بالاحتمالات المخيفة. والاستعداد الشرعي يجعلك أحسن عملًا اليوم، لا أشد خوفًا من الغد؛ تصلي لأن الصلاة حق الله وزاد قلبك، وتحسن إلى أهلك لأن لهم عليك حقًا، وتتعلم لأن الجهل يضرك، وتأخذ بالأسباب التي بين يديك، ثم تعيش يومك من غير أن تحمله أوزار أيام لم تأت.

الغد لم يكلفك الله أن تحمله اليوم.

ما الذي ينبغي أن يكون معك قبل أن يأتي؟

لا تستطيع أن تعد حقيبة مستقلة لكل مرض وفقد وفتنة وشبهة، لكنك تستطيع أن تبني أصولًا تصحبك في أكثر من طريق: صلاة مستقرة تعرف بها باب الرجوع إلى الله، ومعرفة بربك تحفظ تصورك عنه حين تتغير الظروف، وعلمًا يردك إلى الوحي حين تختلط الأصوات، وصدقًا تدربت عليه قبل ارتفاع كلفته، وصحبة تعينك إذا ضعفت، وقلبًا يحب النعم من غير أن يجعل وجوده كله معلقًا ببقائها.

وتستطيع أن تنظر في حياتك من الآن: هل هناك حق تعرفه وتستطيع أداءه؟ وهل هناك ذنب تصر عليه وأنت قادر على بدء التوبة؟ وهل تعرف إلى من ترجع إذا التبس عليك أمر دينك؟ وهل تعود قلبك على الطاعة في المساحات الصغيرة، أم أنك تتخيل ثباتًا عظيمًا في المستقبل بينما تترك بناءه اليوم؟

هذه الأسئلة لا تعطيك ضمانًا أنك ستثبت؛ فالقرآن نفسه يعلم المؤمن أن يبقى مفتقرًا إلى تثبيت الله، فقال سبحانه:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

وهنا يكتمل ميزان الاستعداد: تبني ولا تغتر ببنائك، وتتعلم ولا تأمن على نفسك، وتتدرب على الطاعة ولا تزكي قلبك بأنه سيصمد حتمًا. تأخذ من الزاد ما تستطيع، ثم تسأل الله ألا يكلك إلى نفسك؛ لأن سلامة الطريق لا تكون بقوة الزاد وحده، وإنما بتوفيق من هداك إلى حمله.

ولهذا قد لا يكون أهم سؤال عن ابتلائك القادم: ما الذي سيحدث لي؟ ربما يكون السؤال الأعمق:

من أكون أنا حين يحدث؟

وجواب هذا السؤال لا يكتب كله يوم البلاء. جزء كبير منه يكتب الآن، في الأيام التي تبدو عادية، وفي الطاعات التي تثبت عليها، وفي الحقوق التي تؤديها، وفي الأشياء التي تتركها لله قبل أن يصبح تركها مكلفًا.

ومع ذلك، مهما أحسن الإنسان الاستعداد، فإن الابتلاء حين يأتي سيكشف له أشياء لم يكن يعرفها عن نفسه، وقد يخرج منه بتوبة وعبادات وبصيرة لم تكن فيه قبل دخوله. وهنا يأتي امتحان آخر: هل تبقى هذه الثمار بعد أن تهدأ الشدة، أم يعود الإنسان بعد كل ما رأى وتعلم إلى الشخص نفسه الذي كانه قبلها؟

الوحدة الثلاثون: كيف لا تعود كما كنت؟

كيف تخرج من الابتلاء أفضل مما دخلته؟

هناك لحظة ينتظرها المبتلى طويلًا: أن يصل الخبر الذي يطمئنه، أو يزول الألم، أو ينكشف الخوف، أو تنتهي الأزمة التي ملأت أيامه. وحين تأتي هذه اللحظة يتنفس الإنسان كأنه خرج من نفق طويل، ويريد أن يستريح ويعود إلى حياته.

لكن عودة الحياة نفسها قد تكون بداية امتحان جديد.

ففي أيام الشدة كان القلب قريبًا من أشياء لا يريد أن يفقدها: صلاة وجد فيها ملجأه، ودعاء خرج من أعماقه، وشعور صادق بالافتقار، ونظرة مختلفة إلى الدنيا، وقرب من أهل كان يخشى فقدهم. وربما عرف من نفسه ضعفًا لم يكن يراه، أو رأى ذنبًا كان يصغره، أو اتخذ قرارًا بأن شيئًا في حياته يجب أن يتغير.

ثم يكشف الله الضر، وتهدأ الأيام، وتعود المواعيد والأعمال والانشغالات. وهنا لا يزول أثر المحنة عادة دفعة واحدة؛ يبدأ بالتراجع بهدوء، حتى قد يعود الإنسان بعد أشهر إلى حياته القديمة بينما تبقى المحنة في ذاكرته قصة مؤثرة لا أكثر.

وقد كشف القرآن هذا المشهد بدقة شديدة فقال:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: 12].

لم تكن المشكلة أنه دعا عند الضر؛ الدعاء عبادة. المشكلة فيما وقع بعد الكشف: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾. مر كأن ساعات الافتقار لم تكن، وكأن ما عرفه عن ضعفه لم يعرفه، وكأن الباب الذي طرقه طويلًا أغلقه بيده حين استغنى عن الحاجة التي دفعته إليه.

وهنا تظهر خسارة أشد من مجرد الألم الذي مر: أن يمر الإنسان بكل ما كشفه البلاء في قلبه، ثم يخرج منه الشخص نفسه الذي دخله.

من الإنابة العارضة إلى الاستقامة

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزمر: 8].

كان هناك دعاء وإنابة، ثم جاءت النعمة فدخل النسيان. وليس المقصود دائمًا أن ينسى الإنسان الواقعة نفسها؛ قد يحفظ تفاصيلها كلها، ويذكر تاريخها وأسماء من وقفوا معه، وربما تدمع عينه كلما رواها. لكنه قد ينسى ما هو أهم من تفاصيل الحادثة: الحال التي عرف فيها ربه، والضعف الذي عرفه في نفسه، والذنب الذي بدا له قبيحًا، والعبادة التي ذاق فيها حياة قلبه.

ولهذا ليست غاية هذه الوحدة أن تحفظ قصة ابتلائك، وإنما أن تنتقل بما فتحه الله لك فيها من لحظة الإنابة إلى طريق الاستقامة. قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمن سأله قولًا جامعًا في الإسلام: «قل آمنت بالله ثم استقم» رواه مسلم (38).

فالميزان ليس أن تقول في ساعة الخوف كلامًا صادقًا ثم ينتهي أثره بانتهاء الخوف، وإنما أن يبقى لله من تلك اللحظة شيء بعد أن تمضي. وقد سبق بيان أن البلاء قد يفتح للعبد خيرًا من توبة وهداية وقرب؛ أما السؤال هنا فهو: إذا فتح لك باب من الخير، فكيف لا تغلقه بعد زوال السبب الذي دفعك إليه؟

لا تقس التغيير بحرارة اللحظة

في أثناء المحنة تكون المشاعر شديدة، ولذلك يبدو للإنسان أن ما يجده في قلبه سيبقى إلى الأبد. قد يطيل أب السجود كل ليلة لأن ولده في خطر، ويشعر أنه وجد في الدعاء قربًا لم يعرفه من قبل، ثم يعافى الولد، وتعود الحياة إلى إيقاعها المعتاد، فتقل المساحة شيئًا فشيئًا حتى يكاد يعود إلى ما كان عليه.

وقد يسمع إنسان تشخيصًا يخيفه، فتصغر في عينه خصومات ومنافسات كانت تملأ قلبه، ويقترب من أهله ويعيد ترتيب أولوياته. ثم تأتي العافية، ويعود العمل، وتتزاحم الرسائل والمواعيد، فتستعيد الأشياء القديمة مواقعها من غير قرار معلن منه بالعودة إليها.

لم تكن مشاعره في وقت الخوف كاذبة، لكن صدق الشعور لا يضمن دوام أثره. ولهذا لا تقس ما خرجت به من البلاء بمقدار ما بكيت فيه ولا بعدد القرارات التي اتخذتها وأنت خائف؛ انتظر حتى تهدأ الحياة، ثم انظر ماذا بقي.

فالاختبار الحقيقي لثمرة البلاء يبدأ حين يختفي الضغط الذي ولدها.

احفظ الأثر، لا حالة الطوارئ

من الخطأ أن يظن الإنسان أن الوفاء لما تعلمه في المحنة يقتضي أن يعيش بعد انتهائها بالمشاعر نفسها التي عاش بها داخلها. قد يكون قد قرأ من القرآن ساعات حين كان في المستشفى، أو قام ليلًا طويلًا لأن النوم فارقه من الخوف، ولا يستطيع بعد عودة مسؤولياته أن يحافظ على المقدار نفسه.

المطلوب أن يحفظ أثرًا يمكنه أن يعيش.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» رواه البخاري (6464)، ومسلم (783). وكانت عائشة رضي الله عنها تقول في وصف هديه صلى الله عليه وسلم: «كان إذا عمل عملًا أثبته» رواه مسلم (746).

فقد ينخفض مقدار العمل بعد انتهاء الأزمة، لكن لا يلزم أن يختفي. يمكن لورد ثابت أن يحفظ بابًا من القرآن فتحته المحنة، ودعاء يسير دائم أن يبقي صلة ولدت في أيام الحاجة، ووقت منتظم لأهلك أن يحفظ قربًا عرفته حين خفت فقدهم.

فالاستقامة لا تعني أن تبقى حياتك في حالة طوارئ، وإنما أن يبقى الاتجاه الذي صححته المحنة حاضرًا بعد زوالها.

ماذا فعلت بما كشفه البلاء؟

مر هذا الكتاب طويلًا على ما تكشفه الابتلاءات من القلوب، ولا حاجة هنا إلى إعادة التشخيص. السؤال الذي يخص هذه المرحلة هو: ماذا فعلت بالمعلومة بعدما عرفتها؟

إذا كشف لك المرض أن قلبك لا يرجع إلى الله إلا حين تضيق الأسباب، فهل بقي بعد العافية باب من الرجوع إليه في أيام الرخاء؟ وإذا كشفت الخسارة أن المال يحتل في قلبك موضعًا أكبر مما ينبغي، فهل

تغير شيء في طريقة جمعك وإنفاقك وتعلقك به؟ وإذا جمعت الأزمة أسرتك بعدما فرقتها سنوات من الانشغال، فهل بنيتم بعد انتهائها شيئًا يحفظ هذا القرب؟

وإذا رأيت من نفسك تحت الخوف ضعفًا دفعك إلى تنازل محرم أو سكوت عن حق، فهل عالجت موضع الضعف، أم اكتفيت بالارتياح لأن الموقف نفسه لن يتكرر؟

المعرفة التي يمنحها الابتلاء عن النفس أمانة. فقد يكشف البلاء جرحًا، لكن الكشف وحده ليس علاجًا. ومن أشد صور خداع النفس أن يخرج الإنسان من المحنة كثير الحديث عما تعلمه، قليل التغيير فيما علم أنه يحتاج إلى تغيير.

أصدق أثر للمعرفة أن تصلح ما عرفت.

لا تطو الصفحة قبل إصلاح ما تستطيع

قد تنتهي المحنة ويكون وراءها شيء لا ينبغي أن ينتهي معها: حق ظهر لك أنك منعته، أو مظلمة وقعت منك تحت ضغط الخوف، أو جرح تركته في قريب، أو ذنب رأيته في أيام الشدة بوضوح لم تكن تراه به قبلها.

لا تجعل هدوء الحياة يغلق هذه الملفات قبل أن تنظر فيما تستطيع إصلاحه. فإن عرفت حقًا للناس فأده، وإن ظهر لك خطأ واضح فاعتذر وأصلح ما تستطيع، وإن عرفت ذنبًا بعينه فتب منه ولا تجعل زوال الخوف يعيد إليه جماله القديم في عينك.

ولا يعني هذا أن تحمل نفسك مسؤولية كل ما وقع أثناء أقصى لحظات ضعفك، أو أن تحول ما بعد البلاء إلى محاكمة لا تنتهي لنفسك. المقصود هو ما صار معلومًا لك بوضوح، وما أصبح إصلاحه في قدرتك.

فالخروج الأفضل من المحنة لا يشترط أن تخرج بلا ندبة ولا خطأ، لكنه يقتضي ألا تترك بإرادتك ما عرفت أنك تستطيع إصلاحه.

لا تجعل ما ثبتك الله فيه قصة عن قوتك

قد يحفظ الله عبدًا في شدة، فيصبر حيث كان يظن أنه لن يصبر، أو يثبت على حق مع ضغط شديد، ثم ينتهي البلاء وتبدأ القصة في داخله تتغير. كان يرى فضل الله عليه، ثم يبدأ بعد زمن يرى امتياز نفسه على غيره، فيتحول البلاء الذي علمه الافتقار إلى مادة جديدة للإعجاب بالنفس.

إذا ثبتك الله فاشكره على التثبيت، وإذا وفقت إلى صبر أو طاعة فاحمد من وفقك إليهما، ولا تجعل موقفًا ثبت فيه قلبك ضمانًا بأنك لن تضعف في موقف آخر. وقد يكون من أجمل ما يخرج به الإنسان من محنته أن يصبح أرحم بالناس وأقل استعجالًا في الحكم عليهم؛ لأنه رأى من نفسه تحت الضغط ما لم يكن يتوقعه.

أما أن يخرج من البلاء أكثر إعجابًا بصلابته وأشد احتقارًا لمن تعثر، فقد حمل معه من التجربة شيئًا لم يكن ينبغي أن يكون ثمرتها.

لا تحتاج إلى بقاء الألم حتى يبقى القرب

وقد يقع القلب في خطأ معاكس؛ يخاف أن يعود إليه الرخاء فيعود معه شيء من غفلته، فيشعر بالذنب حين يفرح بالعافية، أو يظن أن قربه من الله لا يعيش إلا في الحزن. لكن الله لم يأمرك أن تحب الضر حتى تبقى عبدًا.

ما تعلمته في المرض يمكن أن تعيشه في الصحة، والافتقار الذي عرفته عند الخسارة يمكن أن يصحبك في السعة، والدعاء الذي فتح لك في الخوف يمكن أن يبقى له نصيب في الأمن. وقد مر أن المؤمن ينتقل بين السراء والضراء، ولكل حال عبوديته؛ فإذا كشف الله الضر فلا تجعل وفاءك لأيام الشدة اعتراضًا على نعمة الفرج.

افرح بعافيتك واشكرها، وعد إلى عملك وحياتك وأهلك بقلب لم ينس كل ما عرف. فالمقصود ألا تبقى مكسورًا، وإنما ألا تعود غافلًا.

الأيام العادية هي الامتحان الحقيقي للأثر

لا تقس أثر المحنة في الأسبوع الأول بعد انتهائها؛ فالخوف لا يزال قريبًا، والذاكرة حية، وكل شيء يذكرك بما مررت به. انتظر حتى تعود الأيام التي لا يحدث فيها شيء استثنائي، حين تمتلئ المواعيد، ويستعيد العمل اهتمامك، ويعود الهاتف إلى أخذ الساعات، ولا يذكرك أحد كل صباح بما كنت فيه.

هناك يظهر ما إذا كان شيء من التجربة قد انتقل من الذاكرة إلى البناء.

لا ينبغي أن تتوقع بقاء كل العبادات والقرارات بالصورة التي بدأت بها في زمن الأزمة، لكن ينبغي أن يكون هناك شيء تستطيع أن تشير إليه بعد زمن وتقول: هذا لم يكن في حياتي قبل ما مررت به، وقد أصبح الآن جزءًا منها؛ صلاة أصلح، أو ورد ثابت، أو حق أديته، أو علاقة رممتها، أو باب ذنب أغلقته، أو تعلق صار أخف.

ليس المهم أن تكون القائمة طويلة؛ المهم ألا يكون كل ما بقي قصة مؤثرة تحسن روايتها.

وإذا عدت إلى بعض ما كنت عليه؟

قد يخرج الإنسان من محنته بعزم صادق ثم يضعف بعد أشهر. تفتر العبادة، أو تعود بعض العادات القديمة، أو يكتشف أن التغيير لم يكن كاملًا كما ظن. وهنا قد يدفعه الإحباط إلى خسارة ثانية: أن يحكم بأن كل ما مر به لم ينفعه، وأنه عاد تمامًا إلى نقطة البداية.

لكن الاستقامة ليست عصمة من التعثر. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «قل آمنت بالله ثم استقم» رواه مسلم (38). والاستقامة طريق يمضي فيه العبد وهو مفتقر إلى ربه؛ فإذا زل رجع، وإذا ضعف استعان، وإذا قصر تاب.

وقد يكون الفرق الحقيقي بينك قبل البلاء وبعده أنك كنت قديمًا تسقط ولا تنتبه طويلًا، أما الآن فأصبحت أبصر بموضع السقوط وأسرع رجوعًا. فإذا ضعف وردك فلا تجعل نقصه سببًا لتركه كله، وإذا

عادت عادة قديمة فابدأ مقاومتها مرة أخرى، وإذا قصرت بعد نشاط فلا تجعل التقصير حكمًا على بقية عمرك.

فالذي خرج من الابتلاء أفضل ليس إنسانًا لم يعد يخطئ، وإنما إنسان صار يعرف الطريق إلى الرجوع أسرع.

خذ معك شيئًا يمكنه أن يعيش

قبل أن تطوي صفحة محنة كبيرة في حياتك، لا تحاول أن تستخرج منها عشرات الدروس والقرارات؛ فكثرة الوعود التي يعقدها الإنسان على نفسه في لحظات التأثر قد تكون أحد أسباب ضياعها كلها بعد أن تهدأ المشاعر.

قف عند ما صار واضحًا لك. ما العبادة التي فتح الله لك بابها؟ ما الخطأ الذي لم تعد تستطيع إنكاره؟ ما الحق الذي ينبغي أن تؤديه؟ وما الشيء الذي إن عاد كما كان قبل المحنة ستعرف أنك أضعت خيرًا كان يمكن أن يبقى؟

ثم اختر من ذلك شيئًا صادقًا تستطيع أن تحمله معك إلى حياتك العادية، وثبته حتى يصير جزءًا منك، ثم ابن عليه غيره. وهنا يظهر مرة أخرى معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل».

فليس أعظم ما تخرج به من البلاء أن تكون قد شعرت كثيرًا، ولا أن تكون قد فهمت كل الحكمة من وقوعه، فهذا مما قد يبقى علمه عند الله، وإنما أن يبقى لله فيك بعد البلاء شيء لم يكن قبله: عبادة أثبت، أو قلب أسرع رجوعًا، أو حق أديته، أو ذنب تركته، أو تعلق خف، أو معرفة بضعفك جعلتك أشد افتقارًا إلى ربك.

عندها لا يصبح البلاء مجرد صفحة مؤلمة طويتها؛ يصبح جزءًا من بنائك.

لكن الحياة لن تتوقف عند هذه المحنة. ستستمر في تقليبك بين عطاء ومنع، وصحة ومرض، وأمن وخوف، وقوة وضعف، حتى يأتي يوم ينتهي فيه ميدان الابتلاء كله.

ومن هنا يصل الكتاب إلى سؤاله الأخير: كيف تبقى لله في كل ما يأتي ويذهب، حتى تلقاه؟

الوحدة الحادية والثلاثون: حتى تلقى الله

مر القارئ في هذا الكتاب بأحوال كثيرة من أحوال الإنسان مع الابتلاء. رأى الحياة ميدانًا للاختبار، والبلاء كاشفًا لما في القلوب، وعرف كيف يربي الله عباده، ولماذا يثبت قوم ويتعثر آخرون، وكيف يفتح الرجاء أبوابه من غير أن يتحول إلى أمنيات تنسب إلى الله ما لم يعد به. ثم وصل إلى السؤال العملي: كيف يقرأ ما يحدث له، وكيف يستعد لما لم يأت، وكيف يحفظ بعد الشدة ما فتحه الله له فيها؟

لكن هذه الأسئلة كلها تقف في النهاية أمام سؤال أكبر: إلى أين تمضي هذه الرحلة؟

يجيب القرآن:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6].

هذه الآية ليست حديثًا عن لحظة الموت وحدها؛ إنها تكشف حقيقة الحياة كلها. فالإنسان منذ يفتح عينيه على الدنيا وهو يمضي في كدح متصل: يتعلم ويعمل، يحب ويفقد، يطلب ويمنع، ينجح ويتعثر، يقوى ويضعف، ويدخل مرحلة كان يظنها نهاية ليكتشف أنها بداية لمسؤولية جديدة.

تتغير تفاصيل الطريق، لكن القرآن يكشف الاتجاه الذي لا يتغير: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، ويكشف النهاية التي لا يستطيع أحد تجاوزها: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾.

وهنا يستقر المعنى الأخير لهذا الكتاب. لم نتعلم سنن الابتلاء لنمتلك قدرة على توقع كل ما سيقع، ولا لنبني حصانة تمنع القلب من الضعف، ولا لنعثر على معادلة تضمن لنا الفرج بالصورة التي نختارها. تعلمناها حتى نعرف كيف نعيش عبيدًا لله ونحن نمضي إليه، وكيف يبقى اتجاه القلب صحيحًا وإن تغيرت تضاريس الطريق.

لا تنتظر حياة تنتهي فيها الحاجة إلى العبودية

يقضي بعض الناس جزءًا كبيرًا من أعمارهم وهم ينتظرون اللحظة التي تستقر فيها الحياة حتى يبدأوا عيشها كما ينبغي. يقول أحدهم: إذا انتهت هذه الأزمة سأعود إلى نفسي وإلى عبادتي، فإذا انتهت جاءه عمل جديد أو مسؤولية أخرى. وينتظر آخر أن يستقر رزقه، فإذا استقر ازدادت التزاماته، ويظن أب أن حِمْلَهُ سينتهي حين يكبر أولاده، فإذا كبروا كبرت معهم أسئلة من نوع آخر.

ليست المشكلة في أن يحب الإنسان الراحة والاستقرار؛ فهما من نعم الله التي يشكر عليها. المشكلة أن يؤجل علاقته بالله وعبوديته له إلى حياة يتخيل أنها ستأتي خالية من المشقة والتحول.

قال الله تعالى:

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: 4].

لا تعني الآية أن الدنيا ألم خالص؛ ففيها من نعم الله ورحماته وأفراحه ما لا يحصى. لكنها تهدم وهم الحياة التي تخلو من المجاهدة والتكليف والتغير. فحتى النعمة التي تتمناها تحمل بعد مجيئها مسؤولية لم تكن تحملها قبلها؛ ومن دعا الله بالولد ينتقل إذا رزقه من عبودية الانتظار إلى عبودية التربية، ومن طلب الشفاء ينتقل إذا عوفي إلى سؤال الشكر واستعمال الصحة، ومن سأل الله فرصة للعمل يواجه إذا جاءت أمانة أدائها.

ولهذا لا تنتظر أن تهدأ الحياة كلها حتى تبدأ السير إلى الله؛ فأنت تسير إليه الآن، في بيتك كما هو، وفي عملك بما فيه، ومع جسد يقوى ويضعف، وبين علاقات تمنحك الحب وتحتاج منك إلى الصبر. العبودية ليست ما ستفعله بعدما تنتهي اضطرابات الحياة، وإنما ما تفعله لله وأنت تعيشها.

حتى يأتيك اليقين

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم:

﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: 99].

تضع هذه الآية أمام المؤمن خطًا يمتد من لحظة التكليف إلى آخر العمر. لا يبلغ الإنسان علمًا يغنيه عن الافتقار إلى الله، ولا منزلة من الصلاح يأمن معها على قلبه، ولا نجاحًا يسقط عنه الشكر، ولا بلاء يعفيه من عبودية الحال، ولا تمكينًا يجعله فوق سؤال الأمانة. تتغير صورة ما يطلب منه، ويبقى أصل العبودية مستمرًا.

قد يكون واجب قلبك اليوم الصبر على باب مغلق، ثم يفتحه الله فتصبح مطالبًا بالشكر وحسن استعمال ما أعطاك. وقد تمضي سنوات تطلب أمرًا، فإذا جاء اكتشفت أن الحصول عليه لم ينه الامتحان، وإنما غير صورته. وهكذا لا ينتقل المؤمن من الابتلاء إلى ما بعد الابتلاء بمعنى الخروج من ميدان العبودية، بل ينتقل من عبودية حال إلى عبودية حال أخرى.

ولهذا ينبغي أن يكون سؤال «ما حق الله عليّ الآن؟» من الأسئلة التي تصحب الإنسان في جميع مراحل حياته. فقد ينشغل طويلًا بسؤال متى يتغير واقعه، بينما باب العمل الذي يحبه الله منه في واقعه الحالي مفتوح أمامه؛ وربما كان اشتغاله الدائم بالحال التي ينتظرها يصرفه عن العبادة التي بين يديه.

أنت أكبر من المرحلة التي تمر بها

من طبيعة الشدة أنها تضيق مجال الرؤية. قد يرى المريض حياته كلها من داخل المرض، ويرى المدين المستقبل كله من خلال دينه، ويشعر من تأخر عنه ما يحب أن العمر كله صار انتظارًا، بينما قد يقع صاحب النجاح في خطأ معاكس فيرى المنصب أو المال أو الشهرة تعريفًا نهائيًا لنفسه.

لكن هذه كلها أحوال تمر بالإنسان وليست الإنسان كله، وهي فصول في الطريق وليست نهايته. ولهذا كان من الخطأ أن يحول المرء حالًا واحدة إلى حكم نهائي على نفسه أو علاقته بربه.

فأفضل لحظة ثبت فيها قلبك لا تمنحك شهادة أمان من السقوط، وأسوأ لحظة ضعفت فيها لا تمنعك من التوبة والقيام من جديد. قد تخطئ اليوم ثم تكون غدًا أصدق رجوعًا، وقد تثبت اليوم ثم تحتاج غدًا إلى أن تسأل الله الثبات من جديد. وما دام الإنسان حيًا فإن باب العمل والرجوع والإصلاح لم يغلق بعد.

وهذا يمنح المؤمن توازنًا دقيقًا: لا يغتر بما مضى من طاعته، ولا ييأس بسبب ما مضى من ضعفه. إذا أحسن شكر الله وسأله القبول، وإذا أساء تاب وأصلح ثم واصل السير. فالطريق إلى الله لا يحتاج إنسانًا لم يسقط قط، وإنما يحتاج عبدًا يعرف إلى أين يرجع كلما سقط.

عابر سبيل يعرف وجهته

قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» رواه البخاري (6416).

عابر السبيل لا يكره الطريق ولا يهمل محطاته، لكنه لا ينسى وجهته بسبب جمال محطة مر بها، ولا يجعل شيئًا مما يحمله يمنعه من الوصول. ينتفع بما يحتاج إليه، ويعطي كل مرحلة حقها، وهو يعرف في داخله أن الرحلة مستمرة.

بهذا المعنى يعيد الحديث ترتيب علاقة المؤمن بكل ما يحبه في الدنيا. فالمال نعمة تستعمل وتشكر، لكنه ليس نهاية الإنسان. والصحة نعمة تحفظ، لكنها لا تلغي حقيقة اللقاء. والأولاد موضع حب ورحمة ومسؤولية، لكنهم لا يغنون الإنسان عن وقوفه الفردي بين يدي الله. والمنصب أمانة مهما طال بقاؤه، وسيأتي يوم يخرج صاحبه منه كما دخل غيره قبله.

ولا يعني ذلك أن يعيش الإنسان بعيدًا عن دنياه أو قليل الوفاء لحقوق من يحب، بل المطلوب أن يعمر دنياه من غير أن يجعلها وطنه الأخير؛ فيبني بيته من غير أن يبني قلبه كله فيه، ويحب أهله من غير أن ينسى أن أجمل ما يريده لهم هو خير الدنيا والآخرة، ويجتهد في عمله من غير أن يسمح لنجاحه أن يبتلع عبوديته.

فالمشكلة ليست أن يكون للإنسان نصيب من الدنيا؛ إنما تبدأ المشكلة حين تصبح الدنيا هي الشيء الوحيد الذي يراه.

ماذا يبقى منك حين تسقط الأسماء؟

يمضي الإنسان في عمره حاملًا أسماء كثيرة: ابنًا ثم زوجًا وأبًا، موظفًا أو صاحب عمل، غنيًا أو فقيرًا، صحيحًا أو مريضًا، معروفًا أو مجهولًا. وهذه الأسماء ليست قليلة الشأن؛ فبها تتعلق حقوق ومسؤوليات وواجبات، لكنها جميعًا مؤقتة، وسيأتي يوم لا يبقى فيه منها إلا ما قدمه الإنسان لله وهو يحملها.

ولهذا قال الله تعالى:

> ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88-89].

وهنا يعود الكتاب كله إلى القلب الذي ظل حاضرًا منذ بدايات الرحلة. ذلك القلب الذي كشفه البلاء، واختبرته النعم، وأظهرت الضغوط مواضع ضعفه، ورباه الله بوحيه وما جرى عليه من أقدار، هو القلب الذي يمضي بالإنسان إلى آخر الطريق. وليس القلب السليم قلبًا معزولًا عن العمل؛ فسلامته تظهر في صدق صاحبه وعدله وتوبته وشكره وأدائه للحقوق.

وعندما تسقط الأسماء المؤقتة، يبقى السؤال الذي كان ينبغي أن يحكمها جميعًا: كيف كنت لله وأنت تحملها؟ ماذا فعل بك المال حين جاء؟ وكيف تصرفت بالقوة حين قدرت؟ وهل جعلك الضعف

أقرب إلى ربك أم دفعك إلى تجاوز حدوده؟ وهل أديت حق من جعلك الله مسؤولًا عنه؟ وهل عدت إليه حين أخطأت؟

بهذا المعنى تتشكل الخاتمة في تفاصيل لم تكن تبدو خاتمة حين عشتها؛ فقد يكون قرار صغير لا يراه أحد جزءًا مما تأتي به إلى الله يوم تلقاه.

لا تجعل خوف الخاتمة يسرق منك عمل اليوم

حين يتذكر المؤمن لقاء الله قد يسأل نفسه عن خاتمته، ويخاف على قلبه من التغير، وهذا خوف محمود إذا أيقظ العمل. لكنه قد ينحرف إلى قلق يستهلك صاحبه في التفكير في آخر يوم، بينما يضيع منه اليوم الذي بين يديه.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: 18].

لا تملك اليوم الأخير، لكنك تملك شيئًا من هذا اليوم. تستطيع أن تصلي صلاة أصدق، وأن ترد حقًا تستطيع رده، وأن تعتذر عن ظلم تعرفه، وأن تغلق باب حرام مفتوح أمامك، وأن تبدأ خيرًا طال تأجيله. هكذا يكون النظر إلى الغد القرآني باعثًا على إصلاح الحاضر، لا هروبًا منه.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالخواتيم» رواه البخاري (6607). وليس في الحديث ما يدعو إلى اليأس من عمل سبق، وإنما فيه ما يهدم الاغترار. فمن أحسن بالأمس لا يعيش اليوم على رصيد أمسه، ومن أساء بالأمس لا تمنعه إساءته من أن يبدأ اليوم رجوعًا صادقًا.

وحاجتك إلى الله لا تنتهي حتى آخر الطريق؛ تحتاج إليه ليعينك على البداية، وليقيمك إذا زللت، وليحفظ عليك ما أصلحت، وليثبتك حتى تنتهي الرحلة.

ستبقى محتاجًا إلى الرجوع

ربما يصل القارئ بعد رحلة طويلة مع سنن الابتلاء إلى توقع خفي من نفسه: بعد أن فهمت كل هذا، ينبغي ألا أضطرب كما كنت، وألا أكرر خطأ عرفته، وأن أثبت كلما نزل بي امتحان.

لكن الوحي لم يعد الإنسان بالعصمة بعد المعرفة.

قد يخاف المؤمن، ويشتد عليه الحزن، وينسى بعض ما تعلم، وتظهر في قلبه أمراض ظن أنه تجاوزها، وربما يقع في موضع كان ينصح غيره ألا يقع فيه. والسؤال الأخير ليس: هل أصبحت بعد هذه الرحلة إنسانًا لا يضعف؟ وإنما: ماذا تفعل عندما يظهر ضعفك مرة أخرى؟

هل تتواضع لما كشفه الله لك أم تدافع عن صورتك؟ هل تتوب أم تبرر؟ هل ترجع إلى الوحي أم تجعل هواك هو المفسر؟ وهل تواصل السير بعد السقوط أم تحول سقوطًا واحدًا إلى هوية تستسلم لها؟

قد تكون إحدى أعظم ثمار النضج أن يتوقف الإنسان عن الاندهاش من حاجته المستمرة إلى الله. كان في أول الطريق يظن أنه يحتاج إلى ربه حتى تنحل المشكلة، ثم تعلم أن حاجته إليه باقية بعد انحلالها؛ يحتاج إليه في النجاح كما احتاج إليه في الفشل، وفي الصحة كما احتاج إليه في المرض، ويحتاج إليه في الثبات نفسه حتى لا يفتن بثباته.

فالافتقار إلى الله ليس مرحلة تعبرها في الطريق؛ إنه حقيقة الطريق كله.

من الابتلاء إلى اللقاء

بدأت رحلة هذا الكتاب من حقيقة الابتلاء، وتنتهي الصفحات بينما ميدان الابتلاء ما زال مفتوحًا. سيغلق القارئ الكتاب ويعود إلى يوم يبدو عاديًا، وربما يأتيه الامتحان التالي في كلمة يستطيع أن يصدق أو يكذب فيها، أو مال يستطيع أن يأخذه بغير حق، أو إنسان ضعيف يستطيع أن يظلمه من غير أن يخشى مقاومته. وقد يأتي الامتحان في صورة أكبر: مرض أو فقد أو خوف أو قدرة واسعة توضع في يده.

أنت لا تعرف صورة الامتحان القادم، ولست محتاجًا إلى معرفتها حتى تعرف وجهتك:

> ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6].

هذه الحقيقة تجمع ما تفرق من أحداث حياتك. أنت لا تمضي من حادثة إلى أخرى بلا معنى؛ أنت تمضي إلى الله، وكل موقف يمر بك موضع يمكن أن تظهر فيه عبوديتك: تصدق أو تكذب، تشكر أو تجحد، تتوب أو تصر، تؤدي الأمانة أو تضيعها.

وحين تستقر الوجهة تتغير الأسئلة. لا يعود أعظم همك أن تعيش بلا ألم، وإنما أن يبقى قلبك لله إذا جاء الألم. ولا أن تحصل على كل ما تريد، وإنما ألا يفسدك ما تحصل عليه. ولا أن تفهم كل ما قدر الله، وإنما أن تقف عند حدود ما علمك وتحسن عبادته فيما خفي عنك.

ولا يكفي أن تثبت مرة فتأمن بعد ذلك؛ تبقى محتاجًا أن تسأله الثبات حتى آخر خطوة.

كيف تعيش حتى تلقاه؟

قال الله تعالى:

> ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

لا يملك الإنسان ساعة موته حتى يختار عندها حاله، لكنه يستطيع أن يعيش متمسكًا بالإسلام، سائلًا الله الثبات، مجاهدًا نفسه، حتى إذا جاء الأجل وجده على طريق كان يسير فيه.

وهنا يصبح السؤال الأخير في هذا الكتاب أكثر واقعية: ليس متى تلقى الله، فهذا لا تعرفه، ولا ما صورة آخر امتحان، فهذا غيب، وإنما كيف تريد أن تعيش حتى تلقاه؟

لن تلقاه بقلب لم يخطئ قط؛ فهذا ليس شأن البشر، لكن يمكنك أن تلقاه بقلب كان إذا أخطأ رجع. وقد لا تعيش حياة خالية من الألم، لكنك تستطيع أن تتعلم كيف تعبده في ألمك. وقد تتحقق أمنيات كثيرة ويبقى بعضها معلقًا، لكن يمكنك أن تعرف أن الله كان ربك في المنع كما كان ربك في العطاء.

وقد تصل إلى آخر الطريق وفي حياتك أسئلة لم تجد لها جوابًا: لماذا وقع هذا؟ ولماذا تأخر ذاك؟ ولماذا فقدت شيئًا أحببته، وفتح لغيرك باب أغلق عنك؟ وربما بقيت جراح لم تلتئم تمامًا، وأمنيات لم تأت في الصورة التي أردتها.

لكن العبد لا يحتاج قبل أن يلقى الله إلى أن يكون قد فهم كل شيء؛ يحتاج أن يعرف ربه، وأن يبقى عبدًا له، وأن يعرف طريق الرجوع إليه.

وعندها يكتمل معنى الرحلة كلها: ليس لأن جميع أسئلة الابتلاء أجابت عنها الدنيا، وإنما لأنك وصلت إلى من لم يخف عليه شيء من رحلتك منذ بدأت.

فامض إلى الله عبدًا يجاهد نقصه، ويتوب من ذنبه، ويشكر نعمته، ويستعين به على بلائه، ويعود إذا ضل عنه الطريق. لا تنتظر أن تصبح كاملًا حتى تسير؛ سر إليه وأنت تصلح نقصك في الطريق.

فمن أول كدحك إلى آخر نفس، يبقى الاتجاه واحدًا:

> ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6].

خاتمة المحور السابع: من السنن إلى الطريق

بدأ هذا المحور بسؤال: كيف تعيش هذه السنن؟ وبعد هذه الرحلة يظهر أن الجواب ليس قاعدة تحفظها، ولا قائمة خطوات تنفذها مرة ثم تنتهي، وإنما ميزان يصحبك في تقلب أحوالك.

أن يقع لك الحدث فلا تستعجل تفسير الغيب، بل تبدأ بما علمك الله. وأن تأتيك النعمة فلا تنس أنك ممتحن فيها كما تمتحن بالشدة. وأن تبني قبل الخوف صلة بالله تعرف طريقها، فإذا جاء ما لم تستعد لصورته وجدت في قلبك أصلًا ترجع إليه. وأن تكشف المحنة فيك شيئًا فلا تجعل انكشاف الضر يمحو كل ما تعلمته منها.

وهكذا تنتقل السنن من صفحات تقرؤها إلى عين تنظر بها، وقلب تراجعه، وعبودية تؤديها.

لن يكون نجاح هذه الرحلة أن يأتيك بعد اليوم ابتلاء تعرف اسمه في أي وحدة من الكتاب، وإنما أن يأتيك موقف لم يذكره الكتاب أصلًا، فتستطيع أن تميز ما ثبت لك من الوحي مما لا تعلمه، وأن تفحص السبب الذي تملكه، وأن ترى ما كشفه الحال في قلبك، ثم تسأل: ما حق الله عليّ الآن؟

عندها يكون الكتاب قد تجاوز صفحاته إلى حياتك.

وتبقى الحقيقة التي لا تتغير مهما تغيرت الأحوال: أن الله ربك في العطاء والمنع، وفي القوة والضعف، وفي الفهم والحيرة، وأنك عبده في كل ذلك. فإن وفقت فاحمده، وإن أخطأت فارجع إليه، وإن فتح لك

فاشكره وأد أمانة ما فتح، وإن ضاقت بك الطريق فاستعن به، ولا تجعل ضعفك سببًا لليأس ولا ثباتك سببًا للأمن.

قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: 112].

هذه هي الغاية بعد معرفة السنن كلها: أن تمضي على أمر الله، لا على تقلب مشاعرك، وأن يبقى الوحي دليلك، والتوبة طريق رجوعك، والعبودية وظيفتك.

بدأت الرحلة بسؤال الابتلاء، وانتهت إلى معنى أعمق منه: أن تبقى لله في كل حال، وأن تمضي إليه بقلب يعرف كيف يشكر إذا أعطي، ويصبر إذا ابتلي، ويتوب إذا زل، ويرجع إذا ضل، ويفتقر إليه إذا ثبت كما افتقر إليه حين ضعف.

فالغاية لم تكن يومًا أن تبلغ حياة لا تمتحن فيها.

الغاية أن تبقى عبدًا لله في كل ما يأتي ويذهب...

حتى تلقى الله.

خاتمة الكتاب

حين ينتهي الكتاب ويبدأ الامتحان

تنتهي صفحات هذا الكتاب، لكن الميدان الذي تحدثت عنه لا ينتهي بإغلاقها. ستعود إلى حياتك نفسها: إلى بيتك وعملك، وأهلك ومالك، وصحتك وما تخاف عليه، وإلى ما تنتظره وما يتأخر عنك، وإلى أيام تبدو عادية لا يحدث فيها شيء يستحق أن يروى. وهناك، بعيدًا عن هدوء القراءة وترتيب الفصول، سيظهر الأثر الحقيقي لما قرأت.

لقد بدأت هذه الرحلة من حقيقة أعلنها القرآن بوضوح لا يترك للإنسان وهم الحياة التي لا تمتحن:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: 155-156].

ولم يعلم القرآن المبتلى أن يختلق تفسيرًا تفصيليًا لما وقع، ولا جعل سكينته معلقة على معرفة الحكمة الخاصة وراء كل فقد، وإنما رده إلى حقيقتين أوسع من الحدث كله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ فنحن عبيده وملكه، و﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فليست الدنيا نهاية الطريق، ولا الحدث الذي نعيشه هو القصة كلها.

وبين هاتين الحقيقتين تقع حياة الإنسان: يأتيه ما يحب فيشكر، وينزل به ما يكره فيصبر، ويفتح له باب فيحمل أمانته، ويغلق عنه آخر فيبقى مأمورًا بما يستطيع من الدعاء والسعي. يخطئ فيتوب، ويضعف فيستعين، ويرى من نفسه ما لا يحب فلا يدافع عن صورته، وإنما يبدأ إصلاح ما انكشف له.

وهذا هو التحول الذي يرجى أن يبقى بعد هذا الكتاب. فقد يبدأ الإنسان رحلته وهو يسأل عند كل شدة: لماذا وقع هذا لي؟ أو يرى النجاح دليلًا كافيًا على صحة الطريق، والتأخر حكمًا على قيمته، ويحمل نفسه ما لا تملك من هداية من يحب، أو يفتش لكل مرض وخسارة عن تفسير غيبي يسكّن به حيرته.

أما بعد هذه الرحلة، فينبغي أن يصبح ميزانه أدق. يسأل نفسه: ماذا أعلم من الوحي؟ وما الذي لا أعلمه؟ وما السبب الذي أستطيع فحصه؟ وما الذي كشفه هذا الحدث في قلبي؟ وما حق الله عليّ في هذه الحال؟ وهذه الأسئلة لا تمنحه علم الغيب، لكنها تمنعه من اختراعه، ولا تمنحه السيطرة على النتائج، لكنها ترده إلى مساحة التكليف التي جعلها الله في يده.

وقد يكون من أهم ما تعلمته أن ظهور ضعفك ليس نهاية الطريق. قد يكشف لك الابتلاء تعلقًا لم تكن تراه، أو خوفًا ظننت أنك تجاوزته، أو حبًا للدنيا كان أعمق مما تعترف به، أو استعجالًا دفعك إلى قرارات لم تكن لتتخذها في السعة. وقد تكتشف أنك لم تكن قويًا كما تخيلت، وأن صورتك عن نفسك كانت أجمل من حقيقتها حين ارتفعت الكلفة.

لكن هذا الكشف، على ألمه، يمكن أن يصبح بابًا للإصلاح إذا صدقت معه. قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31].

لم يجعل الله باب التوبة لمن لم يخطئ، بل فتحه لعباده المؤمنين لأن طريقهم إليه لا يخلو من مجاهدة ونقص ورجوع. فلا تجعل معرفتك بضعفك حجة على اليأس من نفسك، كما لا تجعل معرفتك بنقاط قوتك حجة على الأمن عليها، وإنما كن أصدق في رؤية قلبك، وأسرع إلى التوبة إذا زل، وأقل دفاعًا عن خطئك حين يظهر لك.

وفي الجهة الأخرى، قد يكشف الابتلاء لك ثباتًا لم تكن تتوقعه. قد يحفظك الله عند خوف شديد، أو يوفقك إلى صبر في موطن كنت تظن أنك ستنهار فيه، أو يعينك على قول الحق حين ارتفعت كلفته. فإذا رأيت ذلك، فلا تحول نعمة التثبيت إلى قصة عن قوة نفسك؛ فإن القلب الذي ثبته الله بالأمس ما زال محتاجًا إلى تثبيته غدًا.

ولهذا علمنا القرآن أن نقول: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

وعلّم النبي صلى الله عليه وسلم أمته سؤال الثبات، وكان من دعائه: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك» رواه الترمذي (2140).

فالمعرفة لا تلغي حاجتك إلى الثبات، والتجربة السابقة لا تضمن موقفك القادم، والعمل الصالح لا يجعلك مستغنيًا عن توفيق الله. تبني أسباب الثبات، وتحفظ فرائضك، وتتعلم دينك، وتصحب من يعينك، وتبتعد عن أبواب الفتنة، ثم تبقى بعد ذلك عبدًا يسأل ربه ألا يكله إلى نفسه.

ولهذا لا ينبغي أن يكون أثر هذا الكتاب أن تعيش مترقبًا للمصيبة. لم يأمرك الله أن تستيقظ كل صباح متوقعًا أسوأ الاحتمالات، ولا أن تنظر إلى كل نعمة منتظرًا زوالها، ولا أن تجعل الاستعداد للابتلاء اسمًا آخر للقلق، وإنما أمرك أن تعبده في اليوم الذي بين يديك، وأن تؤدي حقه في الحال التي أنت فيها.

فالصلاة التي تحافظ عليها اليوم ليست وقتًا ضائعًا حتى تأتي الشدة؛ إنها من بناء قلبك. والصدق الذي تختاره حين تكون كلفته قليلة ليس موقفًا صغيرًا؛ إنه تدريب على أن يبقى الحق مقدمًا عندك حين ترتفع كلفته. والحق الذي ترده الآن، والخصومة التي تصلحها، والذنب الذي تتوب منه، كلها أعمال لا تحتاج إلى معرفة ما سيأتي غدًا حتى تعرف قيمتها اليوم.

وهكذا يصبح الاستعداد للمستقبل حسن عبودية في الحاضر، لا خوفًا دائمًا منه.

ثم ستأتيك الحياة بما لم يذكره هذا الكتاب. وربما يكون امتحانك القادم أقل وضوحًا من المرض والفقد؛ قد يأتي في ترقية توسع سلطتك على الناس، أو مال يفتح لك بابًا لم يكن مفتوحًا، أو كلمة تستطيع أن تكذب فيها لتحفظ صورتك، أو شخص ضعيف تستطيع أن تنتقص حقه من غير أن يقدر على مقاومتك.

وقد يأتي الامتحان في ولد بذلت في تربيته ثم رأيت منه ما يؤلمك، أو في دعاء طال انتظاره حتى بدأ قلبك يضيق، أو في نجاح كبير يوشك أن يقنعك أنك لم تعد محتاجًا إلى المراجعة. وعند هذه المواضع يظهر إن كان الوحي قد بقي حاكمًا حين خالفته مشاعرك، وإن كنت ستقف عند حدود ما تعلم، وتراجع نفسك في النجاح كما تراجعها في الفشل.

هناك يبدأ الامتحان الحقيقي لما قرأت.

فنجاح الكتاب فيك لن يقاس بعدد السنن التي تستطيع أن تسميها، ولا بعدد النصوص التي تحفظها، وإنما بما يحدث حين تصطدم معرفتك بمصلحتك وخوفك ورغبتك. هل يبقى الحق مقدمًا حين ترتفع كلفته؟ وهل تشكر النعمة من غير أن تجعلها شهادة أمان؟ وهل إذا كشفت الشدة فيك موضع ضعف بدأت إصلاحه، أم انتظرت حتى تهدأ ثم عدت إلى ما كنت؟

ولست مطالبًا بعد هذه الرحلة أن تصبح إنسانًا لا يخاف ولا يحزن ولا يخطئ؛ فالأنبياء عرفوا الخوف والحزن، والمؤمن يظل بشرًا يجاهد نفسه إلى آخر عمره. المطلوب أن يصبح طريقك إلى الله أوضح: إذا خفت استعنت، وإذا حزنت لم تسئ الظن بربك، وإذا أخطأت تبت، وإذا ثبت حمدت الله، وإذا لم تفهم وقفت عند حدود علمك، وإذا تغيرت الحال بحثت عن عبوديتها.

ولعل هذا هو المعنى الأعمق الذي ينبغي أن يبقى من عنوان الكتاب كله. قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾. لم يعد عباده بحياة تخلو من الخوف والنقص والفقد، لكنه لم يتركهم في البلاء بلا هدى؛ أنزل كتابًا يعرفون به ربهم، وأرسل رسولًا صلى الله عليه وسلم يعلمهم كيف يعبدونه، وفتح لهم باب الدعاء والتوبة، وأمرهم بالصبر والشكر، وربط قلوبهم به لا بتقلب أحوالهم.

فإذا جاءك ما تحب فاذكر من أعطاك، وإذا جاءك ما تكره فلا تجعل ألمك حكمًا على ربك، وإذا ظهر لك سبب في دائرة قدرتك فاعمل على إصلاحه، وما غاب عنك من حكمة القدر فلا تخترع له تفسيرًا. وإذا كشف الابتلاء في قلبك موضع ضعف فلا تهرب من إصلاحه، وإذا فتح لك في أيام الشدة بابًا من الخير فاحفظ منه شيئًا يبقى بعد زوالها.

وإذا تعثرت بعد كل ما تعلمت، فلا تجعل تعثرك حجة على ترك الطريق؛ ارجع إلى ربك مرة أخرى. فالرحلة لم تكن رحلة إنسان يبحث عن حياة لا يبتلى فيها، وإنما رحلة عبد يتعلم كيف يبقى لله في كل حال، وكيف يزداد افتقارًا إليه كلما عرف نفسه أكثر.

وما بين أول ابتلاء وآخر يوم من العمر، ستظل محتاجًا إلى الدعاء الذي علمك إياه القرآن:

> ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

فاللهم ثبت قلوبنا على دينك، ولا تكلنا إلى أنفسنا، وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وارزقنا في السراء شكرًا لا يطغينا، وفي الضراء صبرًا لا يقطعنا عنك، وإذا زللنا فردنا إليك ردًا جميلًا، واجعلنا لك في كل حال، واختم لنا بالإيمان وأنت راض عنا.

وينتهي الكتاب هنا، أما ما تعلمته منه فموضعه ما بقي من حياتك.

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.